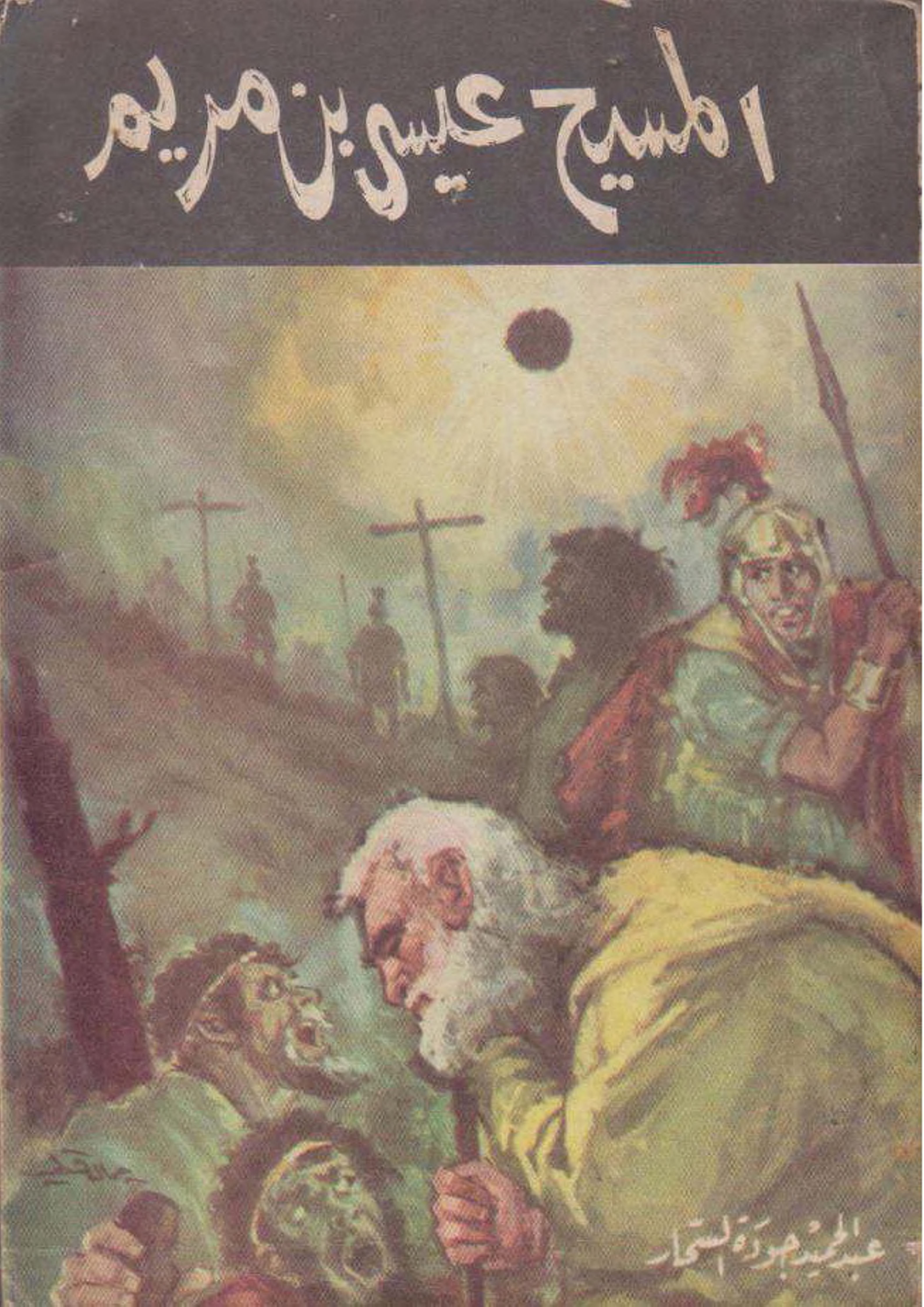
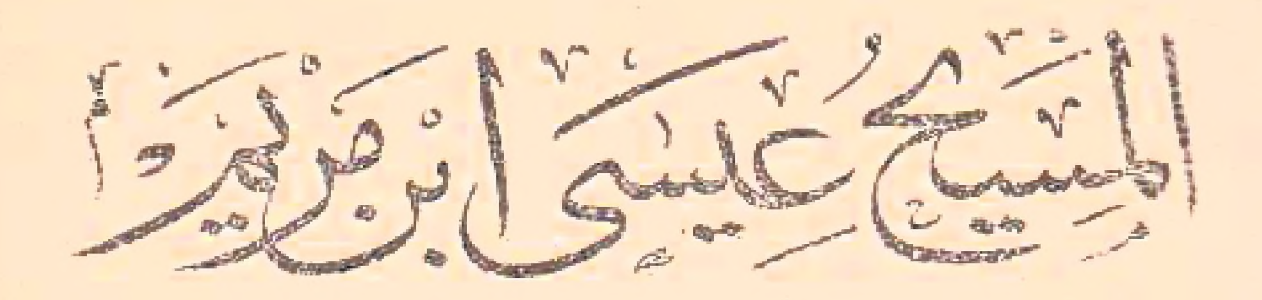

المسيح عيسى بن مريم
عبد الحميد جودة السحار

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
٣٧ شارع كامل صدقي . الفجالة
ت ٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٣

الإهداء

الى صديقى محمد محمد فرج ...

الذى دفعنى الى اخراج هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذي فيه يمترون »

(قرآن كريم)

١

« إذ قالت الملائكة يا مريم . إن الله اصطفاك وطهرك . واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي . واركعي مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

(قرآن كريم)

تنفس الفجر . فانبثق في الأفق الشرقي فيض من الضوء . وراح يبعث أشعته الفضية لتبدد ظلام الليل .. وصاح الديك إيذانا بمولد نهار جديد . فهبت الشمس تقطع رحلتها الأبدية . وأرسلت أشعتها الأولى إلى الناصرة . فانقشعت الغشاوة عن التلال . وعن أشجار الجوز العتيقة التي حنت يد الزمن أطرافها . وسقط الضوء على أشجار التين والزيتون . وراح يتسلل إلى البيوت الصغيرة المبعثرة في الوادي الخاشع عند أقدام التلال .

وتألق زهر البرتقال الأبيض كالزنابق . وتفتح نوار الرمان الأحمر . وبدا كأنما يبتسم لنور الصباح . وسجع اليمام على الأشجار . تسبيحا لخالق الكون والجمال . وراح الأخيل الأزرق يتنقل في مراح بين الحقول . ويحط على الأشجار . فتلوح كأنما أثمرت ثمارا من الفيروز .

وأريق النور من كوات المنازل . فقام عمران من نومه . واعتدل في فراشه . ومد يده . وتناول التوراة . ففتح سفر

دانيال . وراح يقرأ ويفكر فيما يقرأ . فيهيم في دنيا من الأحلام .
انه ليجد فيما يقرأ غذاء لروحه . ومادة لتأملاته . ان أسعد أوقات
حياته هي تلك السويعات التي يمضيها في قراءة التوراة في
الصباح . وتلك السويعات التي يمضيها مع جيرانه في المساء .
يتحدث عن الانبياء وعما فعلوه لبني اسرائيل . وعن النبوءات
التي تحققت . وعن النبوءة الكبرى التي يترقبها الجميع : نبوءة
مجيء المسيح ملك اليهود . الذي سيرسله الله الى بني اسرائيل .

كان يستشعر الزهو يملأ جوانحه اذا قرأ قصة راعوث أو
قصة داود . فهو من نسل ذلك البيت العريق . انه سليل الملك
داود . وكذلك زوجه من نفس ذلك البيت الكريم . فما كان لاسرائيلي
أن يتزوج الا من طبقته . انه من نسل الانبياء وقد تزوج من امرأة
يجري في عروقها دم النبوة الكريم .

وكانت حنة زوجه . تقدم له طعام الفطور . وتجلس تشاركه
في طعامه . ليدور الحديث عن الدين والأنبياء . فما كان هنالك
حديث في الناصرة الا عن الانبياء والدين . فأهلها جميعا من نسل
هارون وداود .

وكانت الناصرة تتكون من أسرات قليلة فقيرة . ولو أنها
أسرات تنحدر من أصلاب الانبياء . وكانت كل أسرة تحترف حرفة
يتوارثها الأبناء عن الآباء ! فقد احترف فرع داود النجارة .
واحترف فرع هارون تجارة الأخشاب ويجلبونها من التلال .
واحترفت الفروع الأخرى صناعة النعال أو تجفيف التين .

وكان عمران يخرج الى عمله . وينطلق في شوارع الناصرة
الضيقة . يلقي السلام على كل من يقابله . فالرجال يعرف بعضهم
بعضا . ويرجع ذلك التعارف الى أجيال . فالزواج محصور

فى تلك الأمر الهابطة من الأنبياء ، حتى لا يضيع الدم الزكى بين الناس .

كان عمران يمارس عمله ، فاذا مر بحانوته زائر او صاحب عمل ، طفق يحدثه عن قصص "التوراة" ، ويردد مزامير داود فى صوت اخاذ يهز المشاعر ، وينزل الخشوع بالقلوب ، فترتيلاته تنبعث من قلب نقى ، مفعم بالايمان العميق .

واقبل يوم السبت ، فارتدى عمران افخر ثيابه ، وارتدت حنة ثياب الخروج ، وانطلقا الى الكنيس ، وذهب عمران الى مكان الرجال ، وذهبت حنة الى الشرفة العالية المعدة للنساء المحجبات ، وراح الجميع يصلون ، فانبعثت الاصوات ملائكية تأخذ بالألباب ، فاحس عمران كأنما يهيم فى السموات . وما انتهت الصلاة حتى عادت تراوده الفكرة التى طالما راودته فى يقظته ، وطافت به فى منامه : فكرة الذهاب الى أورشليم لخدمة المعبد العظيم ، فقد رأى فى منامه انه يقوم بسدانته وطهوره وتبخيره ، وتقديم الذبائح الى اله اسرائيل .

ان زكريا ، زوج اليصابات اخت حنة ، هناك فى معبد الرب ، يقوم بخدمته ويكرس حياته للعبادة ، فلماذا لا ينطلق هو من اساره ، ويتحرر من قيود الدنيا ، ويهب نفسه خالصة لله رب العالمين ؟

عاد عمران الى بيته ، وقد طوى عزما على الخروج الى أورشليم ، ليكون من خدام المعبد المخلصين ، وافضى الى حنة بما قر عليه رأيه ، فجعلا يتأهبان للخروج ، حتى اذا تم لهما ما ارادا انطلقا فى الطريق المنساب بين التلال ، مخلفين وراءهما بيوت الناصرة الناصعة ، وهبطا الى السهل الأخضر اليانع ، وراحا يطويان الأرض حتى اشرفا على السامرة فأخذا يتقدمان تقدما فى

مصر . فالسامريون يخصون اليهود . فهم يعتقدون انهم ابناء اسرائيل الحقيقيون . ولا يعترفون الا بكتب موسى الخمسة دون باقى التوراة . ويعتزون بنسخة من هذه الكتب دونت على الماعز ، ويقولون ان هارون كتبها بخط يده .

تأصلت العداوة بين السامريين واليهود . فكان حجاج الناصرة والبلاد الشمالية يتجنبون المرور بالسامرة فى عيد الفصح فى طريقهم الى اورشليم . خشية ان يقع بينهما ما يعكر صفو العيد . وما كان السامريون يتجهون الى اورشليم لذبح قرابينهم ، بل كانوا يذبحون فى الجبل ، يسوقون ضحاياهم ، حتى اذا كان القمر بدرا ، امر الكاهن بالذبائح فتنحر ، ويلطخ ابواب الخيام بالدم . كانت لهم تقاليدهم ومعتقداتهم وشريعتهم ، وكانوا يعتقدون انهم وحدهم الذين يعرفون الله .

ونام عمران وحنة ليلتهما ، وما كانت تغمض عيونهما حتى يلو النوم خوفا ، واشرقت الشمس وقاما يستأنفان سفرهما ، كان النهار رائعا ، والحقول مخضرة ، والتلال اقل وحشة ، والرعاة ينطلقون امام الاغنام يرسلون اصواتهم الغنية بالغناء القوى فيبعث ترتيل القلوب ، والفلاحون يعملون ، هذا يبذر الحب ، وذاك يحرث الارض ، وتلك يتتظر الثمار من الرب ، والفتيات يحملن الجرار فى طريقهن الى البئر ، وطويت الارض ، واذا باشجار ظليلة على جانبى الطريق ، وبينهما بئر يعقوب ، فذهبت حنة تملأ الماء ، واستلقى عمران فى ظل شجرة ، فالبئر مكان اجتماع النساء ، فى الصباح وفى المساء ، وما كان ليذهب اليها رجل .

وعادت حنة وجلست الى جوار زوجها ، وجعلا يتحدثان عن البئر التى حفرها ابوهم اسرائيل ، ثم استأنفا سفرهما وفى قلبيهما امل ، امل الوصول الى اورشليم ، لخدمة العيد العظيم .

وبينما هما منطلقان اذا معلمان يلوحان . فهز مشهدهم اوتار قلبيهما ، وعصف بروحيهما الوجد ، فما وزنهما ان اولاها ويلها بين راعوث . فنزلا عندها وقد مرت لبيهما بهجة . وطاف مرائيهما ما ورد في التوراة عن هذا المكان الذي عاشت فيه جدتهما الشريفة التي انحدر من نسلها الملك داود .

وما ان ابلغتهما عند البئر الجديدة ، وانهما ليستنشقان عبير الماضي ، ويمثلان حوادثه الهائلة التي مرت بعقلهما كحلم لذيذ بين ماضي التاريخ . والتقت الليلة بهجة ، ثم قاما الى الطريق يضربان فيه ، يخترقان الصحراء والحقول ، ويمران بالقرى التي كانت تبدو كمنارات من الطين مبعثرة .

بلغا رياض المدينة المقدسة فخفق قلباهما . لاحت اورشليم شامخة في الفضاء وبدت قبة المعبد الذهبية تتألق تحت ضوء الشمس الوهاج . فأحس عمران روحه تخفق بين جنبيه ، وطفرت الدموع من ماقيه .

وانطلقا بين التلال المغطاة بالكروم واشجار التين والزيتون ، واصابا في مسالك المدينة يشعران بالغبطة ، حتى وصلا الى بيت زكريا ، فرحبت حنة تعانق اختها اليصابات ، وصافح زكريا عمران في شوق وترحيب .

ومرت الايام ، وانقطع عمران للعبادة ، وكانت حنة واليصابات تذهبان الى المعبد ، تجلسان في الشرفة الثلثة التي اعدت للنساء ، وقد غمرهما ايمان عميق ، فالانوار السماوية تتلألأ ، والاصوات الملائكية تتردد في المكان ، فتحلق الارواح في عوالم من الصفا ، والرجال في صحن الرهبان اطرقوا خاشعين ، فانعكست على وجوههم طمأنينة النفوس . وزكريا وعمران يخدمان المعبد ، فقد وهبا انفسهما لله ، ربطت بينهما المصاهرة ، والف بين قلبيهما

حبهما لله ، وجعلا يسارعان فى الخيرات ، ويدعوان الله رغبا ورهبا ، وكانا له خاشعين ·

وكرت الأيام حلوة هنية ، وحملت حنة ، فهزها الفرح ، لأن اعظم ما تفعله فتاة فى اسرائيل ، أن تنجب لزوجها أولادا ، وشغلت بما فى بطنها ، فراحت تفكر فيه وتتمنى أن يكون كجده داود ·

كانت تقضى جزءا من نهارها فى المعبد ، وتصغى جزءا من ليلها الى قصص موسى وهارون ودانيال ، فكانت تعيش مع الأنبياء ، وكانوا محور تفكيرها ، فاذا فكرت فيمن فى بطنها ، أمدتها ذاكرتها بما رسب فى واعيتها على مر السنين وكر الأيام ، ولطالما رأته بعين خيالها نبيا من أنبياء بنى اسرائيل ، كانت تراه مرة كالنبى دانيال ، وتراه تارة أخرى كالصبى داود يصرع جالوت ، ورأته أكثر من مرة كموسى على الجبل يناجى ربه ·

ومرض عمران ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فراحت حنة تمرضه ، وشغلت به عما فى بطنها ، ولم ينفعه حب زوجه وتمريضها ، فذهب الى ربه ليجد ما عمله من خير محضرا · وتأهبت حنة للعودة الى الناصرة ، وقبل الرحيل انطلقت الى المعبد ، ونظرت فوجدت زكريا قائما ، فحرك ذلك أشجانها ، وزاد فى حزنها أن انقطع بموت عمران شرف خدمة المعبد الذى كان فى بيتها ، فاطرقت أسفا ، وداعبتها فكرة أضاءت ظلام نفسها : لماذا لا تنذر ما فى بطنها لخدمة المعبد ، فيقوم بما كان يقوم به أبوه ، فيعود الى البيت شرفه ؟ واطمأنت الى الفكرة ، فشخصت ببصرها الى السماء ، وقالت فى حرارة :

ـ رب ، انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى انك أنت السميع العليم ·

ورجعت الى الناصرة .وعادت الى بيتها تنتظر تمام شهورها ،

ثم جاءها المخاض ، ووضعت ما في بطنها . فاذا به فتاة ، فنظرت الى السماء من خلل كوة في الجدار ، وقالت معتذرة :

ـ رب ، اني وضعتها أنثى .

والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وفكرت في اسم لها ؛ وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فلماذا لا تسمى ابنتها تيمنا ؟ شخصت الى السماء ثانية وقالت :

ـ واني سميتها مريم ، واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

تقبل الله مريم بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، فكانت تمضي سحابة يومها مع أمها في خدمة البيت ، وتنطلق الى البئر تجلب لها الماء ، وتسقي الأغنام القليلة التي تملكانها . وتذهب في طرقات الناصرة تقضي حاجتها ، فاذا جن الليل وفد الى الدار الأقارب ، واخذوا يتجاذبون بأطراف الحديث ، وكان حديثهم يدور حول الدين والأنبياء ، فكانت تعيرهم سمعها ، فذلك الحديث يصادف هوى في نفسها ، وكانوا يتحدثون عن المسيح الموعود . فالمدن اليهودية تستيقظ لتتحدث عنه ، وتهجع وصدى الحديث عن ملك اليهود المنتظر يتردد بين جنباتها .

وكبرت مريم ، وصار على حنة أن تفي بنذرها ، فأخذت ابنتها وانطلقت الى أورشليم ، لتسلمها الى العباد المقيمين في المعبد ، ودخلت على اليصابات تنتظر ، وأقبل زكريا فذكرت له ما جاءت من أجله .

وذاع بين العباد المنقطعين للعبادة أن امرأة عمران جاءت بابنتها تدفع بها الى من يكفلها ، فتنازعوا في أيهم يكفلها ، وأراد زكريا أن يستبد بها دونهم ، فاليصابات خالتها ، فقال للمختصمين :

ـ انا أحق بها منكم .

ـ ما أحد أحق بها من أحد ٠

ـ فما ترون ؟

ـ نرى أن نقترع ، فمن خرجت قرعته فان له حق كفالتها ٠

وجاء كل منهم بقلم معروف به ، وحملوا الأقلام ووضعوها فى موضع ، وأمروا غلاما لم يبلغ الحنث (كاتون [1]) أن يخرج قلما منها . فأخرج واحدا فكان قلم زكريا ، فقال الرجال :

ـ لا ، نقترع مرة ثانية ٠

فقال لهم زكريا :

ـ ماذا تطلبون ؟

ـ نلقى أقلامنا فى النهر ، فأينـا جرى قلمه على خلاف جريه فهو الغالب ٠

وذهبوا الى النهر ، والقوا أقلامهم . فسارت جميع الأقلام مع التيار ، الا قلم زكريا فقد جرى على خلاف جريه فى الماء ٠

فكفلهـا زكريا ، وأخذها لتكون خادمة من خدام المعبـد ، وخصص لها مكان للعبادة فى الطبقة العلوية . فكانت تصغى الى النقاش الدائر بين العباد ، والى المعلمين الذين يعلمـون تعـاليم الدين . فاذا أسدل الليل سدوله ، وخلت بنفسهـا فى غرفتهـا ، راحت تقرأ فى التوراة عن المسيح ابن الانسان ، الذى سيجىء من نسـل داود ليقيم العـدل ، وينزل أمراء الارض والجبـارين عن عروشهم ، وينزع أسـنان مرتكبى الاثم والشرور ، فتشخص الى السماء بعينيها الواسعتين السـوداوين ، وتشرد فى عوالم واسعة من التأمل والتفكير ٠

وجاء عيد الفصح ، فوفد الحجاج من سورية ومصر واثيوبيا

---

(١) تطلق على اليهودى الذى لم يبلغ الثانية عشرة ٠

وآسيا الصغرى وبابل واليونان ، يسوقون أمامهم النحائر ، يقدمونها للنحر فى المذبح ، وأصوات المصلين تتجاوب فى المعبد . ولما انتهى العيد ، خرجت بنات أورشليم الى الحدائق ، وخرج الحجاج الشبان خلفهن ، يبحثون عن زوجات . ولم تبق فى منازل أورشليم فتاة ، إلا مريم كانت فى محرابها تصلى لله .

وفدت حنة مع الحجاج ، وقابلت مريم ، ولما انقضى العيد اخذتها الى الناصرة تعيش معها أياما ، ثم تعود الى محرابها للعبادة والصلاة ، وانطلقت القافلة من أورشليم ، ومر يومان ، وفى اليوم الثالث أشرفت على الجليل ، كان الربيع قد جاء ، فبدت الحدائق فى ثوبها القشيب ، والحقول كأنما فرشت ببساط من سندس أخضر . أخذت الأرض زخرفها وازينت ، فتلفتت مريم منشرحة ، فالجليل قد بدا كقطعة من جنات النعيم .

وانسابت القافلة فى طريقها حتى أشرفت على الناصرة ، فاذا اشجار السرو والتين والزيتون تغطى سفوح التلال ، واذا البيوت فى الوادى خاشعة فى محراب الكون العريض ، واذا مريم تمد بصرها ، فلا ترى من بين تلك الدور الا دارها الصغيرة ، التى نبت فى فنائها بعض أشجار الزيتون ، وراحت بعض الأغنام تجول فيه .

عادت مريم الى الناصرة ، ولكن روحها هائمة بأورشليم ، فصلوات الرهبان تنساب رقيقة عذبة فى آذانها ، ومشاهد العباد تترادف فى مخيلتها ، ومحرابها الذى تقوم فيه ليلها ونهارها ماثل امام عينيها .

وجاء الليل بهدوئه وأسراره ، وبدأت حلقات السمار تتجمع فى الناصرة ، وبقيت حنة ومريم وحيدتين فى دارهما ، وتصرم من الليل أوله ، واذا بطارق يطرق الباب ، فقامت مريم وفتحته فاذا قريب وافد للمؤانسة والحديث .

جلس الرجل ، وبدأ يتحدث فيما جاء فيه . قال :

ـ أصبحت مريم شابة ، وخير ما تفعله فتاة من بنى اسرائيل أن تتزوج ، وأن تنجب أولادا ، وقد جئت أخطب مريم ·

فأطرقت حنة قليلا ، ثم قالت :

ـ لمن ؟

ـ ليوسف بن يعقوب ·

كان يوسف قريبا لمريم ، وكانت حنة تعرفه ، ولكنها صمتت قليلا ، فقال الرجل :

ـ يوسف شاب كريم ، وهو من بيت داود ، وانى أزكيه ·

فرفعت حنة رأسها وقالت :

ـ أحب شيء الى نفسى أن أزوج مريم قبل أن أموت ·

★ ★ ★

وتجاذب الرجل وحنة أطراف الحديث ، ومريم صامتة لا تنبس بكلمة ، حتى اذا انتهت هذه الزورة ، ودخلت فراشها ، أحست سحابة من الأسى تنتشر فى صدرها . كانت تسمع فى المعبد أن المسيح سيأتى من نسل داود ، وستضعه عذراء ، وكانت تحلم ككل عذراء فى اسرائيل أن تكون أم ذلك النبى المنتظر ، أما وقد خطبت الى يوسف بن يعقوب ، فقد تبخر من رأسها ذلك الحلم الجميل ·

وأعلنت فى الناصرة خطبة مريم ، وأجل الزواج الى أن يقيم يوسف له بيتا تنتقل اليه العروس ، وأحست مريم شوقا الى أورشليم ، انها تفتقر الى الغذاء الروحى الذى كانت تتناوله فى المعبد ، فاستأذنت من أمها فى العودة الى محرابها ، تمجد الله وتقدس له ، حتى ينتهى يوسف من اعداد عش الزوجية السعيد ·

كان على يوسف أن يعمل فى حانوته بيده ، ليدخر المهر الذى

يدفعه للعروس ، وما يكفيه لاقامة دار قريبة من دار حنــة ، وذلك يحتاج الى وقت طويل ، فأهل الناصرة فقراء ، لا يدفعون الا أتفه الاثمان فيما يقوم لهم به من أعمال النجارة ، فلم يعترض على عودة مريم الى أورشليم ، لتعيش فى المعبد ، فى رعاية زكريا ، قريبها الشيخ المبارك ..

وعادت مريم الى محرابهــا ، تمضى نهــارها فى العبــادة والاستغفار ، وتمضى ليلها فى التطلع الى نجوم السماء ومناجاة ربها ، وتصل اليها ترتيلات المصلين عذبة تنعش روحهــا . وفى ذات ليلة ، بينما كانت غارقة فى ابتهالاتها ، أحست كان شخصــا فى محرابها ، فتلفتت فلم تجد احدا ، فمشى الخوف فى أوصالها ، وأرهفت حواسها ، واتسعت عيناها السـوداوان رعبـا ، ومس اذنيها حفيف صوت ، فغمغمت فى فزع :

ـ من هناك ؟

واذا بصوت عذب يقول :

ـ انا رسول ربك اليك .

وغرق المكان فى ضوء باهر ، فخفق قلبها فى شدة ، وانبهرت انفاسها ، وتفصد العرق منها ، وانبعث صــوت عذب مس شـغاف قلبها :

ـ يا مريم ، ان الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين .

وساد المحراب سكون رهيب ، وبقيت مريم فى ذهول ، حتى اذا افرخ روعها ، أحست أمنـــا يغشاها ، وطمـأنينة تسكب فى روعها ، فملئت نشوة ، وسالت دموع الفرح على خديها ، وخرت ساجدة شكرا لله رب العالمين .

٢

« وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب . وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

(قرآن كريم)

الهدوء يلف كل شيء . حتى كان زفيف النسيم يسمع ، والضوء الخافت المنبعث من الذبالة يبدد الظلام ويفرش المكان بنور وادع لطيف ترتاح اليه النفوس ، وكان للمكان قدسية وجلال ، ولاحت في الضوء الخافت اللطيف مريم ، راكعة في خشوع تبتهل الى الله ، تجرى الدموع على خديها من الرهبة والوجد ، كان في وجهها نورانية وصفاء . وأقبل زكريا يسير الهوينى ، وقد نال منه الكبر ، يلوح في وجهه التقى والصلاح ، ودخل عليها المحراب ، فوجد عندها فاكهة في غير أوانها فتعجب . وقال لها :

ـ يا مريم ، انى لك هذا ؟

ـ هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وخرج زكريا ، وفتحت مريم التوراة ، وراحت تقرأ قصص الأنبياء ، فأحست قربا منها ، فرسل الرحمن الذين أرسلوا الى موسى وهارون وداود حدثوها ، وبشروها بأن الله قد اصطفاها وطهرها ، ان الحوادث التى كانت تقرؤها في شغف ، أصبحت تلمسها وتحسها في أعماقها ، كانت تتمنى أن تكون كراعوث

وراحيل اللتين كانتا بركة على بنى اسرائيل ، فاذا الملائكة تخبرها ان الله اصطفاها على نساء العالمين ·

وراح زكريا يفكر فى امره ، انه قارب الثمانين ولم يرزق ولدا ، وحز فى نفسه أن يبقى فردا وقد مسه الكبر ، وتمنى أن يهب الله له غلاما ، ولكن ما كان له أن يطمع فى ذلك واليصابات عاقر ، ولكن لما وقع بصره على الفاكهة ، أحيا ذلك موات الأمل فى نفسه . ان الله الذى يرزق مريم بفاكهة فى غير اوانها ، قادر على ان يهب له ذرية على الرغم من أنه شيخ وامرأته عاقر ·

وخرج زكريا على قومه ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق فى اكبار ، واستشعر فى نفسه أن الله يعدها لأمر جليل ، فهى من نسل داود ، وما زالت عذراء ، فمن يدرى ، قد تكون أم المسيح الذى تنبأ بمجيئه وبشر به الناس ·

ودخل محرابه ، وسجد فى خشوع ، وجعل ينادى ربه فى حرارة :

ــ يا رب ، يا رب ، يا رب ·

وصفت نفسه ، وتفتحت روحه ، وأحس كأن ينبوعا من النور تفجر فى جوفه ، فبدد الظلام الذى كان يحتويه صدره وشعر كأنما دنا من ربه ، فقال :

ــ رب ، انى وهن العظم منى ، وأشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ·

واطرق برأسه خاشعا ، وفاض النور فى المحراب ، وسمع حفيفا خفيفا ، فتلفت ، فرأى ملكا كريما ، يقول فى صوت حلو اخاذ :

ـ يا زكريا ، انا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا ٠

فرفع زكريا رأسه وقال :

ـ رب ، أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ؟ !

قال الملك :

ـ كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ٠

ـ رب اجعل لى آية ٠

ـ آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ٠

وخرج زكريا على قومه ، يفيض وجهه بالبشر ، ويخفق قلبه بالسرور ، ورمز الى قومه أن يسبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب له ربه ووهب له يحيى ٠

وقنتت مريم لربها ، وسجدت وركعت ، وابتهلت الى الله فى فحمة الليل ، وفى رائعة النهار ، وبينما هى فى محرابها هبت نسائم رقيقة ، وعبق الجو بروائح زكية ، وغرق المكان فى نور سماوى ، واذا بالملائكة أمامها ، واذا بامن عجيب ينزل بصدرها ، ورفعت بصرها وقالت الملائكة :

ـ يا مريم ، ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ٠

أذهلتها البشرى ، فاضطربت ونسيت أنها كانت ترجو ان تكون أم المسيح المنتظر ، ونسيت ما كانت تعرفه من أن أمه ستحمل به وهى عذراء ، فنظرت الى السماء وقالت :

•

ـ رب ، أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟

قال :

ـ كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ·

واجتهدت مريم فى عبادتها ، فصفت نفسها ورقت · وجاء الصيف . فكان النهار طويلا . والجو حارا ، فأحست عطشا . فرفعت قلتها لتشرب ، فلم تجد فيها ماء ، فقامت وهبطت الى المعبد : فطفقت أصوات المصلين تتضح فى مسامعها ، والفت روحها تردد الصلاة فى أعماقها ، وذهبت وقلتها فى يدها . وخلفت ألمعبد وراءها ، ولكن أصواتا ملائكية عذبة ظلت تردد الصلوات فى الفضاء ، فخيل اليها أن الكون كله يمجد الله ، وأن الريح تسبح بحمده ، وأن كل شىء يذكر اسمه ، ففاضت بهجتها ، وبلغت البئر وملأت قلتها ، وتأهبت للعودة ، ولكنها وقفت تتطلع فى عجب ، فالدنيا خاشعة ، كل شىء هادىء ، كأنما الأرض تتلقى وحيا من السماء ، وفجأة سمعت حركة بجوارها ، فالتفتت خائفة ، فاذا بشاب وسيم يشع من وجهه نور ، فاضطربت وارتدت وقد اتسعت عيناها رعبا وانبهرت أنفاسها ، وقالت :

ـ انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ·

فقال فى صوت يقطر رقة وعذوبة :

ـ لا تراعى ·

فقالت ولا زالت فى خوفها :

ـ من أنت ؟

ـ انما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاما زكيا ·

ـ انى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟

ـ كذلك قال ربك ، هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ٠

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت الى محرابها ، وقبعت فيه مطرقة تفكر ، فغشيها هم وقلق ، لقد حملت بالمسيح ، وستظهر عليها علامات الحمل ٠ فهل يصدقها الناس ، سيتغامزون عليها ، ويرمونها بالفاحشة ، ولن تستطيع لاتهامهم دفعا ٠

وراحت الأيام تمر وهى تعيش فى أفكارها ، واجتمعت عند البئر بفتيات يتحدثن ٠ فدار الحديث حول الدين ، وجاء ذكر المسيح المنتظر . فرأت مريم أن تعرف رأى الناس اذا كاشفتهم بسرها ، فقالت لهم :

ـ لقد حملت به ٠

فاتسعت العيون دهشا ، وارتسمت على الوجوه زراية ، وجرت على الألسن سخرية مريرة ، فانسحبت مريم وهى حزينة ، تكاد كبدها تنفطر ، وعزمت على أن تطوى سرها فى صدرها ، ولكن حديث البئر ذاع بين بنات أورشليم ، وقال الناس : ان مريم تريد أن تخفى خطيئتها بادعائها أنها حملت بالمسيح ، عرفت أنها من نسل داود ، فوجدت بذلك مبررا لدعواها الكاذبة ٠

وانتشر حديث حمل مريم انتشار الريح ، وذاع حتى بلغ الناصرة ، فساد القوم وجوم ، وراحوا ينظرون الى يوسف النجار فى احتقار ، وقاطعوه لأنه جنى الثمرة قبل أوانها ٠

وعجب يوسف لنظرات الناس وكشحهم بوجوههم عنه ، وسأل عما دفع الناس الى احتقاره ، فبلغه ما يقول الناس عنه ، فنزل به حزن ثقيل ، ولم يصدق ما يلصقه الناس بمريم ٠ انه يعرفها تقية نقية ، وقلبه يوحى اليه أنها لا تأتى فاحشة ، وما كان قلبه يخدعه .

واستمر حديث الناس يؤذيه ، فلم يستطع عليه صبرا ، فشد الرحال الى أورشليم ، الى حيث تتعبد مريم ·

انطلق وهو حزين ، ونفسه موزعة بين الرجاء واليأس ، اذا اراد أن يتهمها ذكر صلاحها ، وبراءتها ، واذا أراد أن يبرئها ذكر ما يقول عنها الناس ، فبقى فريســة لأفكاره لا يهدأ له بال ، ولا تغمض له عين ، فيستريح من الرؤى التى تهاجمــه فى قســوة ، فتمزق روحه ، وتفتت كبده ·

وبلغ أورشليم ، وتقدم خافق القلب ، مضطرب النفس ، وقد شغل باحساساته عن كل ما حوله ، وقابل مريم ، فالفاها قد رق جسمها ، واصفر لونها ، وكلف وجهها ، ونتأ بطنها ، فانقبض ، ونزل بقلبه حزن عميق وغشى وجهه اظلام ، ولكنه كبت ما يقاسيه ، فقد كانت نفسه كاسفنجة تمتص الآلام ولا تطفح بها ، فقال لها وهو مطرق ، لا يرفع عينيه اليها :

ـ بلغنى ما يقول الناس عنك ، وقد حرصــت على أن أميتــه وأكتمه فى نفسى ، فغلبنى ذلك ، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدرى·

فقالت مريم فى ثبات :

ـ فقل قولا جميلا ·

ـ ما كنت اقول الا ذلك ، فحدثينى : هل ينبت زرع بغير بذر ؟

ـ نعم ·

ـ فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها ؟

ـ نعم ·

ـ فهل يكون ولد من غير ذكر ؟

ـ نعم ، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر انما كان من الزرع الذى أنبته الله من غير بذر ، أولم تعلم أن الله انبت الشجر من غير غيث ، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث

حياة الشجر ، بعد أن خلق كل واحد منهما وحده ؟ أو تقول لم يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ، ولولا ذلك لم يقدر على انباته ؟

قال يوسف :

ـ لا اقول ذلك ، ولكنى أعلم أن الله بقدرته على ما يشاء ، يقول لذلك كن فيكون .

ـ أولم تعلم أن الله عز وجل خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى ؟

ـ بلى .

وأطرق مفكرا ، وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من عند الله . ولم تتركه لفكره ، بل قالت له :

ـ ان الله بشرنى بالمسيح عيسى بن مريم .

كان يوسف مؤمنا تقيا ، يعتقد أن الله سيرسل المسيح الى بنى اسرائيل نبيا ، من صلب داود ، وستضعه عذراء ، ومريم من تلك السلالة الطاهرة ، وهى كفء لحمله ، فلم يمـــار فى ذلك ، ولم يكذبها .

ودخل لينام ، فاذا بملك يقول له :

ـ يا يوسف ، ان ما فى بطن مريم من عند الله وقد اختارك الله لتكفل رسوله ، ولتكون راعيا له .

فهب يوسف من نومه منشرحا ، وسجد لله شكرا ، أن اختاره حارسا لمسيحه ، الذى سيرسله هداية لبنى اسرائيل .

٣

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فاجاءها المخاض الى جذع النخلة . قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » .

(قرآن كريم)

رأى رهبان المعبد امارات الحمل تظهر على مريم ، فاستعظموه ولم يدروا على ماذا يحملون أمرها ، وساءهم أن تلوث المعبد من كانوا يظنونها أتقى أهل الأرض طرا ، انهم تخاصموا فى أيهم يكفلها . وقد شبت بينهم لا تغادر محرابها الا لضرورة : ان هذا الأمر يقلقهم ويحيرهم ويعصر نفوسهم فى أسى ، فاجتمعوا يتشاورون . يديرون قداح الرأى بينهم ، فرأوا أن يحاكموها ، فاذا ظهر انها فسقت رجموها ، كما تقضى شريعة موسى .

وراح زكريا يذكر لهم ما رأى فى محرابها ، ويذكرهم ببشارات الأنبياء بالمسيح . وان هذه التى يتهمونها ظلما هى الأم الموعودة ، التى يترقب بنو اسرائيل وليدها ، ان زوجته ما حملت الا ببركتها ، فلولاها لما رزقه الله يحيى ، واستمر يبرئها مما نسبوه اليها ، ولكنهم اعرضوا عنه ، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وقالوا : ما انبرى للدفاع عنها الا لأنه كفيلها ، ولأن أمها أخت زوجته اليصابات .

وخيم الظلام ، ودثر أورشليم فى غلالته السوداء ، ونام الرهبان ينتظرون الصباح ، ليحاكموا مريم ويرجموها ، ودخل يوسف الى

فراشه ، وما أسلم جبينه للرقاد . وأغمض عينيه حتى هتف به هاتف :

— يوسف قم ، وأخرج مريم ، فالقوم يأتمرون بها .

هب يوسف من نومه ، فأعد حماره ، وانطلق الى مريم وهى يترقب . فاخبرها بما اوحى اليه ، ثم حملها على حماره . وانطلقا فى سكون الليل فى الطريق الضيق ، حذاء الأسوار الهائلة التى تبعث فى النفوس الرهبة . تلك الأسوار التى بناها داود حول المدينة المقدسة ، وتركا الطرق المتعرجة ، وانسابا بين التلال الصفر ، ثم خرجا الى الفضاء ، فصفرت الرياح ، ومشت الرعدة فى اجسامها . كانت الليلة شديدة البرودة ، وأرسل القمر ضوءه ينير الطريق ؛ فبدت الصحراء الواسعة كبساط أصفر فضى وشاه الحسك . وانطوى الليل واشرقت الشمس فدبت الحرارة فى الأجسام المقرورة .

ولمحا بئرا فذهبا اليها ، ونزلا عندها حتى اذا استراحا من السفر ، قاما يستأنفان رحلتهما ، وغابت الشمس فى الأفق الغربى ، ولاح الطريق الأبيض الذاهب الى بيت لحم ، فانسابا فيه . وظهرت المدينة بأشجار السرو العالية ، والمنازل البادية كأشباح بيض بين أشجار الزيتون التى تظللها ، وأخذت بيت لحم تتضح أمام عيونهما ، فخفق قلباهما ، وبدت الأغنام بين الأشجار كقطع من الجليد متناثرة .

وبلغا باب المدينة ، فاذا النسر الرومانى فوقه ، واذا بجند من جنود الرومان ، واقفون يحصلون الضرائب ، فالملك هيرودس يجبيها في كل مكان ، ليرفعها الي أسياده في رومية ، انه يفعل كل ما يرضيهم وان كان فى ذلك ارهاق لشعبه ، فغاية ما يبغيه أن يرضى عنه سيده أوغسطس قيصر .

دخلت القوافل بعد أن أدت الضرائب . ومرت الجمال كالأطياف ، وراحت حوافر الحمير تضرب الأرض فترتفع أصواتها ، ودخل يوسف ومريم وقد أرخى الليل سدوله ، وانسابا فى طريق قامت على جانبيه أشجار الزيتون .

كانت ليلة شديدة البرودة ، وكان القمر فى ليلة تمامه ، يرسل أشعته ، فيسدل على الكون وشاحا فضيا أخاذا ، وكانت النجوم فى رقعة السماء تتلألأ ، كأنما جلتها يد ساحرة .

وارتفعت نغمات مزمار ، فاذا براع يرعى غنمه فى الليل ، واذا بالغنم قد استكانت ورفعت رءوسها . كأنما الأنغام تسكب النشوة فى أجوافها ، فنظرا ، فقفزت الى ذهنيهما صورة داود وهو يرعى الغنم . فقد رعاها فى هذه البقاع التى غطيت بالأعشاب ، فكانت مراعى طيبة .

وسارا ، وما ابتعدا الا قليلا حتى أحست مريم آلام الوضع ، فتلفتت فوجدت حقلا منبسطا : انه الحقل الذى جاءت اليه جدتها راعوث ، تجمع منه الحنطة وهى كسيرة الفؤاد ، بعد موت زوجها وهجيئها مع حماتها نعمى ، ووجدت ثلاثة من الرعاة جالسين فيه يحرسون أغنامهم ، فرأت أن تتحامل حتى تصل الى نزل قريب ، ولكن فاجاها المخاض الى جذع نخلة ، فاحتمت به تضع ما فى بطنها .

كانت الريح تزمجر ، والقر شديدا يجمد الأطراف ، فوقف يوسف بعيدا ، وقد أطرق أسى ، فمريم تضع أمل بنى اسرائيل المرتقب فى الخلاء ، ليس لها وطاء الا الأرض ، ولا غطاء الا السماء .

وهدأت الرياح ،وهبت نسائم عبقة بالعطر النفاذ ، وتغير الجو فاذا الليلة الباردة تنقلب ليلة رائعة من ليالى الربيع ، وسقط من السماء نور باهر أضاء المكان ، وانبعثت ترتيلات ملائكية هزت

نفس يوسف ، وجعلته ينظر وهو لا يدرى ، أهو سابح فى حلم من أبهج الأحلام أم هو يقظان ·

غشى النور أبصار الرعاة ، فنظروا مدهوشين ، ومست آذانهم الأصوات الملائكية التى كانت تسبح لله القـادر ، فامتلئوا عجبا ، وفطنوا الى أن المرأة التى التجأت الى الشجرة انما تضع مولودا مباركا له شأن عظيم ·

وطاف برأس مريم خاطر ، جاءت ساعة الوضع ، وعما قليل تنهض وعلى يديها طفلها ، فماذا يقول قومها عنها ، فجزنت وبرح بها الحزن ، فقالت :

ـ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ·

ووضعت ابنها ، وما لمس الأرض حتى ناداها من تحتها :

ـ لا تحزنى ، قد جعـل ربك تحتك سريا ، وهزى اليـك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر احدا فقولى : انى نذرت للرحمن صوما ، فلن اكلم اليوم انسيا ·

وحمل يوسف مريم ووليدها ، وذهب الى نزل وضيع ، وانطلق الرعاة الى المدينة يقصون ما رأوه فى الليلة العجيبة ·

وخرج ثلاثة رجال من فارس ، يرصدون نجوم السماء ، فهم يقرءون ما سطر فى سجل القدر ، ليرفعوه الى ملكهم · كانوا على علم بالنجوم ، وما كان الملك يتخذ أمرا قبل أن يستمع الى نصحهم ورأيهم ·

كان الملك يحكم شعبه ، وهؤلاء الحكماء يحركون الملك ، فهم الملوك الحقيقيون : يعلنون الحروب ، ويقتلون الرجال ، ويوحون ـ ان أرادوا ـ بالسلام ، فهم القوة المحركة فى البـلاد ، يقبضون على ازمتها باسم العلم والدين ·

شخص ثلاثتهم الى السماء ، يرصــدون النجوم المتلألئة فى الرقعة الزرقاء ، قال قائل منهم :

ـ طلع الليلة نجم جديد ·

ـ هذا نجم لم نره قبل الليلة ·

ـ ولد الليلة ملك ·

ـ انه ملك اليهود ·

ـ الملك الذى جاء ذكره فى التوراة ، ذلك الذى سيرسله الله سلاما.

ـ حقا هذا نجمه ·

ـ وأين ولد ؟

ـ هناك فى أرض اليهود ·

ـ فلنخرج اليه ، نعلن تصديقنا به ، وايماننا بالله الذى أرسله ·

وتجهزوا للرحلة الطـويلة ، وحمــلوا هداياهم ، وكانت من الذهب والمر واللبــان ، وامتطــوا رواحلهم ، وخرجوا من فارس وعبروا دجلة والفرات ، وانسابوا فى الصحراء على امتداد البحر الميت ليبلغوا أرض اليهود ، ويسألوا عن المولود الذى بزغ نجمه فى المشرق ·

بلغ الرجال الثلاثة صهيون ، وانطلقوا يتلفتــون ، انهم يرون القــوافل غادية رائحة ، والعربات التى تجرها الثيران ذاهبة الى الحقول أو خارجة منها ، فظلوا فى ســيرهم حتى رأوا ســوقا ، فهبطوا عن رواحلهم ، واندسوا بين الجماهير ·

راحوا يتنسمون أخبار المولود الذى رأوا نجمه فى السماء ، فلم يهتدوا اليه ، واقترب أحدهم من عين من عيــون هيرودس ، وقال له :

ـ بزغ فى المشرق نجم ملك اليهود الذى وعد الله أن يرسـله سلاما ، فجئنا من بلادنا نبحث عنه ، ألا تدرى أين ولد ؟

ـ ماذا تريدون منه ؟

ـ جئنا نؤمن به ونصدقه ·

ـ لم أسمع بهذا قبل الآن ·

واستمر الرجال فى بحثهم وتنقيبهم ، وذهب رجل هيرودس الى القصر ، وكان الملك فى قصره الجديد فى صهيون ، يفضى اليه بالنبأ العجيب ، فبعث هيرودس رجاله يحضرون له هؤلاء الذين جاءوا من فارس يوسوسون فى آذان الشعب ، أن ملكا جديدا قد ولد ، فيزعزعون ثقة الشعب فيه ·

خرج رجال الملك الى السوق ، وجاءوا بالرجال الثلاثة ، فلما مثلوا أمام هيرودس الأكبر ، قال لهم :

ـ من أنتم ؟

ـ نحن أشراف قومنا ، شرفنا العلم والدين ، نقرأ النجوم ، ونعرف الغيب ، وما كان ملكنا يقضى أمرا قبل أن يرى رأينا فيه ·

ـ وما الذى جاء بكم الى أرضنا ؟

ـ هذا أوان نبى أظلنا زمانه ، فكنا نخرج كل ليلة نرصد النجوم ، نرقب بزوغ نجمه ، فلما بزغ شددنا الرحال اليه ، نصدقه ونؤمن به ، ونقدم اليه هدايانا ·

ـ فما بال الذهب والمر واللبان قد اخترتموها من بين الأشياء كلها ؟

ـ تلك أمثاله ، لأن الذهب هو سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبى هو سيد أهل زمانه ، ولأن المر يجبر به الجرح والكسر ، وكذلك هذا النبى يشفى به الله كل سقيم ومريض ، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره ، كذلك هذا النبى يرفعه الله الى السماء ، لا يرفع أحدا غيره ·

ـ وما أدراكم أنه يظهر هنا فى أرضنا ؟

ـ انه رسول الى بنى اسرائيل ، انه ملك اليهود :

انقبض هيرودس . ولكنه اخفى عواطفه ، والتفت الى من حوله وقال :

ـ على بالكهنة .

فجيء بهم . فقال لهم :

ـ اسمعوا ما يقول هؤلاء ، ثم انبئونى اين ولد هذا المولود .

اصغى الكهنة الى الرجال الثلاثة ، ثم قالوا :

ـ يولد المسيح ، نبى بنى اسرائيل ، فى بيت لحم مدينة داود .

فتطير هيرودس ، وانفجر فى جوفه مرجل غضبه ، وتحركت عوامل الحقد فيه ، انه طاغية لا يطيق أن يعترض سبيله انسان ، وما طالما قضى على أفراد أسرته حتى لا ينافسه فى ملكه منافس ، واذا بهؤلاء الغرباء يقدمون من بلاد بعيدة ، ليخبروه أن وليدا قد جاء الى الدنيا ليستل منه عرشه ، لو أنه يدرى أين هذا الوليد لقتله ، ولاستراح منه . ولكنه لا يدرى أين هو ، فكظم غيظه ، وجعل يدارى ما به ، وقال متكلفا الرقة :

ـ اذهبوا ، فاذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك ، فانى أرغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره .

وانطلق الرجال الثلاثة الى بيت لحم ، ودلفوا الى الطريق الابيض الذى قامت على جانبيه أشجار الزيتون ، اخترقوا الحدائق ، وهم يتلفتون لا يدرون أين يذهبون ، وراحوا يبحثون وينقبون ، ولكنهم لم يهتدوا الى الطفل المبارك الذى تجشموا أهوال السفر ليقدموا اليه هداياهم ، وكنوز قلوبهم العامرة بالايمان واليقين .

واقبل الليل ، وبزغ فى السماء نجم ، انه نجم ذلك النبى الموعود ، فتطلعوا اليه فاذا بالنجم يسير ، كأنما يهديهم سواء

السبيل ، فساروا فى أثره ، وقلوبهم تخفق فى حنايا الضلوع ٠

وتلألأ النجم فوق نزل متواضع كأنما يسير اليه ، فقالوا فى فرح : -

ـ انه هنا ، فى هذه الدار ٠

وتقدموا خافقة قلوبهم ، يشعرون برهبة ما احسوا بها قبل الآن ، فطالما تقدموا الى الملوك ثابتى الجنان ، يسرى فى أجوافهم خوف ، وطرقوا الباب هونا ، فاذا بالباب يفتح واذا بصوت يدعوهم للدخول ، فتقدموا خاشعين ، وفى ضوء المصباح الخافت تبينوا المكان ، فاذا مريم جالسة وعلى ركبتيها ابنها الصغير ، تحيط به هالة من نور ، ووقف الى جوارها يوسف ، الرجل الذى فتح لهم الباب ، ودعاهم الى الدخول ٠

دنا الرجال من الطفل الصغير ، فنزل بقلوبهم أمن ، وانداحت فى أجوافهم بهجة ، لأن رحلتهم لم تذهب هباء ، وقاموا الى مريم يقدمون اليها ما يحملون من الذهب والمر واللبان وقالوا لها :

ـ خرجنا الى هنا حاجين ، وجئنا من فارس نعلن تصديقنا برسول رب العالمين ٠

ونام الرجال الثلاثة فرحين ، وعزموا على أن يرجعوا الى هيرودس ويخبروه أنهم عثروا على المسيح ، ليؤمن به ويصدقه ، وما دار بخلدهم أن هيرودس وأهل بيته هم أعداؤه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا ٠

وأغرقوا فى نومهم ، فرأوا من يقول لهم :

ـ لا ترجعوا اليه ، ولا تعلموه بمكانه ، فانما أراد بذلك أن يقتله ٠

وانصرف الرجال الى بلادهم ، وقد أخذوا طريقا غير طريق هيرودس ، الذى يبغى القضاء على رسول الله الى بنى اسرائيل ٠

٤

« فاتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا . فأشارت اليــه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » ؟

(قرآن كريم)

بقيت مريم فى المنزل لا تســتطيع مغــادرته ، فما كان لامرأة وضعت ما فى بطنها أن تترك البيت قبل أن يمضى على ذلك أربعون يوما حسب شريعــة موسى ، وتمت الأيام ، فخرج يوســف ومريم والوليد ، وانطلقوا فى رحلتهم الخالدة ، الى الناصرة ، اذا نزلوا بئر أطلق عليه من بعــد بئر مريم ، واذا استظلوا بشجرة حجت اليها الأجيال ، واذا مدوا أبصارهم الى مشهد من مشاهد الكون ، هرع الفنانون والرســامون والكتاب على مر العصــور يستوحون الطريق الذى يختارونه الآن ، ليمدهم بالمشــاعر والانفعالات التى تيسر لهم ابراز لوحاتهم ، أو شحن كتبهم بالاحساسات النابضة .

كانت رحلة هينة ، لم يستشعروا فيها آلام النفس التى كانت تضنيهم ، فقد أقلع الخوف بعد أن صــدق الله وعده ، ووهب لمريم ابنها فى بيت لحم اليهودية ، ان الله حارسهم ومؤيدهم ومظهرهم ، فلن تفت فى أعضادهم الشــدائد ، ولن تعــرف قلوبهم القلق وان حاقت بهم الكروب ، سيمتثلون أوامر الله صابرين ، حتى يتم نوره ولو كره الكافرون .

مباركا اينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم اموت ، ويوم أبعث حيا ·

انجلت عن صدر امرأة عمران الهموم ، وانداحت فيه نشوة مزنها ، فانهمرت دموع الفرح من ماقيها ·

ودخلت مريم دار أهلها ، فاذا أشرقت الشمس جلست امام الباب تداعب ابنها ، وتمد بصرها الى ما حولها ، فتحس انشراحا ، فالأرض ازينت وارتدت ثوبها الأخضر القشيب · فكأنت كأنما ردت الى شبابها ، والتلال توجت بأشجار التين والزيتون فلاحت فى النور زاهية ، وانطلقت الأغنام ترعى العشب هادئة بريئة ، ببراءة ذلك الطفل الراقد فى حجرها يهز يديه ورجليه فى مرح ·

خيل لمريم أن الدنيا كلها راكعة تحت قدميها ، تتنافس فى أن تدخل البهجة على قلب ابنها : النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، والشمس ترسل أشعتها لطيفة تبعث فى النفس الأمل ، والطيور ترفرف فوقها فى فرح ، والأغنام تفد اليها تتمسح بها ، فتضع يده على رءوسها ، فتشرق بسمة على ثغره ، ان قلبه الصغير ليهفو الى وداعة الغنم ·

كانت الطمأنينة تلف كل شيء فى الناصرة ، فقرت عين مريم ، وسكن الهدوء قلبها ، ولكن ما كانت هذه السكينة لتدوم طويلا ، فما كان الله يدع من يعده للرسالة للراحة والهدوء والدعة ، ان الله يحمله المشاق ، ليعوده الاحتمال والصبر ، ويقسو عليه بالحرمان ، ليغرس فى نفسه العطف ، ويرسله يضرب فى الأرض ، ليزيد فى كنوز قلبه الغالية ·

ومن هناك من صهيون جاء الفزع · كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف فرقا على عرشه ،

وانقضت ايام . وانطوى الطريق . ولاحت تلال الناصرة تكللها أشجار السرو والزيتون . وانساب الركب الصغير الى البيوت الناصعة . وظهر يوسف ومريم والطفل الصغير فى شوارع الناصرة . فتطلع الناس اليهم فى احتقار . وأشاحوا عنهم بالوجوه زراية . فلم تطرق مريم عارا . بل ظلت مرفوعة الرأس . كانت على يقين من أنها تضم الى صدرها أشرف مخلوق .

وأمام باب الدار هبطت عن ظهر الحمار . فخف اليها بعض أقاربها يقرعونها أمام الناس . مظهرين غضبهم مما فعلته . مبرئين انفسهم من اثمها الذى ارتكبته : لحقتها أمها . فانطلقت اليها . الخزى يكللها . والحزن ينهش قلبها . والنار تلسع روحها . ودموع العار تجرى على خديها .

نظر القوم الى مريم . مريم التى سميت باسم أخت هارون النقية الصالحة . تيمنا بها . فاذا بها تأتى اليهم وعلى يديها ابنها الناطق بفاحشتها . وقالوا لها :

ــ يا مريم . لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان ابوك أمرأ سوء . وما كانت أمك بغيا .

طأطأت حنة رأسها فى ذلة . وتمنت لو أن الأرض تنشق وتبلعها . فوقع ذلك المشهد شديدا على نفسها : عاشت تقية نقية . ما دار بخلدها أن الزمن يدخرها ليوم كيومها هذا الذى تمنت لو لم تشرق شمسه . أما مريم فكانت هادئة . ولم تنبس بكلمة . بل أشارت اليه أن كلموه . فقالوا فى غضب :

ــ ان سخريتها بنا أفجر من فاحشتها . كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

واذا بالصبى يتكلم . فتنعقد ألسنة الجميع دهشا :

ــ انى عبد الله . آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى

فهيرودس خادم أمين لروما ، يطبق قوانينها ، ويتبع سياستها ، ويعلم ابناءه بها ليرضعهم حبها . ويغرس فيهم الخضوع لها ·

وفد المجوس اليه وانبئوه أنهم جاءوا من بلادهم لما بزغ نجم ملك اليهود . فانشب القلق اظافره في جوفه ، وانتظر على كره منه اوبتهم ليخبروه بمكانه ، فيقضى عليه ، ويستريح من أوهامه ، وطال انتظاره ، ولم يرجع اليه الرجال ، فعيل صبره ، وكشر الوحش القابع فى اغواره عن انيابه . فأمر ـ كما أمر فرعون موسى من قبله ـ أن يقتل جميع الرضع فى بيت لحم ، حتى يقضى على ذلك المولود الذى تطير به ، واقلقه وانزل بصدره المخاوف والهموم .

كان ذلك فى القصر الهائل الشامخ على جبال صهيون ، أما فى الناصرة فقد عسعس الليل ، وأغلق يوسف النجار حانوته ، وعاد الى البيت . انه يقاسى شظف العيش ، كان الفلاحون والفقراء يعهدون اليه بأعمال النجارة . وما كان معهم ما يجزونه به · وتناول طعامه ، وراح يقرأ فى التوراة ، حتى انقضى من الليل ثلثه ، ودخل الى فراشه ونام ، ورأى فى نومه من يهتف به :

ـ يا يوسف ، قم واحمل الطفل وأمه واخرج الى مصر ، فهيرودس يبحث عنه ليقتله · فهب يوسف من نومه ، وقلبه يدق فى شدة ، واخذ المصباح الخافت . وانطلق الى حيث كانت مريم ، فالفاها نائمة تضم اليها ابنها فى حنان ، فناداها :

ـ مريم ، مريم ·

ففتحت عينيها السوداوين الواسعتين ، ونظرت فوجدت يوسف امامها ، وتبينت على الضوء الخافت قلقا فى وجهه ، فقالت :

ـ ماذا حدث ؟

ـ انهضى ، ان الله يأمرنا أن نخرج الى مصر ·

وقامت مريم تعد عدتها لسفر طويل . وتجهز يوسف بالزاد

فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابا . كان حفيد خادم فى هيكل أشقلون ، واغتصب الملك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين . وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكا عليهم ، فما كانوا يملكون عليهم الا رجلا من بنى اسرائيل . فأزهق أرواحهم ، حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة .

كان الخوف من أن يهوى عن عرشه يقلقه ، ويثير ضراوته . فاذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته ، أمر بخنق زوجته الأميرة مريمنى ، لأنه ظن أنها تعمل على أن تعتلى عرشه . ولم يشفع لها عنده أنها المرأة الوحيدة التى خفق قلبه بحبها ، وسفك دماء الفريسيين لأنهم تنبئوا بزوال ملكه ، وانقضاء سلطانه . وقتل بعض أولاده ، ليقضى على وساوسه التى نبتت فى صدره ، فقد حامت حولهم شكوكه ، وظن انهم يتآمرون على ملكه .

كان همه الأوحد ان يوطد سلطانه . ولما كان على يقين ان الشعب يبغضه ولا يؤيده ، استمد التأييد من القياصرة الرومان : خضع لهم ، ودفع اليهم الضرائب ، وثبت النسر الرومانى على المعبد ، وعلى أبواب المدن ، وأحاط نفسه بجنود مرتزقة ، لا هدف لهم الا سلب ما تصل اليه أيديهم .

كان حاكما قاسيا فظا غليظ القلب ، غارقا فى الآثام ، يلغ فى الدماء ، فطالما ذبح كهنة ونبلاء ، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء بالتنكيل والتعذيب ، وطالما سلب لينفق على آثامه . حتى سلب قبر داود ، وراح يعب كأس اللذات ، وعرف عنه الشذوذ . وضاق الناس به ، فذهب وفد من اليهود الى روما يشكون سوء ادارة ذلك الطاغية . فقالوا ان الذين أصابتهم نقمته أسعد حالا ممن يعيشون فى كابوس حكمه ، ولكن أوغسطس قيصر صم أذنه .

والماء ، ولما تم كل شيء حملت مريم ابنها ، وركبت حمار يوسف ، وسروا فى سكون الليـل فى طرقات النـاصرة الضـيقة ، واخذوا يطوون الطريق المتعرج الذى انساب بين التلال كثعبان ·

وخرج جنود هيرودس الى بيت لحم ، وانقضوا على الرضع انقضـاض الكواسر ، ينزعونهم من الصـدور الخافقة بالحنان ، ليذبحوهم ذبح الأغنام ، بين النواح والعـويل والصراخ · وسجا الليـل وقد تجللت بيت لحم بسـواد الحداد ، وانبعث من دورها النحيب والنشيج ، فما تركت سيوف هيرودس بيتا الا طعنته فى سويداء الفؤاد ·

وأشرقت الشمس والمدينة غارقة فى الدماء ، والركب الصغير الهارب من وجه الطغيان ينطلق رويدا رويدا فى جوف الصحراء ، ونظر يوسف خلفه ، ثم أخذ بزمام حمـاره ، وتقدم يخوض محيط الرمال فى ثقـة ، فقـد كان على يقين أن الله يرعاهم ، وانه لن يضيعهم ·

٥

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

(قرآن كريم)

ارتفعت الشمس ، ومرت الساعات ولا شيء غير الشمس والرمال والسماء ، لا حركة ولا حس ، كأنما فارقت المكان الحياة ، حتى الرياح خمدت ، ولولا الحرارة المنبعثة من الرمال ، لخيل للركب الصغير المنطلق فى سبيل الله أن كل شيء قد مات .

وظلوا فى سيرهم ، ليلهم ونهارهم ، حتى بلغوا طريق القوافل ، فراحت مشاهد التوراة تتمثل حية أمام أبصارهم ، ففى هذا الطريق بيع يوسف بدراهم معدودة ، وفى نفس الطريق سرى يعقوب بأهله ليدخلوا مصر بسلام ، بعد أن صار يوسف على خزائن الأرض ، وفى هذا الطريق ذهب موسى هارباً من وجه فرعون بعد أن قتل المصرى .

كانت تربطهم بهذا الطريق ذكريات وذكريات ، ذكريات حلوة مشرقة بالأمل ، وذكريات مرة تغلفها الأحزان . ساروا يجترون حوادث الأيام ! وما دار بخلدهم أن هـذه الرحلة التى يكابدون مشاقها انما خلدت على الأيام .

واستمروا فى سيرهم بين شروق وغروب حتى أشرفوا على طور سيناء ، فخفقت القلوب ورفرفت كجناح حمامة ، فقد تجلى

الله لموسى على هذا الجبل ، وكتب فى الألواح وصـــاياه ، وذهبوا الى الوادى المقدس طوى ، فخلع يوسف نعليه ، ووضعت مريم ابنها على الأرض ، فشخص ببصره الى السماء ، وخرت هى ساجدة ، كانوا فى تلك البقعة الطاهرة يناجون الله .

ودخلوا مصر آمنـــين ، وتركوا الصـــحراء ، وانطلقوا فى الحقول ، وجاء الغروب ، فراحت الشمس تغوص فى الأفق البعيد ، فبدت جداول الماء فى لون العقيــق ، ثم انقلب لونها الى أصـــفر فضى ، وسرعان ما انقلب الى لجين ، وبدا النخيل كأشـباح سود سامقة فى ظلال الســـماء ، واختفت الصــقور والحدأ والغربان ، وخفتت زقزقة العصافير .

مضى النهار وبقى الشفق ، فما نشر الليل أجنحته على مصر بعد ، وخشـــع الكون وهدأ ، وصـــار كل شيء لا ظل له ، وراحت النجوم تبزغ واحدة اثر أخرى فى رقعة السماء ، وأشرف القمـــر على الفضاء ، فأنار الســبل ، وغلف الدنيـــا بسحره ، وانعكس ضوءه الفضى على صفحة النيل فبدا كمرآة .

رنا يوسف ومريم الى النيل رنوة صداقة ، فقد حمل موسى لما القته أمه فيه الى قصر فرعون ، ليشب فى كنفه امعانا فى السخرية منه ، وشب موسى وكبر وأرسله الله الى فرعون ليرســـل معه بنى اسرائيل ، وظل صابرا حتى أخرج قومه من العبودية والذل المهين .

انفعل يوسف لتلك الذكريات ، وانفعلت لها مريم ، وكان لها فى أنفسهما وقع السحر ، قوت عزائمهما ، وثبتت ايمانهما ، وراح عيسى ينظـــر الى ما حوله بعينيـــه الصافيتين ، وأشرق على فمـــه الصغير ابتسامة رضا ، فضمته أمه فى هيام ووجد .

ودلفـــوا الى منف ، فاذا العجلات تعج فى الطـــرقات ، واذا الجنود فى غدو ورواح ، واذا النـــاس فى اقبـــال وادبار ، واذا

الاعمدة فارهة عالية ، واذا المعابد هائلة شاهقة ، واذا التماثيل قدت من الصوان ، واذا الجلبة والضوضاء ، فأزعجهم ذلك الصخب المنبعث من أرجائها ، بعد الهدوء الشامل المسيطر على الحقول والصحراء . وأدركهم النصب ، فهبطوا بها يقضون ليلة .

ثم ولد النهار ، فخرجوا الى منف يجوسون خلالها ، فألفوا المتاجر منتشرة على جوانبها ، مكدسة بالبضائع والحلى وأدوات الزينة والعجلات الفاخرة تنطلق فى دروبها . انها مدينة غنية ، ينعم بالعيش فيها السادة الفارغون أصحاب الاقطاعات . أما الفقراء فيحيون فيها حياة السائمة . فرأوا أن يغادروها الى الخلاء حيث الدعة والصفاء .

ذهبوا شمالا ، ونزلوا عين شمس ، وما انتظمت أنفاسهم بعد الرحلة الطويلة القاسية ، حتى أخذ يوسف يبحث عن عمل يقتات منه ، انه نجار ، فامتهن النجارة ، ووفقت مريم الى العمل فى حقل من الحقول ، فما أشرف أن يأكل المرء من كسب يده .

كانت مريم تخرج مع الشمس ، وتعود مع الغروب ، وفى وقت الظهيرة تستظل بشجرة جميز عجوز ، وتتناول طعامها ، ثم تستأنف عملها ، المهد فى منكبها فما كانت تأمن على ابنها أحدا ، والوعاء الذى تجعل فيه السنبل فى منكبها الآخر ، فاذا جن الليل ذهبت تصلى لله وتدعوه ، ثم تنام فى المكان الوضيع الذى أعده صاحب الأرض لمبيت عماله .

ومرت شهور وأعوام ، وعيسى فى مصر ، يرقب بزوغ الشمس ومغيبها ، وجريان النيل وزيادته ونقصانه ، وبذر الحب وترقب الثمار من الرب ، ويصغى الى أمه تقرأ له التوراة ، وتعلمه الدعاء والصلاة ، فكان فى هجعة الليل يرنو الى النجوم المتلألئة فى سماء

مصر الزرقاء . الصافية صفاء القلوب المؤمنة ، ثم يأخذ فى مناجاة ربه . فيحس على صغره ، كأنما ملىء قلبه نورا وحكمة .

وتعاقب الليل والنهار ، ومرت الشهور اثر الشهور ، وجرت الفصول خلف الفصول . وكرت السنوات ، وترادفت الفيضانات ، وزاد عمر الزمن سنوات ، وعيسى فى مصر يرى قسوة الحكام ، وذلك الثراء الذى يخرج من الطين دون عناء ، ليبدد فى الهواء .

وفى ليلة من الليالى دخل على أمه ، فالفى الوجوم يخيم على المكان ، فنظر اليها فعرف فى وجهها الحزن ، فدنا منها وقال :

ـ ماذا حدث يا أماه ؟

ـ سرقت خزانة صاحب الدار .

ـ يا أم أتحبين أن أدله على ماله ؟

ـ نعم يا بنى .

ـ قولى له يجمع لى من فى الدار .

ذهبت مريم الى الرجل ، والتمست منه أن يجمع كل النازلين بداره . فلما اجتمعوا ، عمد عيسى الى رجلين منهم ، أحدهما أعمى والاخر مقعد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى ، ثم قال له :

ـ قم به .

فقال الأعمى فى مسكنة :

ـ انا أضعف من ذلك .

فقال عيسى :

ـ فكيف قويت على ذلك البارحة ؟

فلما سمعوه يقول ذلك ، بعثوا الأعمى حتى قام به ، فلما استقل قائما بلغ المقعد كوة الخزانة .

قال عيسى للرجل :

ـ هكذا احتالا لمالك البـارحة ، فقـد استعان الأعمى بقوته ، والمقعد بعينيه •

فلم يستطع الرجلان نكرانا ، فقالا :

ـ صدق •

وردا المال الى الرجل ، فجاء الى مريم وقال :

ـ يا مريم ، خذى نصفه •

ـ انى لم أخلق لذلك •

ـ فأعطيه ابنك •

ـ هو أعظم منى شأنا •

٦

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد ،
أو تسمع لهم ركزا » ·

(قرآن كريم)

تحت ظلال نخيل أريحا قام قصر هائل ·· انه قصر هيرودس الذى شيده لمسراته . يجتمع فيه بجواريه وبمن يصطفى من زوجاته اللائى اكمل عدتهن عشرا . كانت الراقصات العاريات يتثنين فى أبهائه . وأصوات المغنيات تتردد فى جنباته . وضحكات المجون تعلو على صخب الندماء والمخمورين ·

ولف القصر ــ على غير عادة ــ سكون ، وخيم عليه هدوء شامل ، وراح الجنود والخدم يسعون هونا فى طرقاته ، فالملك الطاغية طريح الفراش ، يشكو ما ألم به من أسقام · كان مسجى فى سريره الفاخر ، يغوص فى الديباج ، ولكن القروح كانت تأكل جسمه ، والدود يسرى فيه ·

اصفر لونه ، وذبل وغارت عيناه ، ولكن لم تختف قسوته وضراوته ، فاذا ضاق بمرضه حطم كل ما تصل اليه يداه ·

وذاع فى البلاد خبر مرضه ، ولما كان الشعب يبغضه من كل قلبه . استراح الناس الى هذا النبأ ،وباتوا يترقبون الخلاص القريب ، ان هى الا أيام ويموت الطاغية ، ويتنفس الشعب بعد حكم قاس دام أطول السنين ·

وشاع فى أورشليم أن هيرودس الكبير قد مات ، فعم الفرح وامر المعلمان اليهوديان يوداس ومتياس تلاميذهما أن يهبطا النسر الرومانى الذهبى الذى ثبته على باب الهيكل الكبير . ليتخلصوا من ذلك العار الذى دمغهم ، وجثم على صدورهم ككابوس بغيض .

ونكس النسر الذهبى ، وارتفعت أصوات السرور ، ولكن لم تدم هذه البهجة طويلا ، فقد كان فى عمر الشقى بقية ، وبلغته رهو فى مرضه انباء هذه الثورة ، فبعث أقسى جنوده ليؤدبوا الثائرين ، وفى طرقات أورشليم دار القتال ، فانهزم الثوار ، ورفع النسر ثانية على باب الهيكل الكبير ، وجىء بأربعين من تلاميذ يوداس ومتياس ، وأراد هيرودس الراقد فى فراشه أن يبرهن على قدرته وجبروته ، فأمر بحرقهم أجمعين .

واشتدت وطأة المرض عليه ، وفكر فى أمره ، فساءه انه سيموت ولن يذرف عليه أحد دمعة ، وحركت هذه الفكرة الوحش الكامن فى نفسه ، فأرسل الى رؤساء القوم ومشايخ الأسرات أن يوافوه الى قصره فى أريحا ، وأمر أن يذهبوا الى ملعب الخيل ، ليرفهوا عن أنفسهم ساعة ثم يأتوا اليه ، وانطلق سادات القوم الى هناك ، وما دلفوا الى المكان حتى أغلقت دونهم الأبواب .

وأرسل الى أخته سالومى ، وأسر اليها أن تقتل هؤلاء الرجال يوم موته ، فما ينبغى أن يكون ذلك اليوم يوم فرح وابتهاج ، بل ينبغى أن يكون بكاء ونحيب ، وأن يسيطر على البلاد حزن عام ، ولن يكون ذلك الا اذا قتل أشراف القوم وساداتهم .

أضناه المرض ، وضاق بالقروح المنبثقة فى جسمه ، فهاجت قرحة نفسه ، وفكر فى أن يتخلص مما يقاسيه من كرب وعذاب ، فهم بالانتحار سأما من الجحيم الذى يحيا فيه ، فالقمل يسرى فى

بدنه ، والنار تسرى فى روحه ، فتعــذبه عذابا ما أقســاه . ولكن أخفقت محاولته ، فلا زال له نصيب من الضنى فى دنياه ·

وفى سكرات الموت لم يفارقه طبعه ؛ خيل اليه أن ابنه انتيباس يتعجل موته ، ليتربع فى الحكم بعده ، فأمر بقتله ، ولكن لم يجرؤ أحد على أن ينفذ أمره ، فما كان هناك من يصغى الى رجل يلفظ آخر أنفاسه ، ويخرج مع تلك الأنفاس أمره بهلاك من سيئول اليه السلطان ·

واستسلم الطاغية للموت ، وأشباح ضحاياه تطوف بفراشه ، مستنزلة عليه لعنة السماء ، انسل الروح الخبيث من الجسد الذى لم يعرف الا الخطايا ، ولم يسع الا الى الشر والفساد ، وما ذاع نبأ هلاكه ، حتى اشتعلت الثورات ، فالشعب يريد التخلص من حكم أسرة هيرودس الطاغية ، فما يريد أن يحكمه انتيباس ولا أرخيلوس. لكن أرخيلوس اعتلى العــرش ، ولم ينفذ وصـــية ابيه فى اشراف القوم ، لا حبا فيهم ، بل خوفا من الفتنة التى أطلت بخطمها ·

وطالب الثوار أرخيلوس بمعاقبة نصحاء هيرودس ومستشاريه فلم يفعل فاعلنت أورشليم العصيان ، وشاء أرخيــلوس أن يعــلم رعاياها ، انه ليس أقل ضراوة من أبيه ، فأمر بذبح ثلاثمائة منهم فى الهيكل ·

ثار الأردن ، وثارت اليهودية ، ودعا يهوذا الجليلى الى حرب روما للتخلص من نيرها ، ففى ظلها يستــبد بهم امثال هيرودس وأرخيلوس ، فاجتمع الثوار وانطلقوا الى أورشــليم واحتلوها ، وحوصر الفيلق الرومانى الذى كان يحميها ·

ونادى قائد من القواد بنفســه حاكما على أريحا ، وافتتــح عهده بأن دمر قصر هيرودس وأشعل فيه النار ·

ورفع علم الثورة فى جميع المدن اليهودية ، وخف الناس الى يهوذا الجليلى يؤيدونه فى ثورته . ويشدون أزره فى حربه ضد روما .

وغضب أوغسطس فى روما فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ، فخرجت الجنود العربية والفرسان الجرمان الذين كانوا تحت امرة القائد الرومانى ، ودخلوا فلسطين ، يقتلون الرجال ، ويتركون المدن طعمة للنيران ، ففر الثوار منهم الى التلال ، فمن لم يمت بالسيف مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم . ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب بالمدن اليهودية ، فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود ، وبعثوا سفراء الى أوغسطس يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا يعيد الهدوء والسلام .

اصغى أوغسطس الى الوفد القادم الى روما ، يلتمس صيانة الارواح . فالفى الفرصة سانحة ليقسم فلسطين الى ولايات ، تشغل بمزاراتها الداخلية عن النسر الرومانى الجاثم عليها ، يكاد يكتم منها الانفاس .

قسم فلسطين الى ولايات ، ونصب أبناء هيرودس الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فهيرودس عبد مخلص لروما ، غذى أبناءه بحبها ، وسيتنافسون فى ارضاء النسر الرومانى ، وحمل الضرائب ، وخيرات البلاد اليه . واحتفظ بأرض اليهودية ، وجعلها ولاية رومانية ، يحكمها حاكم رومانى ، يتلقى الأوامر من روما ، فما كان ليترك أورشليم ، القلب المقدس ، فى يد حاكم قزم من حكام الولايات .

وهدأت العواصف التى اجتاحت فلسطين ، وعاد الصناع الى اعمالهم ، والتجار الى تجارتهم ، والتلاميذ الى مدارسهم ، ولكن

موطوا الناصرة . يحيون فيها حياة بسيطة . فى الصباح تذهب مريم الى البئر تملأ جرتها ، ثم تعود لتعتنى بشئون بيتها ، ويذهب يوسف الى حانوته . يعمل فى النجارة ، وعيسى معه يحمل الكراسى والصناديق الى أصحابها ، فما كان يذهب الى المدرسة ، بل كان يعمل ليحصل قوته .

وفى ذات يوم أقبل أحد الفريسيين الى حانوت يوسف ، فرنا اليه يوسف فى قلق ، فالفريسيون هم رجال الدين المتزمتون الذين يراعون تطبيق حرفية شريعة موسى . أوصى موسى بالطهارة فراحوا يفتشون على الاسرائيليين ، ليتحققوا أنهم يسيرون على الناموس، كانوا يأمرون بغسل كل شيء ، ولو كان الماء يغسل لأمروا بغسله .

تناول الفريسى الأوعية ، وجعل يعاينها ، فلما اطمأن الى نظافتها ، راح يجوس خلال الحانوت ، ويمرر اصبعه على الحيطان ، ويوسف يرنو اليه ، حتى اذا انتهى الرجل وخرج راضيا تهلل وجه يوسف انشراحا . أما عيسى فكان يتطلع الى ما يجرى امامه فى امتعاض ، فما كان يطمئن الى مثل ذلك الرياء .

وجاء يوم السبت فخرجوا الى المعبد ، يوسف وعيسى الى حيث يجلس الرجال ، ومريم الى المكان المعد للنساء . وجاء خادم المعبد بالتوراة ، وقام رجل ووقف على الشرف ، وراح يقرأ سفر التكوين ، فى صوت عذب خشعت له القلوب .

وقضيت الصلاة ، واجتمع اليهود حلقات يتناقشون ، فضاق عيسى بنقاشهم ، وانسل من بينهم ، وانساب فى طرقات الناصرة ، وراح يرتقى تلا ، وجلس يرنو الى السماء .

كان يحب الوحدة ، ويحس راحة اذا انفرد بنفسه ورنا الى

لم يرض المؤمنون الذين ملئت قلوبهم حقدا على الحكم الرومانى ، والقوانين الرومانية ، كانوا يرون طريق الخلاص فى العودة الى شريعة موسى ، فلن يعرف الناس راحة القلب ، وهدوء النفس ، ولن يقوم العدل ، وتسود المحبة مكان التشاحن والبغضاء ، وتنقشع المظالم ، وتنمحى الفوارق ، ويتساوى الجميع ، ويعطف الأغنياء على الفقراء ، ويحب الفقراء الأغنياء ، الا فى ظل حكومة تستمد قوتها من السماء :

مات هيرودس فى قصره فى أريحا ، وعيسى فى مصر ، يشب غريبا ، بعيدا عن أهله .

وجاء الليل ، وذهب يوسف لينام ، فرأى فى نومه من يقول له :

– قم وخذ الصبى وأمه ، واذهب الى أرض اسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى .

وراح يوسف يتجهز للعودة ، حتى اذا تم كل شيء ، انطلق الركب المبارك فى الطريق الذى خرج منه موسى وقومه ، ان موسى خرج خائفا يترقب ، يخشى أن يلحق به فرعون ، أما يوسف وعيسى ومريم فينطلقون آمنين ، تداعبهم الآمال اذ هم مقبلون على قومهم ، ينتظرون وعد الله ومكتوبه .

* * *

خلفوا مصر وراءهم ووطئت أقدامهم أرض فلسطين ، وانطلقوا لا يرون الا الصحراء المترامية ، فى الطريق الموصل الى بيت لحم . فقد كان يوسف يبغى أن ينزل بها ، ففيها ذكريات حبيبة الى نفسه ، وهى قريبة من أورشليم . لا يفصل بينهما الا ساعات قليلة على ظهر حمار ، ولكنه علم وهو فى الطريق ، أن أرخيلاس خلف هيرودس ، ولما كان يعلم أنه سر أبيه ، انطلق الى الجليل ، ثم الى الناصرة ، الوطن الأصلى ومنزل الجدود .

السماء . وطالما قالت له أمه ان الله هناك ، فكان ينظر فى شرود ، فيمتلىء غبطة ، فروحه تتصل بملكوت الخالق المتعال .

وهب النسيم من البحر رقيقا ، فداعب أوراق التين والزيتون ، فبلغ آذنيه حفيف الشجر ، فخيل اليه أن الكون يفضى اليه بأسراره .

وانحدرت الشمس ، وراحت تختفى وراء التلال ، وهو ينظر . يخيل لمن يراه أنه وسنان ، ولكنه هائم فى الفضــاء ، يفتح قلبــه للمعرفة الهابطة عليه .

٧

« وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ، وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا » .

(قرآن كريم)

سجا الليل ، وخيم على أورشليم ظلام ثقيل ، وتلألأت النجوم فى السماء ، ولكن نورها كان خافتا لا يقوى على مصارعة أمواج الظلام : وقامت التلال المحيطة بالمدينة موحشة ، وهجع الكون ، وسيطر سكون يبعث الرهبة فى القلوب ، وهبت النسائم خفيفة ، فكأنما كانت أنفاسه يرددها فى انتظام .

وخرج يحيى يسعى فى الطرقات المتعرجة ، وسار وحده فى حلكة الليل ، يتوقى الأخاديد الموحشة ، وينطلق الى جوار التلال الجرد الشامخة كأنها المردة والشياطين ، فلا يستشعر رهبة ، بل يرى فى هذه الوحشة جمالا تنفعل له نفسه ، وتشيع فيها طمأنينة عجيبة . ما كان يرتجف فرقا من الظلام ، كما يرتجف أترابه من الصبيان ، بل كان يسرى فيه وهو مشغول عنه بالنور المنبثق من روحه ، يبدد له ظلمات الحياة .

وبلغ الهيكل الكبير ، فاذا الهدوء شامل ، واذا الظلام سائد فى أروقة الهيكل ، واذا الرهبان يغدون ويروحون ، واذا العباد راكعون فى خشوع ، ومد يحيى بصره ، فألفى أباه زكريا قائما يصلى فى المحراب ، فوقف يرقبه متفتح الروح ، فمشاهدة العباد وصلواتهم تنزل على قلبه بردا وسلاما .

وظل يحيى فى مكانه ، يردد فى حرارة صلاته ، وانتهى زكريا من ابتهالاته . وتأهب للعودة الى داره . فالفى ابنه شاخصا الى السماء وفى عينيه دموع . فانشرح صدره ، وتريث يرنو اليه فى وجد ، ثم ذهب اليه ولف ذراعه حوله . وسارا فى ردهات الهيكل حتى خرجا الى الطريق .

وما لاح الصباح حتى خرج يحيى يقلب وجهه فى السماء ، ويمد بصره الى ملك الله ، فيحس رهبة وجلالا ، ويخشع قلبه ، ويعمل فكره ، كان يرى الله فى كل ما تقع عليه عيناه . شب فى بيت النبوة ، فرأى أباه فى محرابه يعبد الله ويقدس له ، فعرفه وصار يهابه ويخشاه .

وانطلق وهو مشغول فى طرقات بيت المقدس المغبرة ، فلمحه أترابه من الصبيان ، فهرعوا اليه وقالوا له :

ـ يا يحيى ، اذهب بنا نلعب .

فقال لهم وهو ذاهب فى طريقه :

ـ ما للعب خلقت .

ثم دلف الى الهيكل الكبير ، فرأى المجتهدين من الأحبار والرهبان ، وعليهم مدارع الشعر ، وبرانس الصوف ، وهم يعبدون الله فى خشوع ، فتفتحت نفسه ، وهفت روحه اليهم ، ووقف ينظر وقد شاعت البهجة فيه ، وسكنت الطمأنينة قلبه ، وأحس هدوءا عجيبا .

وبقى فى الهيكل هائما ، تهيم روحه لتتصل بالله ، ثم قام وخرج الى طرقات أورشليم ، وسار شارد اللب ، يقلب الفكرة التى احتلت رأسه ، وعاد الى الدار ، فذهب الى أمه وقال لها :

ـ يا أماه ، انسجى لى مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف ، حتى آتى الى الهيكل ، وأعبد الله تعالى مع الأحبار والرهبان .

فنظرت اليه أمه وقالت :

ـ حتى يأتى نبى الله زكريا ، فنؤامره فى ذلك .

وجعل يحيى ينتظر مجىء أبيه ، وتعلقت روحه بالعبادة ، فعزم أن يكرس حياته لله ، يعبده فى قنوت ، ان أصوات المصلين تمس أذنيه عذبة رقيقة ، وان صدى صلواته فى نفسه يشرح صدره ، ويسكب فى قلبه نورا طاهرا لألاء . يرى على ضيائه جمال ما صوره المبدع الخالق من بدائع ، تنزل البهجة بأفئدة المؤمنين .

وسمع وقع أقدام ، فأرهف حواسه ، ودخل زكريا وقد مسّه الكبر ، فنظر الى أمه ، كأنما يوحى اليها أن تكلمه ، فقالت اليصابات :

ـ ان يحيى قد طلب منى أن أنسج له مدرعة من شعر ، وبرنسا من صوف .

فالتفت زكريا الى ابنه وقال :

ـ يا بنى ، ما يدعوك الى هذا ، وانما أنت صغير ؟

فنظر الصبى الى أبيه بعينين يشع منهما بريق الذكاء وقال :

ـ يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت .

نطق الصبى بالحكمة : انه يخشى أن يموت دون أن يأخذ من دنياه لأخراه ؛ انه يريد أن يدخر ليوم شديد ، لا ينفع فيه الا ما قدمت يداه ؛ الى يوم يجد ما عمله من خير محضرا . فانشرح قلب زكريا ، والتفت الى زوجه ، وقال :

ـ انسجى له مدرعة من الشعر ، وبرنسا من الصوف .

ووهب يحيى نفسه للمعبد ، يصلى فيه ولا يفارقه ، فتفتقت الدنيا أمام عينيه ، وكشفت له عن أسرارها ، كان يصغى الى الكتبة والفريسيين العاكفين على العبادة ، ولكن الحكمة التى يستنبطها من خشوع الليل ، وصخب النهار ، وزئير الرياح ، وهبوب

النسيم ، أعظم مما يلتقطه من المعلمين الراقلين فى رغد العيش ، كانت مواعظهم تخرج من الفم لتذهب فى الهـواء ، أما آيات الله فكانت تترادف عليه تصقل نفسه ، وتغذى روحه ٠

كانت زقزقة عصفور ، أو لألأة نجم ، أو هبوب موجة من البرد ، أو لفحة من الحر ، تترك فى روحه أثرا أعمـق من موعظة طويلة لا تخرج من القلب ، كانت روحه كوعاء على قمة شامخة لا يملؤه الا ما ينزل من السماء ٠

٨

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » .

(قرآن كريم)

نما عيسى واشتد عوده ، وبلغ الثانية عشرة ، فأصبح بحسب شريعة موسى بالغا « جادول » ، يمتاز بالروح ، ويعامل معاملة الرجال . فما صار لأحد عليه سلطان ، انه ابن الناموس « ابن هاتوراه » ، يفعل ما يوحيه اليه عقله ، ويتحمل كل ما تجنى يداه .

وكان عليه أن يختار مهنة ، ففى هذه السن ينبغى لكل يهودى أن يحترف حرفة ، كان يخرج مع يوسف الى حانوته ، ولكنه لم يكن قد احترف النجارة ، فكان عليه أن يختار بمحض ارادته العمل الذى يمارسه . وجاء يوسف اليه يعرض عليه أن يعمل معه ، فقبل الفتى ، وذهب يتدرب ليكون نجارا .

راح يعمل فى الحانوت المتواضع من شروق الشمس حتى غروبها ، فاذا جن الليل خرج يقلب وجهه فى السماء ، واذا جاء السبت ذهب الى المعبد ، وما تنقضى الصلاة حتى ينسل الى التلال يصغى الى موسيقا الطبيعة : فهمسات النسيم ، وتفتح الأزهار ، وتعاقب الليل والنهار ، تملأ قلبه علما وحكمة .

أشرف موسم الحج على أورشليم ، فالفصح ، ذلك العيد الذى اتخذه اليهود تخليدا لذكرى خروجهم من مصر ، على وشك الحلول.

كان على كل يهودى أن يحج مرة كل سنتين ، فتأهبت مريم للحج ، ولما كان ابنها قد بلغ ، أصبح عليه أن يخرج من الخارجين ٠

فرح عيسى لأنه سينطلق الى أورشليم ، الى المدينة التى طالما حدثته عنها أمه ، والتى رآها بعين خياله شامخة تناطح السحاب ، سيخرج من الناصرة المحصورة بين التلال ، الى العالم الواسع الفسيح ، ليرى بدائع خلق الله التى تنطبع فى نفسه ، وتعمل على صقلها ٠

راحت مريم تتجهز للرحلة ، فتملأ أباريق الزيت وتضع التين المجفف فى الأكياس ، ثم تصر بعض الأطعمة الجافة فى صرة لا تفتحها الا فى أورشليم ، وتعد صرة أخرى لطعام الطريق ، وظلت فى غدو ورواح ، حتى اذا جاء المساء جلست تعد عباءة جديدة لابنها ، عباءة بيضاء من الصوف سيبدو فيها رائعا ، ككاهن صغير يشع من وجهه نور التقى والصلاح ٠

وحل آذار ، فهبت نسائم الربيع تنعش القلوب ، وخرج الحجاج من بيوتهم ، وتجمعوا فى سوق الناصرة ، قبل الانطلاق الى أورشليم ، ووضعت الأحمال على حمار ، وحمل يوسف صرة ، وحمل عيسى صرة ، وانطلقوا يحدوهم فرح عظيم ٠

وتقاطر الناس من بيوت الناصرة البيض ، وازدحمت السوق بهم ، حتى اذا انتظم عقدهم ، تقدم أسن سبعة بينهم ليسيروا على رأس القافلة ، وفصلت العير ، وانسابت فى الطريق الضيق بين التلال المغطاة بأشجار السرو والزيتون ، وهبطت الى الطريق الجيرى متدفقة الى سهل يزرعيل ٠

كان الربيع يمس الكون بيده الساحرة ، فأخذت الأرض زخرفها وازينت ، وبدت سنابل القمح فى ضوء الشمس كأمواج من الذهب ، وقامت الورود حمرا وصفرا وزرقا على جانبى

الطـــريق ، فكانت الحقول كثــوب عروس وشى باللؤلؤ والزبرجد والياقوت ·

سارت القافلة على ضفة نهر قيشون ، فراح عيسى يصــغى الى خرير المياه ، فكان له فى أذنيــه وقع التســبيح ، وراح يدور بعينيه فيما حوله ، فيحس كأنما شقت منه الروح ، ودخلت القافلة الى يزرعيل العاصمة ذات المبانى الشاهقة ، ثم ســارت الى جبل جلبوع المتقشف : كان عاريا من كل ثوب ، فما كانت الأمطار تهبط عليه لتنسج له ثوبا من ثيابها الخضر الزاهية ، التى تجود بهـــا على الوديان والسفوح · وخاضت القافلة رمال تاناس ، ثم لاحت « ماجدو » فى الأفق البعيد ·

وارتفعت أصوات عذبة رقيقة ، تسرى مع النسيم ، كان الفرح يداعب النفوس ، فانساب فى المشاعر أنغاما حلوة ، تشيع البهجة فى الصــدور ، وطويت الأرض · وبلغ الركب عين غانم ، فنزلوا يمضون ليلتهم ، فى أحضان الطبيعة التى سخت بالجمال ، حتى بدا المكان كجنات النعيم ·

واقبل الحجاج من كل صوب اقبال الروافد الى النهر الكبير ، اقبل حجاج كفــر ناحوم وحجاج المجدل ، وانضــموا الى حجاج الناصرة ، وأخذ الرجال يتحدثون الى الرجال ، والنســـاء الى النساء ، والأطفــال يلعبون ويجرون فى مرح ، زالت الفــوارق ، وتدانت القلوب ، فالجميع متوجهون الى الله بقلوب صافية ، عامرة باليقين ·

ووضعت مريم الطعام ، وكان من زيتون وعسل ، فلمــا فرغوا منه ، قام يوسف يجوس بين الحجاج الذين كانوا يتســامرون فى سرور ، وفيما هو فى سيره ، اذ قابل صديقه زبدى ، فصافحه فى حرارة ، وعرض عليــه أن يرافقهم فى الطــريق ، وكان مع زبدى

ابناه يعقوب ويوحنا ، وكانا فى مثل سن عيسى ، فراح الغلمان يتحدثون ، يعقوب ويوحنا يذكران البحر والمراكب ، فهما يعاونان أباهما صياد الأسماك فى عمله ، وعيسى يتحدث عن الله وملكوته ، فعيناه لا تتطلعان الا الى السماء ٠

وأسدل الليل ستائره ، وأخذت الاصوات تخفت ، ورفرف النعاس ، فتناول عيسى غطاء ، ونام مع يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تحت النجوم ٠

وأشرقت الشمس ، فهب الناس من نومهم ، وقاموا يتأهبون لاستئناف رحلتهم ، حمل الفقراء أمتعتهم ، وقادوا حميرهم وبغالهم ،-أما الأغنياء فأسرع عبيدهم يحملون عنهم الفراش الوثير. وانطلق الركب فى طريقه ، ولاحت حدائق التين وغابات الزيتون ، وخلفوا تلال السامرة الجميلة التى تبدو كغادة أبرزت مفاتنها ، واقتربوا من بئر يعقوب ، فأغذوا السير ، ليحطوا الرحال عند البئر ، ويستريحوا من وعثاء السفر الطويل ٠

وانقضى الليل ، وولد النهار ، فدوى فى المكان قرع الطبول ، فقام الحجاج يستعدون للسير ، وفصلت العير ، وانطلقت فى قطار طويل ، النساء على الدواب ، والرجال آخذون بزمامها ، والغلمان يجرون ويلعبون ويضحكون ٠

الأرض تطوى تحت أقدامهم ، ها هم أولاء يمرون بشيلوه ، ثم بجبعة شاول ، ثم ببيت ايل ، وها هو ذا النهار ينسحب بعد أن قطعوه ، وأقبل الليل وبئر راعوث على مرمى حجر ، الأشجار عندها تبدو لهم كأمل حلو مرتقب ، فنزلوا يسقون ويطعمون ٠

وفى البكرة انسابوا فى الطريق ، ولاحت لهم أورشليم ، فخفقت القلوب فى الصدور ، فمدينة داود المقدسة قائمة أمامهم : الأبراج والقصور شامخة فى الفضاء ، عالية فى كبرياء ، والهيكل العظيم

تتلألأ في الشمس كجوهرة تخطف الأبصار ، والدور البيض غارقة في الضوء ، وقصر هيرودس على جبل صهيون يرنو الى المدينة كأنما يعد عليها أنفاسها .

ونظر عيسى الى أورشليم . فأحس قلبه ينجذب اليها . انه يراها بروحه ، ويشعر بقدسيتها تراق فى نفسه ، انه يحبها بكل مشاعره ، وانه ليخيل اليه انها تبادله عواطفه .

واندفعوا الى الوادى حيث قابلهم سفراء عن المعبد مرحبين بمقدمهم ، وتفرقت الجموع ، وراحت كل أسرة تهتم بشئونها ، وتبحث عن قريب لها فى المدينة تقضى عنده موسم الحج . ولما كانت الشريعة تحرم أخذ نقود مقابل ايواء الحجيج ، فمن لا أقارب له ولا أصدقاء يقاسى فى ايجاد مأوى له ، فراح كثير من الناس يقيمون لأنفسهم أكواخا صغيرة من حصر البوص ، ونزل آخرون فى العراء . وزخرت أورشليم بآلاف الوافدين من سورية فى أرديتهم الوطنية ، ومن بابل فى ملابسهم السود ، ومن آسيا الصغرى وروما وفلسطين ، وراح يوسف ومريم وعيسى يشقون طريقهم بين الجموع ، حتى بلغوا بيت زكريا ، فصافح زكريا يوسف وعيسى ، واحتضنت مريم خالتها اليصابات ، وراحتا تتبادلان القبلات .

وفى الصباح ذهبت الأسرة الى السوق لشراء الزيوت والعطور . ثم انطلقت الى المعبد . كان الصيارفة جالسين أمامهم أكداس النقود ، يستبدلون العملات المصرية والبابلية والعملات الأخرى بمثاقيل اسرائيل ، وكان تجار الأغنام يعرضون على الحجاج خرافهم وعجولهم ، وجلس تجار الحمام يبيعون للفقراء ما يقدمونه قربانا لله ، وأخذ يوسف يشترى أضحية ، فما ساق معه خروفا من الخراف التى عنده ، خشية أن ينفق فى الطريق ، أو يصاب بإصابة

تجعله غير لائق للتضحية ، فلا يقدم الى الله قربانا الا اذا كان خاليا من العيوب . وذهب عيسى ومريم مع الناس الى صندوق النذور يضعون فيه صدقاتهم .

ونظر عيسى ، فألفى حلقات العلماء ، وقد جلس كل كاهن على شرف عال ، يحيط به تلاميذه ، فهفت نفسه اليهم ، أحس رغبة فى ان يذهب يصغى الى ما يقولون ، ويسألهم عن بعض ما يجول فى خاطره ، فهذه الزيارة تركت فى نفسه آثارا ؛ لم يعجبه بعض ما رآه ، وهو يريد أن يعبر عما يخالجه ، وهم بالذهاب اليهم ، لكن أمه جذبته من يده ، ليدخلا يقدمان صلاتهما لله رب العالمين .

كانت شرفات النساء تعج بالزائرات ، والمعبد يموج بالمصلين ، وارتفعت الأصوات خاشعة ، شحنت ايمانا وطهرا ، فأشرقت الوجوه بالنور ، فقد كانوا يقدمون الى الله القلوب .

وقضيت الصلاة ، وخرجت الأسرة الى أورشليم ، كان هليل العظيم موضع احترام اليهود ، كان سقاء يحمل الماء ، وعالما من ابرز علماء بنى اسرائيل ، وكان صديقا وفيا لعمران أبى مريم ، فذهبت الأسرة لزيارته ،وتحدث هليل وعيسى يلقى اليه سمعه وهو مشغوف .

وتجاذبوا أطراف الحديث ، وتكلم عيسى ، فألفى هليل قلبه ينجذب اليه ، فالحكمة تتدفق من فم الفتى الصغير ، وما أتم عيسى حديثه حتى قال هليل فى اكبار :

ــ ذرية بعضها من بعض ، انك ابن حق لابراهيم الخليل .

وتتابعت الأيام ، وعيسى يذهب الى المعبد ، فى عباءته البيضاء ، يجلس الى حلقات العلماء يعيرهم سمعه ، وتنبعث فى قلبه نشوة ، فحديث الدين والأنبياء الى قلبه حبيب .

وجاء ميقات التضحية ، فخرج يوسف وعيسى وزبدى وولداه

وحنا ويعقوب ، وذهبوا الى قاعة الاسرائيليين ، وكانت تزخر الحجاج يقودون القرابين ، وصعد يوسف الى المذبح ، وذبح خروفه ، وتلقى الكاهن الواقف عند المذبح بعض دمه فى قلجانة من الذهب ، واعطى تلك الفلجانة الى كاهن آخر ، وهذا أعطاها آخر ، وراحت تنتقل من يد الى يد ، حتى بلغت الكاهن الأعظم ، فألقى الدم فى المذبح الكبير .

وارتفعت فى القاعة الأخرى أغنيات الليفيين وقرع الطبول ورنين الأجراس ، ولكن عيسى شغل عن تلك الأصوات بالمشاعر الدافقة فى جوفه ، والمشاهد التى تجرى أمام عينيه .

تصرمت أيام العيد السبعة ، وتأهب الحجاج للعودة الى دورهم ، وخرجت القوافل من أورشليم ، وقفل ركب الناصرة وكفر ناحوم والمجدل راجعا فى نفس الطريق الذى جاء منه ، وانقضى اليوم الأول ، ونزل الناس عند بئر راعوث ، ونظرت مريم فلم تجد ابنها ، فسرى فى قلبها قلق ، وراحت تنقب عنه فلم تهتد اليه ، فخفق قلبها رهبة ، وذهبت الى يعقوب ويوحنا ابنى زبدى تسائلهما عن عيسى ، فاخبراها أنهما لم يرياه مذ خرجا من أورشليم ، فزادت مخاوفها ، واستمرت فى بحثها تسأل كل من تقابلها عن ابنها ، ومر الليل وهى فى قلقها وارقها ، وما لاح نور الصباح حتى عادت ويوسف الى أورشليم ، يبحثان عن ابنها .

وراحت تمر على الأسرات التى تعرفها فى أورشليم تسأل هذا وذاك عن عيسى دون جدوى ، فزادت مخاوفها ، وأخذت تفحص عن كل غلام تراه بعينيها السوداوين القلقتين ، وانقضى النهار ثقيلا مريضا ، واقبل الليل ومضى ومريم فى قلق وحيرة . وما اقبل الفجر حتى خرجت تستأنف بحثها .

كانت تبحث فى الأسواق ، وطرقات المدينة المتعرجة ، وعند

سور الملك داود ، وعند الآبار ولكنها لم تجد له أثرا ، فدثرتها رهبة ، وعصر الأسى قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها .

وانقضى اليوم الثانى كسابقه ، ذهاب هنا وهناك ، وعيون تتلفت فى كل مكان ، وقلب ينزف أسى اوحزنا ، ولكن ما من اثر له . ووفد الليل ومريم تكاد تسقط من الاعياء .

وفى اليوم الثالث تذكرت ما كانت نسيته ، ان ابنها قد هفت روحه الى المعبد ، وأمضى معظم أيام العيد بالقرب من حلقات العلماء ، فلماذا لا يكون هناك ؟ انها بحثت عنه فى كل مكان ولكنها لم تذهب الى الهيكل .

هرعت مع يوسف الى المعبد ، وفى حجرة من حجراته لمحته . عيسى بعباءته البيضاء جالسا على الأرض وسط المعلمين ، فخفق قلبها فى شدة ، وراح الخوف ينقشع عن صدرها ، ليحل مكانه طمأنينة وأمن ، ونظرت فاذا ابنها بين شيوخ أجلاء ، اشتعلت رءوسهم شيبا ، كان هناك هلليل العظيم ، وابنه الحاخام سيمون وشماى الكبير ، ونيقوديموس ، وأكابر بنى اسرائيل ، فداعب قلبها فرح ، ولكنها لم تجد فى ذلك غرابة ، فقد كانت على يقين أن الله يعده ليكون معلما لمن هم أعلم من هلليل وشماى وسيميون .

ونادى يوسف :

ــ عيسى .

وانطلق اليه وأخذه من يده ، وعاد به الى أمه ، فضمته الى صدرها فى حنان ، وقالت له :

ــ لماذا فعلت هذا بنا ، لقد بحثنا عنك وانتابنا خوف وحزن ، وخفنا أن نفقدك .

فنظر اليها فى هدوء وقال :

ــ ما كان الله ليضيعنى .

وخرجوا من أورشليم ، وسروا وقد خلوا بالكون ، فجعل عيسى يفكر فيما سمع ، كان ما سمعه رائعا بالغ الروعة ، ولكن ارتفاع الشمس وهبوطها ، وبزوغ القمر وأفوله ، وهدوء الليل وتالق نجومه تمده بحكمة اروع مما سمع ، كان فى قلبه كنوز من العلم والحكمة ، تفوق كل كنوز العلماء والرهبان ، فهؤلاء حصلوها بالدرس وحفظوها فى الصدور ، أما هو فقد وهبها له العليم ، وغرسها فى قلبه ، وجعلها تجرى فيه مجرى الدم .

٩

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » •

(قرآن كريم)

عاد عيسى الى الناصرة ، واستأنف العمل فى حانوت يوسف : كان حاضرا بجسمه ، أما روحه فكانت تتصل بخالق السماء ، اصبح يحب الليل ، لأنه فيه ينفرد بنفسه وبالله ، اذا اراد أن يناجى ربه ابتهل اليه فى خشوع ، واذا أراد أن يصغى اليه فتح التوراة وقرأ الآيات •

وأحب العزلة ، فاذا جاء يوم السبت ، ذهب الى المعبد ، فاذا قضيت الصلاة انسل الى قمة التل الذى بنيت عليه الناصرة ، يقف بين أزهار الجبل المتفتحة ، ويملأ رئتيه بالنسيم العليل الذى يداعب شعره الأسود ، ويمد بصره الى ما حوله ، فيرى حقول التين ، وبساتين النخيل ، والمنازل البيض ساجد كعابد فى محراب الله •

ويمس أذنيه رفيف الطيور ، وحفيف الشجر ، وزفيف النسيم ، فيصغى اليها كانما يتلقى وحيا من السماء ، كان يحس وهو فى عزلته شفافية فى روحه ، ورقة فى قلبه ، وصفاء فى نفسه ، فكان يخيل اليه أنه امتزج بالكون ، أو أن الكون ذاب فيه •

كان قلبه ناصعا أنصع من الثلج الذى يراه أمامه فوق قمة جبل حرمون ، وروحه عذبة أعذب من مياه نهر قيشون ، وكانت نفسه هادئة أهدأ من سطح بحيرة الجليل فى يوم صاف هدأت عواصفه ، ونامت رياحه .

كان اترابه من الصبيان يتلقون علومهم فى مدارس الربيين ومدارس الكتبة ، أما هو فكان يتلقى الحكمة فى مدرسة الله ، تحت اشجار التين ، وفى الحقول فى الظهيرة ، وتحت نجوم الليل ، كان يستمد حكمته من السماء الصافية ، والسحب المتلبدة ، وزمجرة الرياح ، وهبوب النسيم ، وقيظ الحر ، وقر الشتاء ، حتى الخشب الذى يصنعه بيديه ، يجد فيه مادة لتفكيره وغذاء لروحه تتلمذ لثلاثة علماء : العمل ، والطبيعة ، والتوراة .

كان يجالس الفقراء ويستمع الى شكاتهم ، فقد كان فقيرا ، ويحادث الخطائين دون أن يلتفت الى نظرات الاستنكار التى تصوب اليه ، ولم يكن خطاء ، بل كان ذا قلب كبير ، يرحم ضعفهم ، ويرى انهم احق بالرعاية والعطف من المتزمتين المتظاهرين بالتقى والصلاح ، كان انسانا يغفر ضعف الانسان .

اصغى الى الكتبة والفريسيين ، ولكنه لم ينفعل لمواعظهم ، فكلماتهم تخرج من الفم كلمات ميتة بلا روح ، فلا تجد طريقها الى القلب ، يقول الفريسيون ويرددون القول : اذا جلس اثنان يتحادثان ولم يكن حديثهما عن الشريعة ، كان اجتماعهما فى سبيل الشيطان ، قول منمق لكن ما كانت العبرة باللفظ ، ولكن بأثره فى الفؤاد .

الفريسيون ينطلقون فى الطرقات يتجسسون على الفقراء ، ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم ، ولكنهم لا يهتمون

كثيرا بطهارة النفس ؛ فالفواحش ترتكب دون أن يحركوا ساكنا ، فانما كل ما يهمهم نظافة الثوب !

وأصغى الى كبار الحاخاميين فى المعبد فى موسم الحج ، فالفى شريعة موسى البسيطة قد عقدت ، وتفرعت مذاهب ، فما يحلله هلليل يحرمه شماى ، فأعرض عن حلقات السفسطة والجدل ومعارض الكلام ، وأقبل بنفس متفتحة على الكون يغترف علما وحكمة من معينه الرقراق .

أكب على عمله فى حانوت يوسف النجار ،وأخذ يشكل قطعة الخشب التى فى يده فى مهارة ، ويبذل جهده ليجعلها ملساء ، انها ستوضع حول رقبة ثور ثم يشد الى المحراث . فاذا كانت خشنة آذته ، ليخفف من آلام ثور من الثيران فى حقل من حقول الجليل المترامية .

راحت الشمس تختفى خلف تلال الناصرة ، فاغلق يوسف حانوته ، وذهب هو وعيسى الى الدار ، كانا فى طريقهما يتبادلان الاحاديث عن الدين ، وكان يوسف يسبغ عطفه عليه ، ولكن يوسف انطلق الليلة وهو صامت ، فاحترم عيسى صمته ، ولم يحادثه ، وشغل بما يدور فى نفسه من افكار .

ودلفا الى الدار ، واتجه يوسف الى فراشه ، وقبل أن يندس فيه ، توجه الى الله ، وأخذ يقرأ الشمة : « اسمع يا اسرائيل .. » وانتهى من صلاته ، وارتمى فى الفراش مبهور الانفاس ، فقد كانت الحمى تسرى فى بدنه .

واقبلت مريم وفى يدها مصباح ، ودنت تنظر فى وجهه ، فاذا العرق يتفصد من جبينه ، واذا نفسه مضطرب ، فراحت تمرضه ، وانقضى الليل ومريم وعيسى الى جواره يخفق قلباهما

بالحزن العميق ، اذ يريان يوسف راح فى غيبوبة طويلة ، ولم ينبس بكلمة ، ولم يفتح عينيه مرة ٠

واشرقت الشمس ، وغرقت الدور البيض فى النور ، فخرج عيسى الى الحانوت ، يعصر قلبه الأسى ، فما خرج وحده قبل يومه ، وخطر الموت على ذهنه ، فراح يفكر فيه ٠

ونظرت مريم الى يوسف المسجى أمامها وهى حزينة ، صدقها يوم كذبها الناس ، وآمن بابنها وصدق به قبل أن تكتحل برؤيته عيناه ، وفر بهما من وجه الطغيان فى سبيل الله ٠ كان مؤمنا عميق الايمان ، نفذ أوامر الله ، فكان نعم الحارس ونعم الكنف ٠

وشخص يوسف ببصره الى السماء ، وغمغم فى صوت خافت :

ـ الهى ، أعيد اليك وديعتك ، فقد انتهى عملى ، الهى انى ذاهب اليك وأنت أقدر على حفظ رسولك ، فأنت خير الحافظين ٠

واسبل جفنيه ، وذهب الى حيث يذهب المؤمنون الصادقون ، وغطت مريم وجهه بنقابها ، وجرت عبراتها على خديها ، وأقبل عيسى يذرف الدمع الهتون ٠

١٠

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ٠

(قرآن كريم)

قصور حكام الاقاليم مراتع اللهو ، فانتيباس هيرودس غارق فى الشهوة ، تساق الى قصوره أجمل الفتيات ٠ راقصات عاريات ، وأغنيات ماجنات ، وكئوس الخمر تدور على الأصفياء ، فتنطلق الوحوش الكامنة فى النفوس تعب اللذات فى نهم ٠

وقصور الأغنياء مسارح للخلاعة ، وأوكار للمجون ، يحاكون رؤساءهم ، ويتقربون اليهم بالمعاصى والمنكرات ، ويتنافسون فى نيل الحظوة عند أنتيباس بتقديم العذارى الكاعبات اليه ، فقد قر فى أذهانهم أن المناصب لا تنال الا بالنساء ، فهذان قيافا وحنان تقربا اليه بالأبكار الأتراب ، فتقاسما رياسة الكهنوت ٠

كانا ضالعين مع الرومان ، يشاركانهم حياة الفسق والمجون ، ويتظاهرون أمام الشعب بالتقوى والصلاح ، يقدمان الى مذبح الرب القرابين ، وفى نفس الوقت يقدمان الى ولى نعمتهم النساء على مذبح الشهوات ٠

ودب الفساد فى مجلس السنهدرين ، ذلك المجلس الذى كان للدين حصنا ، صارت الكلمة فيه للهيروديين الوالغين فى الفساد ، أو للصدوقيين المخادعين الذين يتخذون من الدين ستارا ٠

وفى أروقة الهيكل اشتد الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين ، اولئك يعتقدون فى الملائكة وهؤلاء لا يعتقدون فيهم ، وأولئك يقولون بالبعث ، وهؤلاء ينكرونه ·

وساد أورشليم والبلاد اليهودية ظلام ، ونزل بنفوس الناس هم ثقيل ، وحاق بهم ضيق ، ودب فى قلوبهم اليأس ، فقد انقضى زمن طويل دون أن يظهر فيهم نبى ، يخرجهم من الظلمات الى النور ·

كان يحيى عاكفا على العبادة فى الهيكل ، وكانت تصل اليه نتف من حياة قيافا وحنان ذات الوجهين ، ويرى عيشة الرغد التى يحياها الرهبان الفريسيون ، ويصغى الى سفسطة الصدوقيين ؛ فرأى أن يخرج الى البرية ، يعيش بين الوحوش ، فارا بنفسه من ذلك النفاق والرياء ·

هام يحيى فى البرارى ، يأكل من ورق الشجر ، وبرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد ، وتستر جسمه مدرعة من الشعر ، وعلى حقويه منطقة من جلد ، وظل فى عزلته يتلقى وحى السماء ·

وذهب الى الأردن يدعو الناس الى الله ، فاجتمعوا يسمعون اليه ، قال :

ـ ان الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات ، أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولاهن أن تعبدوا الله لا تشركون به شيئا ، فان مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته الى غير سيده ، فايكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وان الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ·

وآمركم بالصلاة ، فان الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فاذا صليتم فلا تلتفتوا ·

وآمركم بالصيام . فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا . فان مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره ، فاتى حصنا فتحصن فيه . وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان اذا كان في ذكر الله عز وجل .

وراح يحيى يقول للوفود التى توافدت عليه :

ـ توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وذاع في البلاد أن نبيا خشنا قام في البرية ، يدعو الى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء ، ولما كان اليهود يترقبون عودة ايليا ليخلصهم من الفساد ، قالوا ان ايليا قد قام . وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج ، مهطعين الى الأردن ، الأغنياء يحدوهم حب الاستطلاع ، والفقراء عامرة قلوبهم بأعمق الايمان ، وجاءوا اليه يعترفون بخطاياهم ، فيعمدهم ويطهرهم .

وبلغ نبؤه أورشليم ، وسمع الناس أن نبيا جديدا قام في اسرائيل ، فنزل ذلك الخبر على قلوبهم نزول الغيث على الأرض المجدبة ، فنبت الأمل ، وارهفت الاحساسات ، ولاح في الأفق تباشير عهد جديد ، عهد زاخر بالخيرات .

وقال قائل لأنتيباس ان نبيا في البرية يدعو الناس الى الثورة على دولة الأغنياء ، يحض من له ثوبان على أن يعطى من لا ثوب له . فبعث الى السنهدرين ، يأمرهم ان يوافوه بخبر ذلك النبي

الجديد ، فاجتمع المجلس وقرر ايفاد رسله الى ذلك الرجل الخشن ، الناحل من شدة التقشف ، الذى رنت كلماته فى القصور ، فزلزلت قلوب المردة الطغاة .

وفى شوارع الناصرة تحدث الناس عن النبى الجديد ، وتجاوبت فى أرجائها أنباؤه ، وبلغ عيسى دعوة يحيى بن زكريا ، فأحس كأنما يترجم أفكاره ، ويعبر عما يجيش فى صدره . انه يهاجم الغنى والأغنياء ، ويدعو الى المساواة . ويفضح رياء الكهنة والكتبة . فلم يستطع عيسى صبرا ، فشد اليه الرحال .

واقبل الفريسيون ، رسل السنهدرين فى كبريائهم ، الغرور يجرى فيهم ، ويعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يغادرون نضد التوراة ، يقرءون فيه ويقرءون ، ثم يعودون فيقرءون ، لا شغل لهم الا قراءة التوراة ، حتى حفظوا النصوص ، وتزمتوا فى تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له .

نظروا الى ذلك الرجل الناحل ، العارى الا من مدرعة من شعر ، واصغوا اليه وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء . انه لا يدعو الى نفسه ولا يستغل النور المنبثق من روحه الا فى انارة طريق النبى القادم بعده ، ويطهر الناس ليكونوا اهلا لاستقباله . انه صوت منطلق فى البرية ، يعبد الصراط المستقيم .

دنوا منه وقالوا له :

— من انت ؟ حتى نخبر من أرسلونا . آلمسيح انت ؟

— لا .

— أايليا أنت ؟

— لا .

— آلنبى أنت ؟

ـ لا • انا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبى •

فنظروا اليه فى زراية ، وقالوا له :

ـ فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى ؟

ـ أنا أعمد بماء ، ولكن فى وسطكم قائم الذى لستم تعرفونه . هو الذى يأتى بعدى ، الذى صار قدامى ، الذى لست بمستحق أن أحل سيور حذائه •

فنظر بعضهم الى بعض يسخرون ، كان يحيى صلبا كالصخر ، لا يخشى فى الحق لومة لائم . لا يرجو عطف النـــاس ، ولا يخشى مقتهم ، انه قوى فى الحق ، خشن خشـونة الصحراء التى يهيم فيها ، يرى غطرسة الفريسيين وتكبرهم ، لأنهم من نسل ابراهيم . فقال لهم فى صوت كالرعد :

ـ يا أولاد الأفاعى ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبا ، لأنى أقول لكم : ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم ، والآن وضعت الفأس على أصـل الشجرة . فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى فى النار ، أنا أعمدكم بماء التــوبة . ولكن الذى يأتى بعــدى هو أقوى منى ، هو سيعمــدكم بالروح القدس •

وتدفق الناس عليه . العوام والخواص ، حتى الذين يخدمون هيرودس جاءوا يلقون اليه السمع •

وأشرف عيسى على وادى الأردن ، كانت الشـــمس ترســـل أشعتها الحامية ، وكانت تتألق متوهجة فى كبد السماء ، لم يظهر لشيء على الأرض ظل ، كانت أريحا قائمة بين أشجارها ، والبحر الميت يعكس وهج الشمس كمرآة تخطف الأبصار ، وجبـال مؤاب

شامخة على الشاطىء الشرقى ، والصخور الصفر عارية خامدة ميتة ، ولكن النهر لم يكن ميتا ، فيحيى غائص فى مياهه الى ركبتيه ، يطهر الوفود الزاخرة المتدفقة ، التى وهبت للصحراء قلبا خفاقا ينبض بالحياة .

وهبط عيسى الى الوادى ، وذهب الى يحيى بن زكريا ، الذى جاء يبشر الناس بقرب رسالته ، ويعبد الطريق أمامه حتى يبلغ الناس رسالات الله .

١١

« يا عيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس » .

(قرآن كريم)

السـماء فوقه ، والرمال تحت أقدامه ، والفضـاء أمامه . والأفكار تنثال على رأسه . أصغى الى يحيى فالفاه يذكر الناس باقتراب ملكوت السماء ، وهو يعلم أن الله يعده ليبعثه رسولا الى قومه . فقد بشرت الملائكة أمه به قبل مولده ، وقالت لها ان الله يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل .

ان موسى قد ذهب للقاء ربه ، وانفرد فوق طور سيناء أربعين يوما وليلة يناجيه حتى تجلى له وكتب له فى الألواح شريعته ، فعزم عيسى ان يمكث فى الخلاء يتعبد ، ويتاهب لوحى السماء ، فالخلوة تطهر نفسه ، والمناجاة تشحذ روحه ، وتملأ قلبه نورا على نور .

وركع على ركبتيه ، وتطلع طويلا الى السماء ، وجعل يبتهل الى الله فى حرارة ، وجرت دموعه ، وبكى بمثل حنين الابل ، بكاء من ودع الأهل ، وقلا الدنيا . وظل فى مناجاته ، لا يحس شيئا حوله ، فقد تعلقت روحه بالله .

واحتجبت الشمس وراء تلال مؤاب ، فصبغت التلال بلون القرنفل والأرجوان ، وملئت الأخاديد فى سفوحها بظلال زرق

قاتمة ، وبدا نهر الأردن كخيط أزرق ملقى فى الصحراء ، وعيسى فى خشوعه غائب عن كل ما حوله من جمـال ، فهو ينشد جمـال الله .

ونامت عيون الأبرار وهو يقظان ، يدعو الله فى هجعة الليل ، وسكر بصره ، خيل اليه أن بابا فتح فى السماء ، وأن روحه عرجت اليها ، تهيم فى الملكوت ما شاء الله لها أن تهيم .

كرّت الأيام ، ومرت الليالى ، وهو لا يحس مرور الأيام ولا كر الليالى . وغاب عن الزمن ، وغاب عن المكان ، وغاب عن كل شىء الا عن الله ، فهو يفكر فيه بذهنه ، وتنبض بذكره خفقات قلبه ، ويردد لسانه وهو ساجد : « الهى ، أرنى نور وجهك » ، فتردد ذلك النداء فى حرارة كل خالجة من خوالجه . باتت حواسه كلها السنة تتضرع الى الله أن يمن عليها بالنور .

شفت نفسه ، وأرهفت حواسـه ، وانقشعت الحواجز المادية امام عينيه ، فبدت الدنيا صـافية نقية ، واذا نور سـماوى يغشى المكان . واذا ذلك النـور براق فى جوفه ، فيحس كانمـا خلق من جديد .

ومس أذنيه حفيف صوت ، فالتفت خافق القلب ، فرأى جبريل ، فجفل فى خوف ، ثم أخذت الطمانينة تعود اليه رويدا رويدا . فلما أفرخ روعه ، قال له الروح الأمين : ان الله أرسله رسولا الى بنى اسرائيل ، وراح يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل .

تصرمت أربعون ليلة وعيسى فى مناجاته ، يتلقى وحى السماء وهو على قمة الجبل منفردا بالله ، كما تصرمت من قبل أربعون ليلة وموسى على طور سيناء يتلقى كلمات ربه .

سـار عيسى وقد استرسل شعره ، وطالت لحيته ، وغاضت تلك الوداعة التى كانت تشع من وجهـه • وبان فيـه قوة وعزم • انقضت ايام الدعة والهدوء ، واقبلت أيام الكفاح والجهاد ، ايام الاضطهاد والتعذيب . فما جاء احد بمثـل ما جاء به الا اضطهده الناس وعادوه •

عاش عيسى تلك الأيام بروحه ، فلم يحس حاجات الجسد • اما الآن فقد عاد الى نفسـه ، انه يشـعر بالجوع يعض أحشـاءه ، وبجفـاف العطش فى حلقـه ، فتلفت لعله يجد ما يسكت به ذلك الصراخ المنبعث من جوفه ، ولكنه لم يجد شيئا ، فانطلق وهو يفكر فى امره • ووقعت عيناه على الحجارة المبعثرة فى الفضاء • فرن فى اذنيه صوت يحيى القوى الخشـن : « ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم » •

وتحرك جوعه ، فوضع يده على بطنه . واحس انه لم يعد فى البرية وحده ، فالتفت فاذا رجل الى جواره يرنو اليه فى ود ، ودنا الرجل منه وقال له :

— سل ربك ان يقول لهذه الحجارة كونى خبزا •

وقفزت الى ذهن عيسى صور طالما عاش فيهـا بروحه ، فطالما قرا أن اسرائيل وهو فى البرية وقد نهكه الجوع ، سأل الله أن يطعمه فنزل عليه المن من السماء ، وطالما راى بين سطور التوراة ملاك الرب وهو يقود ايليا ، المضـنى من الجوع ، الى الطعـام ، انه لو سأل ربه أن يحيل تلك الحجارة خبزا لاستجاب له ، ولكن ما كان يسـاله . فالتفت الى الرجل وقال له :

— مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله •

وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

ـ اما علمت أنه لن يصيبك الا ما كتب لك ؟

فاطرق الرجل قليلا ثم قال :

ـ فارق الى ذروة هذا الجبل ، فترد منه ، فانظر هل تعيش ·

فاقبل عيسى على الرجل ، وقال له :

ـ اما علمت أن الله قال : لا يجربنى عبدى ، فانى افعل ما شئت ·

فبان فى وجه الرجل القهر ، واستمر عيسى فى حديثه :

ـ ان العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الله يبتلى عبده ·

وراح الرجل يوسوس له :

ـ لا ينبغى لك يا عيسى أن تكون عبدا ، فقد بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت فى المهد صبيا ، ولم يتكلم فيه احد قبلك ·

ـ بل الربوبية لله الذى انطقنى ، ثم يميتنى ثم يحيينى ·

ـ تعال ·

وارتقيا جبلا عاليا ، واشار الرجل باصبعه الى ممالك الأرض، وقال له :

ـ انظر ، ان كان لك عينان ·

فنظر عيسى ، فرأى جميع ممالك الارض ، فقال له الرجل :

ـ سامنحك هذه الممالك ، ساجعلك الحاكم المطلق على البشر ، ستتالق فى المجد ، ستكون المسيطر على كل الأرض ، سامنحك كل هذا لقاء شىء واحد ، أن تسجد لى ·

فصرخ فيه عيسى :

ـ ابتعد عنى يا شيطان ، ابتعد يا رجيم ، مكتوب : للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد ·

فلم يشأ الشيطان أن يعلن اندحاره ، فابتسم فى خبث وقال :

ـ ان غضبك ليس بغضب عبد ، ولكن أدعوك لأمر هو لك .

آمر الشياطين فليطيعوك ، فاذا رأى البشر أن الشياطين أطاعوك عبدوك . أما انى لا أقول أن تكون الها ليس معــه اله ، ولكن ا.. يكون الها فى السماء ، وتكون انت الها فى الأرض .

فغضب عيسى غضبا شــديدا ، وصرخ فيه صرخة زلزلتــه . فابتعد ابليس مذموما مدحورا ، وهو يغمغم فى يأس :

ـ يا عيسى ، لقد لقيت فيك اليوم تعبا شديدا .

ووقف بعيدا يرنو اليه منهزما ، عجز أن يفتنه ، ولكن ما كان الشيطان ليقر بهزيمة ، وقفزت الى ذهنه الشرير فكرة ، اذا كان قد عجز عن فتنته ، فسيجعله فتنة ، فقال وهو يختفى فى الأفق البعيد :

ـ ساضل بك يا عيسى بشرا كثيرا ، وابث فيهم أهواء مختلفة ، وإجعلهم شيعا ، ويجعلونك وأمك الهين من دون الله .

١٢

« ورسولا الى بنى اسرائيل » .

(قرآن كريم)

« لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » .

(متى ١٥ : ٢٤)

الناصرة غارقة فى الصمت ، تطوف بها أحلام . راح الناس فى النوم . حتى نجوم السماء هجعت ، فقد كانت ليلة لم يبزغ فيها نجم . وفى ذلك الصمت والجلال كانت مريم قائمة تصلى ، فابنها خرج الى يحيى بن زكريا ، الذى بعثه الله بشيرا بملكوت السماء ، وتقضت ايام وليال وأسابيع ولم يرجع عيسى اليهـا . كان اليقين يملؤها أن أوان بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقتها ، انها لم تفارقه مذ وضعته ، وانها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التى فقدته فيها . وهو جالس فى الهيكل بين العلماء ، وانها لترجو أوبته ليعود اليها الاطمئنان .

كانت العيون غافلة الا عينى مريم فى بيتها الراقد فى تواضع عنـد اقدام التـلال ، وعينى عيسى وهو فوق الجبـل . قد تعلقت بالرجاء .

وتوافدت الى راس عيسى الأفكار ، الى أين يذهب بعـد أن بعثه الله رسـولا ؟ الى بنى اسرائيـل ؟ أيذهب الى النـاصرة تلك القرية المغمورة فى الجليل ، وينطلق الى حانوت النجار يدعو

الناس منه الى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا الى الهدى ، وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت فى جوفه رهبة . ولكن ما كان له بعد ان أيده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت الى ذهنه صورة يحيى وهو فى مدرعة الشعر ، ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ فى قوة ، لا يهاب احدا ، ولا يخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ، فامدته تلك المشاهد ، التى تتوافد على راسه ، بقوة وعزم اكيد ، فاتضح الطريق أمام عينيه : سيجوب المدن اليهودية داعيا الى الرشاد ، موطدا النفس على احتمال الأذى والعذاب ، فما احلى الاضطهاد فى سبيل الله .

وسار فى ذلك الفضاء العريض ، يحس كانما ملىء علما وحكمة ، فالصحراء والحجارة والسماء تمده بالوان جديدة من التفكير ، وذلك الانطلاق فى الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا ، بل صار مؤانسة ، فما كان فى تلك المفاوز وحده ، بل كان فيها مع العليم الخبير .

وفى الطريق لاحت له أرباض مدينة ، فيمم شطرها ، ودخلها ليدعو أهلها الى الصلاح ، وألفى الناس فى السوق غادين رائحين ، فاعتلى مكانا عاليا ، وراح يقول :

ـ يا بنى اسرائيل ، يا بنى اسرائيل .

فاجتمع الناس اليه يصغون ، فقال :

ـ يا بنى اسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم . انه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسأله :

ـ من أنت ؟

ـ انى رسول الله اليكم ٠

ـ وما أدرانا أنك رسول ؟

ـ جئتكم بمعجزة من ربكم ٠

ـ وما هى ؟

ـ انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ٠

واخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير (١) ، ثم نفخ فى الطين ، فدبت الروح فيه ، وطار فى الجو ، وعيون الناس معلقة به ، وعقد الدهش ألسنتهم ، وبانت فى وجوههم الحيرة ، وظلوا فى ذهول حتى سرى همس :

ـ هذا سحر ٠

وأفاقوا من دهشتهم ، فقالوا فى توكيد :

ـ ان هذا الا سحر مبين ٠

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، وابتعد عنهم رويدا رويدا وهو حزين ، انه يدعوهم الى النجاة ، فيعرضون عنه ، ولو أنه دعاهم الى الضلال لأقبلوا عليه يتسابقون ٠

واطرق يفكر فيما كان ، انه دعا الناس فجاءوا يصغون اليه ، وتركوه يبلغ رسالات ربه ، فاذا كانوا لم يؤمنوا بما قال ولم يصدقوه ، فسيأتى يوم يسارعون اليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى ان يعتصم بالصبر ، فالصبر من عزم الأمور ٠

وغابت الشمس ، وراحت تختفى وراء تلال الناصرة ، فبدت اشجار التين والزيتون نابتة فى الشفق كأنما لصقت على لوحة فى لون العقيق ، فخفق قلبه وأغذ السير ٠ أحس شوقا الى أمه ، ورغبة

---

(١) ذكرت فى انجيل توما وانجيل الطفولية ، ولم تذكر فى الاناجيل الأخرى لأنها وقعت قبل ايمان الحواريين بعيسى ٠

فى أن يفضى اليهـا باصطفاء الله اياه ، وبعثـه رســولا الى بنى اسرائيل ٠

وانساب فى طرقات الناصرة ، وقد ســيطر السكون ، ونشر الليل الويته ، ودلف الى البيت ، فلما رأته مريم هرعت اليه تضمه الى صدرها فى حنان ، وجلسا فى جوف الليل يتناجيان ٠ وقال لها فيما قال :

ـ وفيما أنا فى صلاتى وابتهالى فوق الجبل ، سقط من السماء نور باهر ، واذا بجبريل الأمين يخبرنى أن الله بعثنى رسولا الى بنى اسرائيل ٠

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ـ ســأغادرك يا أماه لأبلغ النـــاس أوامر الله ، وســأحتمل اضطهادهم ونكرانهم وتكذيبهم فى ســبيل الله ، لن أســتطيع بعد اليوم أن أقيم معك ، وأن أعاونك بخدماتى ؛ لم أعد يا أماه لك ، بل أصبحت لله ٠

ونظر اليها فالفى فى عينيها دموعا ، فحسبها تبكى لفراقه ، فقال لها :

ـ لا تبكى يا أماه ٠

ـ هذه دموع الفرح ، انى نبئت يا بنى بكل ذلك قبل أن تولد ٠

فقال عيسى لأمه فى رجاء :

ـ صلى يا أماه من أجلى ، وابتهلى اليه أن يؤيدنى ويثبتنى ويمدنى بنصر من عنده ، صلى يا أماه ، فصلاتك درعى ٠

فقالت مريم فى حرارة :

ـ فليباركك رب ابراهيم واسحاق ويعقوب ، كما بارك آباءك ٠

وسجدا يصليان لله فى جوف الليــل ، وقد غرقت الناصرة فى الصمت ٠

١٣

« وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » .
(قرآن كريم)

انتقل هيرودس أنتيباس الى عاصمته الجديدة طبرية . انه حاكم الجليل ، ولكنه يريد أن يرتفع بعاصمته ، ليجعلها قطعة من روما . فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهى، وبث فيها الحدائق . فهو يقتفى آثار أبيه هيرودس الأكبر فى التقرب من روما ، وفى خضوعه لنزواته وشهواته ، وكان معجبا بأبيه ، فراح يستمد منه وحيه ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود انه من حماة الشريعة المخلصين ، فاذا ما جاءت الأيام المقدسة ، ذهب خاشعا الى الهيكل بأورشليم ، يقدم بنفسه الضحايا والقرابين . فاذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ، ترك قصره وذهب الى قلعة ماكيروس القائمة على تل عال متحدية صحراء بتراء ، وهناك يتحرر من قيوده ، ويعيش لشهواته ونزواته ، وهو آمن من أن يطلع عليه أحد اليهود . فهذه القلعة قائمة فى أرض سدوم ، وكانت مدينة زاهرة دمرها الله بخطيئة أهلها ، وما كان بنو اسرائيل يدخلون أرضا حلت عليها لعنة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه ، وان كان فى قرارة نفسه يشتهى أن يكون فى هيئة رومانى أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ،

ويرتدى ثياب الأسياد ، ويقوم مثلهم بالحفلات ، ويتخذ لنفسه بلاطا من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحنته وعينيه السوداوين اللتين ورثهما عن أمه السامرية تفضحه وتصرخ به أنه رجل شرقي ، نابت في لفحة الصحراء ·

وتاهب للخروج الى روما لمقابلة طيباروس امبراطور الرومان ، ليقدم له فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء اليه رسل المستهدرين الذين بعثهم الى الأردن ليروا ذلك الصوت المنبعث فى البرية يبشر الناس بقرب ملكوت السماء ، وقالوا له ان ذلك الرجل يفتن الناس ، ودعواه تهدد الأمن العام ، فهو يبشرهم بنبى جديد ، يستل الملوك من عروشهم ، انه يحضهم على الثورة ضد المال والسلطان ·

وفكر هيرودس انتيباس فى ذلك الثائر الجديد ، فهاجت وساوسه ، وخشى ان سافر وهو طليق آن يقلب القوم عليه ، فاذا عاد وجده قد أفسد الناس ، فأمر جنوده أن يقبضوا عليه ، وأن يسجنوه فى قلعة ماكيروس ·

وانطلق جنود أنتيباس الى الأردن ، وألقوا القبض على يحيى الذى كان يبشر بملكوت الله ، وانفض الناس من حوله ، ليتجمعوا فى جبال السامرة معلنين سخطهم على ما حاق بنبيهم الذى أحبوه وآمنوا به ، ووجدوا فيه المبشر بالخلاص ·

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس ، بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان بين أنتيباس وبيلاطس جفوة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ زميله بزيارته ، بعد أن عين حاكما على ولايته ، فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنا من زميله ، ولم تقع الزيارة المرتقبة ، فتغيرت النفوس ، وحل الجفاء ·

بعث بيلاطس جنوده الى الثائرين اللائذين بالجبال ، وقتل بعضهم وفرق شملهم ، ولكنه كان يخشى أن يعود الناس للثورة

فأرسل الى انتيباس ليرى رأيه فى ذلك الرجل الذى سجنه ، والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصبين ٠

شغل هيرودس أنتيباس بذلك السجين الذى لا يملك من دنياه الا مدرعته من وبر الجمل ومنطقته من جلد ، وبيانا يزلزل عرش الطغاة ، انه لو أطلق سراحه جمع قلوب المتعصبين حوله ، وهدد ملكه بالزوال ، واذا أبقاه فى سجنه أوغر صدور الناس ، فرأى الا يشتط ، وان يدع للصدور الفائرة بالحماسة منفذا ، فصرح بأن يزور يحيى حواريوه ، وأن يبعث الى الشعب من سجنه بما يشاء ٠

وقبل يوم السفر الى روما ، فجاءت تودعه زوجته ابنة الحارث أمير العرب ، فى جمالها الشرقى الأخاذ ، فرنا الى عينيها السوداوين الواسعتين ، والى وجهها الذى استدار كبدر ، والى شعرها الذى بدا كليلة حالكة من ليالى الصحراء المظلمة ، فرفت على شفتيه ابتسامة لم تكن منبعثة من القلب ، فقد سئم ذلك الجمال ، وهو يرجو أن يجد فى روما مفاتن تجدد شباب الفؤاد ٠

ونزل على الامبراطور طيباروس ضيفا عزيزا ، وفكر وهو فى روما أن يزور أخاه فيليبس الذى حرمه هيرودس الأكبر من الميراث ، فعاش فى روما عيشة الرومان ٠ دخل هيرودس على أخيه فيليبس، فأعجبته هيروديا زوج أخيه ، كانت رائعة الحسن ، أندى من الندى ، وأنضر من أزهار الربيع ، كانت ذات جمال يعبث بالأفئدة ، وتهفو اليه القلوب ٠ راح يحادث أخاه ، ويرنو الى زوجه فى اعجاب ، ويرمقها فى اشتهاء ، وتلاقت عيناه الوالهتان بعينيها ، فأحست حرارتهما ، وفهمت لغتهما ، فرفت على شفتيها ابتسامة مشجعة ، واشتعلت عيناها برغبة طائشة مغرية ، زادت حب هيرودس ضراما ٠

كانت هيروديا مغامرة ، تهفو الى أن يزين تاج الملك جبينها ،

وقد تقربت من البلاط الرومانى ، وصـــادقت الامبراطور طيباروس لعلها تؤثر فيه ، وتقنعه أن يعين زوجها فيليبس حاكما على ولاية من ولايات فلسطين ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق حلمها ، وها هو ذا هيرودس أخو زوجها وحاكم الجليـل يغازلهـا ، ويفتـح امام أطماعها أبواب الأمل ، فما كان لها ان تنكص وتغلق ما يفتح أمامها من ابواب .

هام هيرودس بزوجة أخيه حبا ، وبادلته هيروديا ذلك الغرام ، فراحا يتلاقيان فى غفلة من العيون ، وملك حبه لها حواسه وسيطر عليه ، فلم يطق أن يعود الى ولايته مسلوب الفؤاد ، فزين لها فى نجوى الهرب معه ، فقالت له فى خبث الحية :

— وزوجتك ؟

— أطلقها .

ما أيسرها من كلمــة فى بيت هيرودس ، ان هيرودس الأكبر طلق وتزوج مرات ومرات ، حتى ان رجال الدين ضــاقوا بذلك ، ورفعوا اليه أنهم يخشون ثورة الناس ، وان هيرودس أنتيباس ، سر أبيه ، لا يجد فى طلاق زوجه أى اثم ، ما دام ذلك الطلاق يمكنه من ارضاء نزواته ، واطفاء شهواته .

وفى غفلة من فيليبس ، الأخ المخدوع ، والمضيف الكريم الذى رحب باخيه ، فر هيرودس وهيروديا وابنتهـا سالومى الصــغيرة الجميلة ، التى لم تتفتح عن أكمامها ، ونزلت هيروديا القصر الرائع فى طبرية ، ولم تحتمل الزوجة العربية ، ابنة الحارث أمير العرب ، العار الذى لحق بها من جراء فعلة هيرودس الطائشة ، فالتمست من زوجها الاعتكاف فى قلعة ماكيروس حتى تهدأ غيرتها ، فسمح لها ليخلو له وجه هيروديا الساحرة .

امتلأت ابنة الحارث حقدا ، وما بلغت قلعة ماكيروس حتى
جاش غضبها ، طعنها فى كبريائها ، ولن تنطفىء تلك الوقدة التى
أججها فى أحشائها قبل أن تشعل ملكه نارا ، ففرت الى صحراء
بتراء ، الى قلعة أبيها ، لتضرم نار العداوة فى قلب الحارث ، الذى
ثار للاهانة التى ألحقها انتيباس بابنته التى يحبها ·

وتزوج هيرودس أنتيباس من هيروديا زوج أخيه فيليبس ،
وابنة أخيه أرسطوبولس فى الوقت ذاته ، وغضب الشعب لذلك
الزواج . ولكن غضبه لم يبلغ القصر الصاخب بالوفود الرومانية
والعلماء والفلاسفة والممثلين والراقصين ، الوافدين من روما ،
ليزينوا بلاط هيروديا ·

وضاق هيرودس بالحفلات والرسميات ، واحس رغبة فى أن
يتحرر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدنية ، ان الوحش القابع فى
أغوارد يلح عليه أن يبدو فى صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا الى
قصره بقلعة ماكيروس ، بعيدا عن أعين الفريسيين المتزمتين ، وان
كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم ، وأنه مثلهم متمسك بحرفية
الشريعة الموسوية !

وبلغا القصر . وأطلت هيروديا من القلعة الشاهقة ، المطلة
على الصحراء المترامية ، كانت كحارس ساهر على حدود الجليل
الفاصلة بين انتيباس والحارث أمير العرب ، وقعت العداوة بينهما ،
فما كان لذلك الحارس أن يغفل أو ينام ·

وظهرت أمام عينيها أشجار النخيل الباسقة ، بسعفها الأخضر ،
وأشجار الزيتون وكروم أريحا اليافعة ، وراحت تجوب خلال
القلعة . فصكت أذنيها دعوات يحيى القوية ، فأحست شيئا غامضا
ينبعث فى جوفها . فعادت الى هيرودس والتمست منه أن تصغى
الى ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب ·

تمـدد هيرودس فى فراشـه الوثير ، ووقفـت هيروديا خلف الستار ، وجاء الحراس بيحيى ، فلم تبهره الطنـافس الرائعة - ولا الستائر الفاخرة ، ولا الحرير الذى يغوص فيه الملك ! بلغه ما فعله هيرودس . فارتسمت فى وجهه صرامة وثورة للحق . نظـر هيرودس اليه ، فمشت رهبة فى جوفه ، كان يهابه فى قرارة نفسه . ولكنه شاء أن يتظاهر بالقوة ، فقال له فى صوت آمر :

ــ ألا تكف عن هذيانك ؟

فلم يابه يحيى به ، بل قال له فى قوة ، اطارت ما كان يتشبث به من شجاعته الهاربة :

ــ اهجر هذه المرأة .

ــ لماذا ؟

ــ انها لا تحل لك .

ولم يجد هيرودس ما يقـوله . فاشار للجنـود أن يأخذوه . وأطرق مهموما ، وخرجت هيروديا من وراء الساتر ، وذهبت الى زوجها ، يتطاير شرر الغضب من عينيها ، وهتفت :

ــ كيف سمحت له أن ينطق بما نطق به ، مرهم أن يقتلوه .

ولكن هيرودس لم يفعل شيئا ، كان فى أعماقه يهابه ، ويخاف أن يمد اليه يد السوء ، اذا قتله ثار الناس عليه ، وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيى الى سجنه ، وبذرت بذور الحقد والكراهية والمقت فى صدر هيروديا .

١٤

« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ،
قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

(قرآن كريم)

كانت حياته رحلة ، ولد فى بيت لحم ، ثم عادت به أمه الى الناصرة وما استقر بها حتى جاء الأمر بالخروج . فهرب يوسف ومريم به الى مصر ، وما درج على أرضها حتى عاد الى الناصرة ، يخرج فى المواسم الى أورشليم . كانت حياته الأولى رحلة تتخللها فترات من الراحة والاستقرار ، أما رحلة اليوم فلن تعرف الراحة ، سيذهب من مدينة الى مدينة ، ومن قرية الى قرية ، ومن جبل الى جبل ، داعيا بنى اسرائيل الى ربه الذى أرسله رسولا يبشرهم بملكوت السماء . لن يستقر فى مكان ، ولن يتخذ له بيتا يأوى اليه ، سينام حيث يدركه النوم ، وحيث يجد أناسا يصغون اليه ، فقد انقضت أيام الدعة ، وأقبلت أيام الكفاح فى سبيل الله .

وغادر الناصرة ، وسار صوب الجليل ، واخترق الوادى الزاهر ، ومس أذنيه خرير الماء كتسبيح الملائكة ، ومس الجمال المكان بيده الساحرة . فبدت الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار النخيل سامقة شامخة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور . وبدت البحيرة على هيئة قلب ممرد من قوارير زرقاء صافية .

ولاحت على شاطىء البحيرة الغربى الجبال الخضر ، وامتدت على الشـــاطىء الشرقى الصحراء القـاحلة الماحلة ، ومد بصره امامه فرأى الجبـال العـالية تتوجها الثلوج النـاصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها ، فبدت كمرمر مصفى ·

وشيدت على الشاطىء الغربى مدن وقرى ، مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهى محاط للقـوافل الذاهبة الى الأردن ومصر وسورية ، وكانت فى هـــذه المنطقـة طبرية ، العاصمة التى شـــيدها انتيباس ، وســـماها بذلك الاسم متملقا الامبراطور الرومانى طيباروس . فلا غرو والتملق ديدنه ان يطلق على المدينة التى يبنيها اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان . فقد سمى من قبل مدينته قيصرية ، ارضاء لامبراطوره السابق ، قيصر ·

ووقف على شاطىء البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعابث الماء ، فطفا الزبد على سطح البحيرة كالحبب ، واقبلت مراكب الصيادين تتهادى ، ووضحت أصوات المجاديف ، وراحت الشمس تبعث الى الارض آخر انفاسها وتصبغ الشفق بالذهب ، ايذانا بانتهاء يوم العمل ·

ازدحم الشاطىء بالناس ، فقام عيسى يعظهم ويدعوهم الى الله ، ان ما يقوله لم يكن جديدا على أسماعهم ، فقـد سمعوا مثله فى المعبد ، ولكنه يمتاز بشىء ، يمتاز بالحرارة التى تصهره ، فتجعله يبدو قشيبا ، كانما يلقى فى أسماعهم لأول مرة ·

كان فى نبراته قوة ، وفى صوته صدق ، وكلماته تتدفق من القلب لتصب فى القلوب · فأحسوا نحوه انجذابا واعجابا ، ولكن ذلك الاعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة ·

وبين هؤلاء الجموع وقف صيادان يصغيان ، كان للكلام وقع

السحر فى انفسهما ، خيل لهما أنه يدعوهما وحدهما ، تفتحت له قلوبهما ، وتعلقت به ابصارهما ، وأريق فى جوفهما نور ، فقد أوحى الله اليهما أن آمنا بى وبرسولى ، فآمنا به وصدقاه ٠

وانفض الناس من حوله ، وسار وسار فى اثره اندراوس ويوحنا ، وسمع وقع اقدامهما ، فالتفت اليهما وقال فى رقة :

ـ ماذاا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن ارتج عليهما ، فقالا :

ـ أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو الى الله ، وينام فى الفضاء فى حراسة الله ، فقال لهما :

ـ تعاليا وانظرا ٠

جلسا يصغيان اليه ، وهو يبشرهما بملكوت السماء ، فاحسا سعادة ، ان كل كلمة ينطقها تمس شغاف الفؤاد ، وظلوا فى مناجاة حتى تصرم الليل ، فانصرف اندراوس ويوحنا ، وقد شهدا أن عيسى رسول الله ٠

ذهب اندراوس ينقب عن أخيه سمعان ليبشره بظهور نبى بعثه الله رسولا الى بنى اسرائيل ، وترقب يوحنا بن زيدى عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى الذى ناما معه عند عين غانم ، يوم خروجهم الى أورشليم هو الأمل المرتقب الذى ينتظره اليهود ٠

واقبل سمعان وشرح الله قلبه للايمان ، فما تحدث اليه عيسى حتى صدق ما يقول ، فقد أوحى الله اليه أن يؤمن به وبرسوله ٠

ووفد نثنائيل الى الجليل ، وكان رجلا صالحا ، فذهب الى شجرة التين ، وراح يصلى وعيسى يرصده من بعيد ، قرأ « الكراشما » وهى خدمة الصلاة اليومية فى خشوع ، وابتهل الى

الله من قلبه ، فشعر بروحه تتفتح ، وبالدنيـا حوله تزهو ، احس كأنما رد اليها شبابها ، وكأنما سرى فيها روح ·

وذهب عيسى الى البحيرة ، وصادف شـابا صـيادا ، فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له فى رقة :

ـ اتبعنى ·

فترك فيلبيس شباكه ومركبه ، وتبع عيسى كظله ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله اليه الايمان والتصديق ·

واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه ، وراح يصلى لله ويناجيه ، فتشف روحه ، ويسكن قلبه ايمان عميق ، وانطلق فيلبيس يبحث عن صديقه نثنائيل ، فلما قابله ، قال له فى حماسة :

ـ ان الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء قد وجدناه ·

ـ عمن تتحدث ؟

ـ عن النبى الجديد ·

ـ وأين وجدته ؟

ـ هنا ، فى الجليل ·

ـ ومن هو ؟

ـ عيسى بن مريم ، من الناصرة ·

فقال نثنائيل فى استخفاف :

ـ من أين ؟

ـ من الناصرة ·

فقال نثنائيل وعلى فمه بسمة :

ـ أيخرج من الناصرة شىء صالح ؟ !

كانت الناصرة حقيرة فى الجليل ، أهلها فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها الا تجارون وقرويون بسطاء ، يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هذا الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبيس ·

اصغى نثنائيل الى فيليبس فى عجب ، فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيليبس لاح فى عينى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدفقا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ، ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفتيه . وما قال له : « تعال وانظر » حتى ألفى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاءوا الى عيسى ، فرنا الى نثنائيل وقد أشرق وجهه بالنور وقال :

ـ ها هو ذا اسرائيلى لا غش فيه .

فعجب نثنائيل وقال له :

ـ من أين تعرفنى ؟

ـ رأيتك وأنت تحت التينة ، قبل أن يدعوك فيليبس .

واصغى نثنائيل اليه منشرح الصدر ، أحس كأن بلسما مس روحه ، وكأن صوتا آتيا من السماء يدعوه الى الايمان والتصديق ، فقال فى انفعال :

ـ أشهد أنك رسول الله .

وهجر الصيادون شباكهم ، ووهبوا أنفسهم لله الذى أوحى اليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وذهبوا مع عيسى يصطادون الناس .

١٥

« ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » .

(قرآن كريم)

خوار ثيران ، وثغاء أغنام ، وهدير حمام ، ورائحة الروث تتصاعد فى المكان تزكم الأنوف ، وأصوات ترتفع هنا وهناك ، هذا يتحدث باليونانية ، وذاك بالرومية وثالث بالعبرية وآخر بالفرعونية ، حتى ليخال السامع أن سوقا من أسواق بابل دبت فيها الحياة .

وتحت الأقبية جلس الصيارفة ، يشع الجشع من عيونهم . وأمامهم موائد عليها أعمدة من الفضة ، وأكداس من العملات الأجنبية ، وانبعث رنين النقود ، فكان نغمة من آلاف النغمات المتنافرة المدوية .

وسرت تراتيل اللاويين وصلوات الكهنة ، وامحت فى محيط الضوضاء ، فما كان المكان سوقا عامة ، بل كان الحرم المقدس فى الهيكل المقدس ، ساق اليه التجار ثيرانهم وأغنامهم وحمامهم ، ليبيعوها للحجاج الوافدين فى الفصح الى أورشليم ، ليقدموا الى الله القرابين ، جلس الصيارفة أمام موائدهم يبدلون للحجيج

الوهم بالشاقل الاسرائيلى ، على جعل قدره خمسة فى المائة . فقد فرض على كل اسرائيلى ، غنى او فقير ، نصف شاقل فدية ، وكان يجمعها الكهنة . وخوفا من أن تدفع لهم بالعملات النحاسية او البرونزية أو بعملات أخرى قد يضطرون الى مبادلتها بالجعل المقرر - وفى ذلك خسارة لهم - لذلك حددوها بشاقل اسرائيل ومنحوه القدسية . لان عصا هارون ضربت على وجهه ، وضرب على الوجه الآخر قدر المن على شكل كاس وكتب حوله بالسامرية : « شاقل اسرائيل » ، وما قدسه فى نظر الكهنة الا فضته النقية !

وثبتوا فى أذهان الناس أن حراما أن تدخل هيكل الرب ويدك خالية ، كأنما الغنى الوهاب فى حاجة الى أعطيات الناس ، وكنما من يرزق عباده يسترد لنفسه بعض ما وهب . ان الله غنى عن عباده ، أما الكهنة فعلى الرغم من غناهم ، كانوا فقراء الى ما فى أيدى الناس ، وان كانوا محاويج يحرمون أنفسهم القوت ليشتروا لمن يتسترون خلف اسم الله هدية ، الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم .

والفريسيون المتزمتون المتحللقون فى الطرقات يتجسسون على الناس ، ليتحققوا أن كل شىء نظيف وطاهر ، كما تقضى الشريعة الموسوية ، لم تزكم أنوفهم رائحة الروث فى الحرم المقدس ، فتجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأغنياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هلليل وشماى وكبار رجال الدين لم يجدوا فى قذارة الهيكل ما يخدش قدسيته وجلاله !

وفى طرقات أورشليم تدفق الحجاج ، المصريون فى ثيابهم الفرعونية والسوريون فى أرديتهم الوطنية ، والأغنياء فى ثيابهم الغالية . والفقراء فى أسمالهم البالية ، والجنود الرومان فى غدو

ورواح ، ينظرون الى البحر المتلاطم من الأجناس المتباينة ، جاءوا يقدمون خشوعهم لله ٠

ووفد حجاج الجليل ، النساء المحجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون فى مرح ، وبين تلك النساء كانت مريم ٠ كانت فى كل فصح تذهب الى الهيكل المقدس ، الايمان العميق يسكن قلبها ، أما فى هذا الفصح فقد دخلت المدينة المقدسة وقلبها فى جوفها يخفق كجناح حمامة ٠ الرهبة تكتنفها ، والقلق يسرى فيها ، كانت تعلم أن ابنها سيقدم الى أورشليم يعرض نفسه على الناس ، ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ٠

دلف عيسى الى الهيكل ، فاذا التجار يحتلون رواق الأمم ، رأى فيه هذه الثيران والأغنام وهو صغير ، وأحس يومها امتعاضا ، ولم يفعل شيئا غير الامتعاض ، فما كان له سلطان ، أما اليوم فهذا المشهد يحرك غضبه ٠ لم يعد ذلك الغلام الذى لا يملك الا الأسى ، انه رسول الله ، وما كان يقبل أن يتحول بيت الله الى سوق للبيع والشراء ٠

عزم على أن يطهر الحرم المقدس من الثيران والأغنام والتجار والصيارفة ، ويعيده كما كان ، مكانا للعبادة والتقديس ، فتلفت فوجد حبالا على الأرض فتناولها وصنعها سوطا ، وراح يطرد الخراف والثيران حتى اذا خلا المعبد منها ، ذهب الى تجار الحمام ، وقال لهم فى صوت آمر :

ـ ارفعوا هذا من هنا ٠

أذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا ، كانوا فى أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون ، فما كان الحرم مكان بيع وشراء ، وما عاونهم على الاسترسال فى خطئهم الا أنهم لم يجدوا من يردهم عن

فيهم ، فما أيسر هزيمة الرذيلة اذا دفعتها الفضيلة بيد قوية . وما اسرع أن ينجاب الظلام اذا سلط عليه النور .

وذهب الى موائد الصيارفة وقلبها ، فتبعثرت الشواقل الفضية المقدسة ، وجرت النقود تختفى فى الروث ، وصاح الصيارفة فى فزع ، ولم يحتجوا على ذلك الذى لم يدروا باى سلطان يطردهم . كانو على أموالهم مشغولين .

وتجمهر الناس يرقبون ذلك الثائر لكرامة الهيكل ، وقد ملئت افئدتهم اعجابا ، ورنا الفريسيون والكهنة اليه فى غيرة ، ضايقهم ان يقوم جليلى فقير على تلك الثورة التى صادفت فى نفوس الحجاج هوى ، وزاد فى غيرتهم التفاف الناس حوله ، والقاء السمع اليه .

ودخل عيسى الى الهيكل يصلى ، وسارت الجموع خلفه ، فلما اتم صلاته ، دنا منه رجل وقال له :

ـ ان الشعب يحب أن يسمعك .

وتقدم عيسى يعظ الناس ، هرعت الجماهير الى المكان حتى ضاق بهم . وجلست مريم فى الشرفة العلوية المخصصة للنساء ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيها تصغى الى الوعاظ قبل أن تبشرها الملائكة بابنها الماثل أمامها كملاك . وانبعثت فى جوفها احساسات متباينة ، واستشعرت فرحا ، ولكن لم يكن ذلك الفرح خالصا ، فقد امتزج برهبة ، وطأطأت رأسها فى خشوع وغابت عما حولها لحظة ، صلت فيها لله ، وابتهلت اليه أن يمد ابنها بتوفيقه ، وأن يؤيده بنصره .

ارتقى الشرفة مهيبا قويا ، تلك الشرفة التى ارتقاها قبله علماء وكتبة ، وأشار بيده أن اصمتوا ، فغرق المكان فى الصمت ، فقال فى صوت قوى يمتاز بحرارة الايمان :

ـ تبارك اسم الله القدوس ، الذى من جوده ورحمته أراد ، فخلق خلقه ليمجدوه .

تبارك اسم الله القـــدوس الذى خلق نور جميـــع الأنبيـاء والقديسين ، قبل كل الأشياء ، ليرسله لخلاص العالمين ، وقال على لسان داود : « قبل كوكب الصبح فى ضياء القديسين خلقتك » ·

تبارك اسم الله القدوس الذى خلق الملائكة ليعبدوه ، وتبـارك الله الذى خذل الشيطان وأتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له ·

واستمر عيسى فى موعظته ، واشتد على الشعب ، لأنهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لجشـعهم ، ووبخ الكتبـة الذين تركوا التعاليم الصحيحة ليعلموا الناس تعاليم باطلة زائفة ·

وأثرت موعظته فى النـــاس ، فجرت دموعهم على خدودهم ، وانهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة ، وأحسوا الله فى أنفسهم ، فقـــد كانت موعظتـــه قوية تمس أوتار القـلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتلئوا غيظا ، وتحركت بغضاؤهم ، نال منهم على ملأ من الحجاج ، ولكنهم كتموا ما فى قلوبهم خشية من ثورة الناس اذا مسوه بسوء ، وكان أعضــــاء الســـنهدرين حاضرين يسمعون ، فحقدوا عليه الا نيقوديموس ، كان لكلامه وقع فى نفسه جميل ·

كان نيقوديموس غنيا حكيما ، وثالث عضـــو فى السنهدرين ، أثرت فيه دعوة عيسى ، وأحس رغبة فى أن يصغى اليه ، ولما كان عالما كبيرا ، خشى أن يجلس الى جليلى فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة ·

تريث حتى اذا أقبل الليل خرج متســـترا بالظلام ، وجاء الى عيسى ، فالفـــاه يبشر بمـــلكوت الله ، فقـــد كان يبشر ، كما كان يحيى يبشر ويقـــول : « توبوا فقـــد اقترب ملكوت السموات » · كان عيسى بشــــيرا ، يدعو قومه الى التأهب لذلك اليوم الذى

يأتي فيه ملكوت الله ، الى اليوم الذى ينزل الله فيه الذكر ويحفظه بين الناس .

لم يكن عيسى صاحب رسالة جديدة ، فما جاء لينقض الشريعة الموسوية ، بل جاء يكملها ، وكان يتلقى وحى السماء فيحدث به قومه ، ولم يكتب منه حرفا ، فقد كان يهيىء بنى اسرائيل بذلك الوحى ليوم آت ينزل فيه الله دينه ، ويوحى فيه كتابه ، ويحفظه الى ان تزول الأرض والسماء ، ذلك هو ملكوت الله .

دنا نيقوديموس من عيسى ، وألقى اليه سمعه ، فراح عيسى يحاوره ، ويجاذبه أطراف الحديث ، فقال نيقوديموس :

ـ نعلم أنك أتيت من الله معلما .

فقال له عيسى ، وهو مقبل عليه :

ـ الحق الحق أقول لك ، ان كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر ان يرى ملكوت الله .

لم يفهم العالم الكبير ما يقوله عيسى ، فقال متعجبا :

ـ كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟

لم يفهم العضو الثالث فى السنهدرين انه يكفى للدخول فى اليهودية الولادة من الماء ؛ أن ينزل المرء من صلب يهودى ، أما الدخول فى ملكوت الله فلا بد له من ولادة جديدة ، من روح جديدة مؤمنة ينفخها الله فى المؤمنين ، فقال له عيسى :

ـ الحق الحق أقول لك ، ان كان لا يولد من الماء والروح ، لا يقدر أن يدخل فى ملكوت الله ، المولود من الجسد هو جسد ، والمولود من الروح هو روح ، لا تتعجب أنى قلت لك ينبغى ان تولدوا من فوق ، الريح تهب حيث تشاء ، وتسمع صوتها ، ولكنك

لا تعـلم من أين تأتى ، ولا الى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح ٠

لم يفهم الفريسى الكبير أن الله يملأ قلوب المؤمنين بروح قوية . روح مؤمنة جديدة غير الروح التى نفخها فيهم يوم خلقهم من ماء ٠ هذه الروح العلوية تجعلهم خلقا جديدا ، خلقا صالحا للدخول فى ملكوته ، فى دينه الذى سيبعثه هداية للعالمين . فقال نيقوديموس

ـ كيف يمكن أن يكون هذا ؟

فقال له عيسى فى دهش :

ـ أنت تعلم اسرائيل ولست تعلم هذا ؟ الحق الحق أقول لك . اننا انما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ، ولستم تقبلون شهادتنا . ان كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون ، فكيف تؤمنون ان قلت لكم السماويات ؟

قال له عيسى اننا ـ نحن الرسـل ـ نتكلم بمـا يوحى الينـا نحدثكم بمـا تحسونه فلا تصـدقوننا . افتصـدقوننا لو حدثناكم بالغيب الذى فى السماء ٠

أكان عيسى يحدثه بذلك الغيب ، ويقـول له سيأتى آخر مثلى يؤسس ملكوت الله ، وذلك الانسان لا يزال فى السماء حتى الآن يبعثه الله هداية ورحمة ؟ !

وقام نيقوديموس من عنده وهو مؤمن أن عيسى رسول الله . أرسله الى قومه بشيرا ، وانطلق وكلمات عيسى ترن فى أذنيـه . يزيد فى روعتها ذلك الغموض الذى يدثرها ٠

١٦

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

(قرآن كريم)

الفريسيون يرصدون فعاله بعين الشر . والناس يصغون اليه في اعجاب . ولا شيء بعد الاعجاب . كان أدرى الناس بالناس . انهم يلقون اليه السمع . وينفعلون بما يقول . ولكنهم لرؤسائهم الروحانيين ينقادون . فاذا اشتدت العداوة بينه وبين الفريسيين والكتبة وأعضاء السنهدرين . فسيخلون بينه وبينهم . ولن يفزعوا لنصرته أو يمدوه بالعون والتأييد . فرأى أن يغادر أورشليم معقل الكتبة والفريسيين المرائين . وأن يذهب الى الجليل يبشر الناس باقتراب ملكوت السموات . فاذا كثر تابعوه ومؤيدوه . جاء اليهم عزيز الجانب . يناوئهم في معقلهم . تظاهره قوة تعاونه على اظهار الحق المبين .

هبط من التلال العالية التي شيدت فوقها أورشليم . يحيط به بطرس واندراوس ويوحنا ويعقوب وفيلبس وصديقه برثولوماوس الاسرائيلي الذي لا غش فيه . وانطلقوا مع الطريق . فاذا انحنى في حدة انحنوا معه . واذا انساب في يسر انسابوا فيه . واذا صعد في جبل . راحوا يصعدون . وعند الآبار كانوا يحطون الرحال ويستريحون .

خرجوا من اليهودية ، ووقفوا على حدود السامرة ، وراد التلاميذ أن يدوروا حولها ، فما كان اليهود يدخلونها ، فهم يحتقرون السامريين ، ويضعونهم فى مصاف الوثنيين ، لأنهم يعتنقون مذهب غاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف الا بالاصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، اما المزامير وأما ما كتبه مردخاى فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى ، فكيف يكتب موسى ما وقع بعد موته ؟

كان اليهود يبغضونهم من سويداء قلوبهم ، ويجدون وزرا فى محادثتهم ، حتى اذا سقط ظل سامرى على واحد منهم ، أوجب ذلك التطهير من النجس الذى حل به ، وقالوا : « ان قطعة الخبز التى تاكلها مع سامرى ، هى قطعة من لحم الخنزير » .

لم يلتفت عيسى لتلك الأوهام ، فراح يخترق السامرة ، حتى اذا بلغ منه التعب ذهب الى شكيم « نابلس » .

كانت الشمس فى كبد السماء ، ترسل أشعتها الحامية ، فيتفصد العرق من الوجوه ، ونظر عيسى حوله يبحث عن مكان يستريح فيه ، فالفى بئر يعقوب ، تظللها أشجار التين ، فانطلق اليها وجلس على حافتها يستروح النسمات التى كانت تهب بين الحين والحين .

بقى عيسى فى ذلك المكان وحده ، ذهب تلاميذه الى المدينة يشترون طعاما ، ونام الكون فى تلك القيلولة ، وهدات الطبيعة ، ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة ، وقد شيد على الجبل لينافس أورشليم ، ففى ذلك المكان ، كما جاء فى سفر التكوين ، فى ديار « شكيم » سجد ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب لله رب العالمين .

انها بقعة مباركة ، جاء اليها يعقوب ونصب فيها خيمة ، وأقام

مذبحا دعاه ايل اله اسرائيل ، وجاء اليهـــا ابراهيم واسماعيـل واسحاق · انهـا بقعة عاطرة بالذكريات النبوية ، توحى بالتـأمل والتفكير ·

ومد عيسى بصره الى الولدى الأخضر ، والى الأشجار الشامخة ، والى سنابل القمح المتماوجة فى ضـوء الشمس كنهـر من التبر ، فاحس راحة لذيذة بعد التعب المضنى الشديد ·

وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها ، فقال لها عيسى :

ـ أعطينى لأشرب ·

عجبت السامرية لذلك الطلب ، وترجمت عن عجبها بقولها :

ـ كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ؟·

فقال لها فى هدوء :

ـ لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب ، لطلبت أنت منه ، فأعطاك ماء حيا ·

فنظرت المرأة الى البئر العميقة ، وقالت له فى استخفاف :

ـ يا سيد ، لا دلو لك ، والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحى ؟ ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر ، وشرب منها ، هو وبنوه ومواشيه ؟

فأراد عيسى أن يرفعهـا من الماديات الى المعنويات ، أن يرفع هذه السامرية الفقيرة ، كما رفع نيقوديموس معلم بنى اسرائيل ، وثالث أعضاء السنهدرين ، فقال لها :

ـ كل من يشرب من هذا الماء يعطش · ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا ، فلن يعطش الى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ، ينبع الى حياة أبدية ·

أحست المرأة أنها فى حضرة حكيم ، فقالت وقد اختفت نبرات الاستخفاف من صوتها :

ـ أعطنى هذا الماء لكيلا أعطش ، ولا آتى هنا لأستقى .

ـ اذهبى ، وادعى زوجك ، وتعالى ههنا .

ـ ليس لى زوج .

فنظر اليها عيسى قليلا ثم قال :

ـ حسنا قلت ليس لى زوج ، لأنه كان لك خمسة أزواج ، والذى لك الآن ليس هو زوجك .

أطرقت المرأة قليلا ، فقد كشف عيسى عن سر حياتها الخليعة . كانت تبيع نفسها ، فغمغمت :

ـ أنت نبى .

انها فى حضرته تحس خزيا ، ورفعت رأسها فوقع بصرها على المعبد الذي اقامه السامريون لمنافسة أورشليم ، فخطر لها أن تحول الحديث الى تلك الناحية ، فأشارت الى الجبل وقالت :

ـ آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل ، وأنتم تقولون ان فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

نطقت المرأة المدنسة صدقا ، فهنا سجد ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، أما أورشليم فقد فتحها داود ، ثم بنى ولده سليمان فيها هيكله . هذه البقعة أكثر قدسية من الهيكل ، فلماذا لا يحج اليها الناس ؟ أيحدثها عيسى عن أسرار رسالته كما حدث نيقوديموس ؟

حدثها عيسى عن ملكوت الله ، عن دين الله القيم الذى سيختار العالمين ، فاذا جاء ذلك الدين فلن يسجد الناس فى أورشليم او شكيم ، فلله المشرق والمغرب ، فأينما يول الناس وجوههم فثم وجه الله ، راح يقول لها :

ـ يا امرأة صدقينى ، انه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى

أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم .

وسواء أصدقته المرأة أم لم تصدقه ، فقد صدقه الزمان ، جاء ملكوت الله : الدين القيم الذى جعل الأرض كلها مسجدا .

قالت له المرأة وقد تأثرت بما قال :

ـ أعلم أن المسيح يأتى ، فاذا جاء أخبرنا بكل شىء .

فقال لها عيسى :

ـ أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير ، الربى الصادق ، يخالف ما يقول به الربيون ، فقد كان محرما أن يتكلم الربى علانية مع امرأة ، حتى ولو كانت زوجته ، ولاح الدهش فى وجوههم ، فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يحدث سامرية فاجرة .

ذهبوا اليه وقد كتموا دهشتهم ، وفرت المرأة مخلفة جرتها ، وانطلقت الى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها من أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له :

ـ كل .

ـ أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت التلاميذ بعضهم الى بعض وقالوا :

ـ لعل أحدا أتاه بشىء يأكله .

ـ طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى ، وأتمم عمله .

★ ★ ★

وجاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدفقون ، وغص بهم المكان ، فراح يبشرهم باقتراب ملكوت السموات ، فتفتحت قلوبهم له ، ودعوه أن ينزل عندهم يومين .

فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وفيليبس ، وبرثولوماوس ، الاسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آبهين لذلك المثل الذى يقول : « ان قطعة الخبز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

١٧

« يا بنى اسرائيل ، اعبـدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنـة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » .

(قرآن كريم)

بدا بحر جنيسارت الأزرق الهادىء كصـقال مرآة ، ولاحت العيون شمسان . شمس فى السـماء وشمس فى الماء . وامتـدت حقول القمح وحدائق الفاكهة ، وكسيت الأرض حلة خضراء ؟ وزها الوادى بالألوان . فقد كان مرتعا للجمال .

• وعلى هذا البحر الصـافى الرقراق يقع كفـر ناحوم ، وهى مدينة لصيد الأسماك ، ومرفأ لتصدير فائض الجليـل من القمـح والزيت والصوف والفواكه ، فالمراكب تحمل البضائع ، ثم تبحر الى الشـاطىء الآخر ، حيث ولاية فيليبس ، ابن هيرودس حاكم الربع من قبل الرومان .

كان الرجال فى غدو ورواح ، الحمالون يحملون سلال الفواكه وأكياس القمح ، وينقلونها من الشـاطىء الى المراكب ، والبحارة فى ألوانهم النحاسية ، يتسامرون ، وتجلجل فى الفضاء ضحكاتهم الفضية ، والنساء ينشرن الشباك على أشجار التين العـارية من أوراقها لتجفيفها ، وتجار السـمك يجففونه ويرصونه على سعف النخل ، وما كانوا يأكلونه مكتفين بالتين والبلح ، فما كان التجار يأكلون رءوس أموالهم .

وراح محصلو الضرائب يمارسون أعمالهم . يزنون كل ما يخرج الى المراكب ويقدرون عليـــه الرســوم . ما كانوا تابعين لسلطة واحدة ، بل كانوا فريقين ، فريقاً يجمع الضرائب للرومان ، وفريقاً يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أبهته ونزواته وشهواته .

وكان اليهود يمقتون هؤلاء الجباة من أعماقهم . لطبيعتهم التي تبغض الانفـاق ، ولأن هؤلاء الجبـــاة يذكرونهم على الدوام ان سلطان الدين ذهب ، وأنهم أصبحوا رعايا لدولة وثنية ، لم تكن في يوم من الأيام شعب الله المختار .

كانوا يكرهون الجبـــاة وينفـــرون منهم ، ولا يحادثونهم ، ويعتبرونهم عشـــارين خطـاة ، وكان يزداد ذلك المقت ، اذا كان الجابي يهوديا ممن باع نفسه للرومان .

كانت كفر ناحوم مدينة فقيرة مزدحمة بالفقراء . لم يكن فيها مجمع يجتمع يوم السبت فيه الصـيادون والحمالون والأجراء ، يصغون فيه الى التوراة ، ويقيمون فيه شعائر الصلاة . ومال قائد روماني الى اليهودية فبنى فوق هضبة تطل على البحيرة معبدا له ،

بقي المجمع وما كانت الصلاة فيه ميسورة للكادحين الفقراء ، فما كان كاهن المعبد الأكبر يعظ الناس لوجه الله ، انه يريد الهدايا والأموال ، فكان يفرض عليهم النذور والقرابين فما كانت الحقيقة سفرت عن وجهها ، فمن الذى يعلمهم أن الله لا ينال لحومهـا ولا دماءها ولكن يناله التقـوى من الناس ؟ حتى الكهنـــة واللاويين يجمعون لأنفسهم العشور من الوافدين على بيت الله .

كان الناس فى كفر ناحوم يتحدثون فى ايمان عن عيسى الذى نزل مدينتهم . انه أبرأ ابن نبيـل من البلاط من مرضـــه ، دون أن ينتقل من موضعه ، ان الرجل جاء اليه ضارعا أن يشفى ابنه ،

فاخبره أن ايمانه برأه من علته . فلما عاد النبيل الى بيته الفى ابنه الذى تركه مسجى فى فراشه ، بارحا يغدو ويروح هنا وهناك .

راح كل واحد يعلق على هذه المعجزة ويحاول أن يجد لهـا شبيها فى التوراة . فقال بعضهم انه ايليا قد قام ، فايليا شفى المرضى من اسقامهم . وقال بعضهم انه النبى الذى بشرت بمقدمه البشارات ، وقد أيده الله بالمعجزات ، ليصدقه الناس ويؤمنوا بما جاء به من عند الله .

وجاء عيسى الى المرفأ ، فلما رآه الصـيادون والحمـالون والاجراء فتنوا به . فتركوا ما فى أيديهم وذهبوا اليـه . فنفوسهم صادئة الى نهـر الكلام العذب ، النابع من قلب ملأه الله علمـا وحكمة ، والتفوا حوله ، فارتقى حجرا . وراح يحدثهم بما أوحى الله اليه .

وتقاطر الناس ، وازدحم المرفأ بهم وهو يحدثهم حديثا ياسر افئدتهم ، كان حديثه لا يخرج عما جاء فى التوراة ، ولكنـه كان حديثا مجلوا أخاذا . فقد أزال عنها جمود السنين . رمقوه فى اعجاب ، ونطقت وجوههم بالفرح النازل بالصدور وبدوا كأنمـا اريقت فيهم نشوة ، وزاد فى اعجابهم أنه كان يذكرهم بيحيى ، انه يبشرهم بقـرب الخلاص كما بشرهم ابن زكريا قبل أن يقبض عليـه هيرودس أنتيباس . فهو يصـيح بهم مثـله : « توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات » .

تعطل العمل فى المرفأ ، فقطار الحمـير المحملة بانتاج وداى يزرعيل ، لا يجد من ينقل الفواكه والحبوب الى المراكب . وتلفت أصحاب الأموال ، فلم يجدوا الحمالين والأجراء ، فتملكهم الغضب . وذهبوا الى حيث اجتمع الناس .

ألفوا الصيادين والحمـالين والأجراء يصـغون الى عيسى

كالمأخوذين الذين لا يحسون ما حولهم ، حتى الجباة العشارون القوا اليه سمعهم ، فاشتعلت ثورتهم ، وصاحوا به : ان الوعظ ليس فى المرفأ بل هناك فى المجمع ، وانه يفسد الأجراء ، ويعطلهم عن أعمالهم : وما صكت أصوات أصحاب الأعمال آذان الحمالين والأجراء حتى هبطوا من السموات التى حلقوا فيها لحظات ، وانصرفوا الى عملهم وهم يغمغمون : ان الأغنياء يكرهون عيسى لأنه يعطف عليهم ويواسى فقرهم ·

وانصرف الجميع الا اثنين ، أحدهما كاتب يعرف التوراة ويعلم الناس فى المجامع ، والآخر محصل ضرائب يهودى باع نفسه للرومان ، كرهه اليهود وقاطعوه ، واذا تحدثوا عنه قالوا فى زراية : متى العشار ·

ووقف متى مذهولا عما حوله ، فهو مشغول بالاحساسات الجديدة المتفجرة فى جوفه ، ان نورا ينبعث من أغواره ، فينير كل شىء أمام بصيرته ، وان صوتا فى نفسه يوحى اليه أن آمن بذلك الرسول ، الذى رفعك وقربك من السماء ·

وتقدم الكاتب الى عيسى عارضا عليه نفسه ، قال :

ـ اتبعك أينما تمضى ·

وفى نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذى فيه غرور الكتبة ، فلم يفرح به ، ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :

ـ للثعالب أوجرة ، ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الانسان فلا يدرى أين يضع رأسه ·

انه فى كفر ناحوم يمضى ليله فى بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث فى مكان واحد طويلا ، انه فى رحلة دائمة ، يوم فى أورشليم ، ويوم فى كفر ناحوم ، ويوم فى الناصرة ، ويوم فى غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك الكاتب بقادر

على أن يعيش هذه الحياة ، أو يحتمل ذلك التقشف الذى لا يحتمله الا رجل عميق الايمان ·

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متى يتطلع اليه وفى عينيه صفاء ، كانتا كمرآة صادقة تعكس طهارة النفس ، وفى لمحة فحص عيسى عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذى فى ثياب عشار انشرح صدره للايمان : أوحى الله اليه أن آمن بى وبرسولى ، فأشار له وقال :

ــ اتبعنى ·

وسار عيسى ومتى يتبعه ، لم يعد محصل ضرائب للرومان بل صار محصل علم وحكمة . وما انطلقا قليلا حتى جاء تلميذ من تلاميذ المسيح وقال له :

ــ يا سيد ، ايذن لى أن أمضى أولا وأدفن أمى ·

فقال له عيسى فى هدوء :

ــ اتبعنى ودع الموتى يدفنون موتاهم ·

وذاع فى كفر ناحوم أن عيسى فى المرفأ ، فجاء الناس والمرضى من كل فج ، يتضرعون اليه أن يبرئهم من أسقامهم ، وراحوا يتسابقون اليه ليسمعهم أو يمسوا طرف ردائه · وازداد الزحام فأشار الى سمعان أن يأتى بسفينة ، وصعد اليها ، وابتعدت السفينة عن الشاطىء قليلا ، وأخذ عيسى يعظ منها الناس ·

وجاء الليل ، وبعث القمر ضوءه ، فانعكست أضواء القمر والنجوم على صفحة الماء ، وظهرت صور المراكب كأنما تنعكس على مرآة متموجة ، والجماهير شاخصة اليه ، وقد أرهفوا السمع ، ثم راحوا ينصرفون ، وقد برأ الأكمه والأبرص ، وبرأت نفوس من أسقامها ·

والتف التلاميذ حوله ، ولما كان قد أرسل ليدعو الناس الى

الانجيل (١) ، الى البشارة بملكوت الله ، الى كتاب الله الذى سيبقى بين الناس الى انقضاء العالم ، فقد التفت اليهم وقال لهم :

ـ فلنذهب الى مكان آخر من المدن القريبة منا لأكرز (أعظ) هناك أيضا ، لأنى لهذا العمل خرجت ٠

وخرج عيسى وتلاميذه الى المدن المنتشرة حول كفر ناحوم ليبشر الناس ويقول لهم : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء » ٠

---

(١) معنى انجيل : بشارة بالسعادة الحقيقية ٠

١٨

« يايها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصارى الى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » .

(قرآن كريم)

فى الفجر قبل أن يذهب الليل ويأتى النهار ، وهن القمر وراح يمحى أمام طلائع الشمس التى انتشرت فى الأفق الشرقى كمروحة هائلة ، اطرافها من فضة ، وقاعدتها من ذهب نضار ، وهجرت الطيور أوكارها تغرد مستقبلة النهار بتسبيحة الصباح ، وعلى الجبل المطل على كفر ناحوم ، كان عيسى يصلى لله ، انفرد وحده يدعو ربه فى خشوع ، ويتلقى وحى السماء .

كان نسيم الفجر رخاء ينعشه ، وابتهاله الى الله يشرح صدره . والمشاهد الرائعة تسكب فى روحه حكمة : هذه الزنابق وهذه الأزهار . وحقول القمح التى تكسو وادى يزرعيل ، وبساتين الفواكه المنتشرة كالجنان ، وجمال بحيرة جنيسارت ، وماؤها الأزرق الذى يبدو فى صفاء البلور تحرك مشاعره ، انه يراها بعين الشاعر والفنان ، وبعين الحكيم ذى البصيرة النافذة ، وبعين الرسول الذى كشف الكون له عن أسراره ، فتختزن نفسه كل هذه الروائع ، وتتحول فيها الى مثال يضربها للناس .

وظل عيسى فى صلاته ، فشغل بالطمأنينة المنداحة فى جوفه عما

حوله . كانت روحه تهيم لتتصل بالسماء ، ومس أذنيه أصوات ، فانتبه الى نفسه ، ونظر فالفى تلاميذه يزحفون نحوه ، فقام وأقبل عليهم ، وتحت شجرة من أشجار السرو جلسوا يحدثهم ويفقههم فى أمر دينهم .

كان تلاميذه كثيرين ، يمارسون أعمالهم ، ثم يأتون اليه يلقون اليه أسماعهم ، ولكنه كان يريد أصفياء لا يفارقونه فى الحل والترحال ، أناسا يهجرون الدنيا ومتاعها ، ويهبون أنفسهم لله . فراح يختار من بين التلاميذ حوارييه ، فاختار اثنى عشر رجلا ليلازموه . لا يفارقونه فى الليل أو فى النهار .

وارتفعت الشمس ، وعيسى وتلاميذه تحت الشجرة ، يعلمهم وهم يسمعون ، راح يقول لهم :

ـ أيها الاخوة (١) ، ان سبق الاصطفاء لسر عظيم ، حتى انى أقول لكم الحق لا يعلمه جليا الا انسان واحد ، هو الذى تتطلع اليه الأمم ، الذى تتجلى له أسرار الله تجليا ، فطوبى للذين سيصيخون السمع الى كلامه متى جاء الى العالم ، لان الله سيظللهم كما تظللنا هذه الشجرة ، بلى انه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا ، تقى رحمته المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان .

ومتى جاء الى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر ، بالرحمة الغزيرة التى يأتى بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطى ثمرا بعد انقطاع المطر زمنا طويلا ، فهو غمامة بيضاء ملأى بالرحمة ، وهى رحمة ينشرها الله رذاذا على المؤمنين كالغيث .

انى أشرح لكم الآن ذلك النذر القليل الذى وهب الله لى معرفته ، بشأن هذا الاصطفاء نفسه . يزعم الفريسيون أن كل

---

(١) هذا الحديث من انجيل برنابا .

شيء قدر على طريقة . لا يمكن معها لمن كان مختـارا أن يصـير منبوذا ، ومن كان منبوذا لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختارا • وانه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذى يسـير فيه المختـارون الى الخلاص ، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هى الطريق الذى يسير فيه المنبوذون الى الهلاك •

لعن اللسان الذى نطق بهذا ، واليد التى سطرته لأن هذا انما هو اعتقاد الشيطان ، فيمكن المرء على هذا أن يعرف شاكلة فريسيي هذا العصر ، لأنهم خدمة الشيطان الأمناء •

فماذا يمكن أن يكون معنى سـبق الاصطفاء سـوى انه ارادة مطلقة . تجعل للشيء غاية ، وسيلة الوصول اليها فى بدء المرء ، فانه بدون وسيلة لا يمكن أحدا تعيين غاية • فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقـط ، بل يعوزه موطيء القدم من الأرض ، لا أحد البتة • فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى • اذا استلزم سلب حرية الارادة التى وهبها الله لانسان بمحض جوده ، فمـن المؤكد أننـا نكون اذ ذاك آخذين فى اثبات مكره لا سبق اصطفائه •

أما كون الانسان حرا ، فواضح من كتـاب موسى ، لأن الهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء قال هكذا : « ليست وصيتى فى السماء لكى تتخذ لك عذرا قائلا : من يذهب ليحضر لنا وصية الله ؟ ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها ، ولا هى وراء البحر لكى تعد نفسك كما تقدم ، بل وصيتى قريبة من قلبك ، حتى انك تحفظها متى شئت » •

قولوا لى : لو أمر هيرودس شيخا أن يعود يافعا ، ومريضا أن يعود صحيحا ، ثم اذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما ، أفيكون هذا عدلا ؟

أجاب التلاميذ :

– لو امر هيرودس بهذا لكان أعظم ظالم وكافر .

حينئذ تنهد المسيح وقال :

– أيها الاخوة . ما هذه الا ثمار التقاليد البشرية ، لأنه بقولهم ان الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها ان يصير مختارا يجدفون على الله ، كأنه طاغ وظالم ، لأنه يامر الخاطىء أن لا يخطىء ، واذا اخطأ أن يتوب ، على أن هذا القدر ينزع عن الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة ، فيسلبه التوبة بالمرة .

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبى : « لعمرى يقول الهكم : لا أريد موت الخاطىء ، بل أود أن يتحول الى التوبة » أيقدر الله اذا ما لا يريده ؟

تأملوا ما يقول الله ، وما يقول فريسيو الزمن الحاضر .

يقول الله أيضا على لسان أشعيا النبى : « دعوت فلم تصغوا الى » ، وما أكثر ما دعا الله .

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبى نفسه : « بسطت يدى طول النهار الى شعب لا يصدقنى ، بل يناقضنى » .

فاذا قال فريسيونا : ان المنبوذ لا يقدر أن يصير مختارا ، فهل يقول سوى أن الله يستهزىء بالبشر : كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئا أبيض ، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه فى أذنيه ؟

أما كون المختار يمكن ان ينبذ ، فتأملوا ما يقول الهنا على لسان حزقيل النبى : « يقول الله لعمرى اذا رجع البار عن بره ، وارتكب الفواحش ، فانه يهلك ، ولا أذكر فيما بعد شيئا من بره ، فان بره سيخذله أمامى ، فلا ينجيه وهو متكل عليه » .

أما نداء المنبوذين ، فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا : « انى أدعو شعبا غير مختار ، فادعوهم مختارين » .

ان الله صادق لا يكذب ، ولما كان الله هو الحق ، فهو يقـول الحق ، ولكن فريسيى الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضـة بتعليمهم ·

وجاء الصيادون والأجراء والكتبة ورجال الدين فى عباءاتهم الواسعة وعمائمهم السود ، واقبل أناس من نواحى غير كفر ناحوم . وكان بين الحاضرين رجال من أورشليم وانتشرت الجمـوع على سفح الجبل ، فقام عيسى فى ردائه الأبيض · وفى قدميـه نعلاه ، وراح يعظ الجماهير في صوته الذى كان له فى آذانهم وقع السحر ، فاشرأبت الأعناق ، وجعل الناس يرشفون ما ينطق به فى لذة ونشوة ، راح يقول :

« طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء ، لأنهم يرثون الارض ، طوبى للجياع والعطـاش للبر ، لأنهم يشـــبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى لأتقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات ·

« طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم ، وقيل عليكم كل كلمة شريرة من اجلى كاذبين · افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم ·

« أنتم ملح الأرض ، ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح ، لا يصلح بعد لشيء ، الا لأن يطرح خارجا ويداس من الناس ·

« أنتم نور العالم ، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال ، بل على المنارة · فيضيء لجميـع الذين فى البيت ، فليضيء نوركم هكذا قدام النـاس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذى فى السموات » ·

اخذ الناس يهزون رءوسهم اعجابا ، وظل الكتبة ورجال الدين صامتين . كانوا يشعرون بالحسد ، ولكنهم لم يكشفوا عن الغيرة التى تاكل صدورهم . ماذا يقولون وهو يدعو الناس بالموعظة الحسنة . ويحدثهم عن الله الواحد . لم يشرك به شيئا ، فلو أنه اشرك مع الله الها آخر ، لرجموه تنفيذا لشريعة موسى . وزاد فى صمتهم انه اعلن على الملأ أنه ما جاء لينقض تلك الشريعة . بل جاء يؤيدها ويثبتها ، قال :

« لا تظنوا انى جئت لانقض الناموس او الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل ، فانى الحق أقول لكم ، الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى ، وعلم الناس هكذا ، يدعى أصغر فى ملكوت السماء . وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات . فانى اقول لكم أنكم ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين ، فلن تدخلوا ملكوت السموات .

كانوا جميعا من بنى اسرائيل ، يعبدون الله وحده ، فلما وجدوه يعلن أنه ما جاء بشريعة جديدة تنقض شريعتهم ، بل جاء يكملها . صاحوا فرحا وسرورا ، اما الكتبة والفريسيون فقد أحنقهم تعريضه بهم ، ولكن لم ينبسوا بكلمة ، خشية من الجماهير المنتشية بخمر موعظته .

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن يقتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم : ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم .

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فاقول لكم : ان كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها ، والقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد

أعضائك ، ولا يلقى جســدك كله فى جهنم · وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها ، والقها عنك ، لانه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم ·

« وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما انا فاقول لكم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنا ، يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى » ·

فارتفعت أصــوات الكتبــة ورجال الدين بالاعتراض ، وراحوا يصيحون :

ــ ان هذا يناقض شريعة موسى ·

ــ هذا الذى يقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ، قد بدل الناموس قبل أن يزول هو من موضعه ·

ــ لم يقل بهذا نبى ولا رسول ·

وارتفعت صيحات التأييد ، وانقضى وقت طويل قبــل أن تهــدأ العاصفة ، ليستأنف موعظته ويقول :

« سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث ، بل أوف لربك أقسامك ، وأما انا فاقول لكم لا تحلفوا ألبتة ، لا بالســماء لأنهــا كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ·

« سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بســن ، وأما انا فاقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضــا ، ومن سخرك ميلا واحدا ، فاذهب معه اثنين ، أو من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده ·

وصاح أحد الفريسيين :

ــ ان هذا ما جاء يكمل الناموس ، بل جاء يعارضه ·

وماج الناس ، وارتفعت الاصـوات وتشـابكت الجمـوع فى مناقشات ، وتصرم وقت طويل قبل أن يعـود السكون ، ويسـتانف موعظته .

« لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدا ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا صدا ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا .

« سراج الجسد هو العين ، فان كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرا ، وان كانت عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلما . فان كان النور الذى فيك ظلاما ، فالظلام كم يكون !

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك اقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تاكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون ، اليست الحياة أفضـل من الطعـام ، والجسد أفضل من اللباس . انظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها ، ألستم أنتم بالحرى أفضل منهـا ؟ ومن منكم اذا اهتم يقـدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة . ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم : انه ولا سليمان فى مجده كان يلبس كواحدة منها ، فان كان عشب الحقـل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسـه الله هكذا ، أفليس بالحرى جدا يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل او ماذا نشرب أو ماذا نلبس ؟ فان هذه كلهـا تطلبها الأمم (١) ، لأن أباكم

---

(١) كان بنو اسرائيل يطلقـون على الشعوب الأخرى « الامم » للتحقير كما كان العرب يطلقون عليهم « العجم » .

السماوى (١) يعلم أنكم تحتاجون الى هذه كلها ، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم ، فلا تهتموا للغد يهتم بما لنفسه . ويكفى اليوم شره .

واستمر فى موعظته حتى اذا أتمها ، هرع الكتبة والكهنة اليه يناقشونه فيما قال ، وأسرعت الجموع اليه تلمس طرف ردائه ، وازداد ضغط الناس عليه ، فذهب سمعان اليه يلتمس منه أن يستريح ، وجاء تلاميذه يكفكفون الجماهير عنه ، ولكن هيهات كانوا يتدافعون ليبلغوه ، حتى الأطفال جاءوا يلتمسون بركته .

(١) يلاحظ أنه يطلق على الله « أباكم » بمعنى « ربكم » وعلى ذلك فلفظة « أبى » بمعنى « ربى » .

١٩

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر . فسيحشرهم اليه جميعا » .

(قرآن كريم)

هبط عيسى من الجبل ، وانطلق وحده بعيدا عن ضوضاء الناس ، فقد تركوه يلتقط أنفاسه ، وتفرقت الجموع ، ومواعظه تتردد فى نفوسهم ، يقلبونها ويفكرون فيها ويمعنون فى التفكير . قال لهم : اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم ، فماذا خلف هذه الأقوال ؟ أيقول لهم : اسألوا الله التوبة والمغفرة فيعطيكم توبته ، واطلبوا ما عنده يمنحكم بركته ، واقرعوا بحسناتكم أبواب الآخرة فيفتح لكم جناته ، أيعلمهم بهذه الأقوال أن هذا أول الايمان : أن يعتمدوا على الله ، وأن يسألوه وحده ، وأن يطرقوا أبوابه ؟ أيهدف الى أن يغرس فيهم أن يكون الله الملاذ الأوحد ، وألا يتخذوا من دون الله أربابا ؟ ماذا خلف هذه الأمثال ، أيعلمهم أن هناك حياة غير هذه الحياة تبدأ بعد الموت ! وأن هذه الدنيا ممر . فعليهم أن يأخذوا من ممرهم لمقرهم لعلهم يفلحون ؟ لا تزال موعظته تتردد فى آذانهم ، لكأنما الكون كله يهمس بها : « ادخلوا من الباب الضيق ، فما أوسع الطريق المؤدى الى الهلاك وأرحبه ، وما أكثر الداخلين منه ، وما أضيق الباب وأكرب الطريق المؤدى الى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه » .

ذهبـوا الى دورهم . ففى رءوسهم ما يفكرون فيـه ، اما هو فذهب ليستريح بعـد ذلك الجهد المضـنى الشـاق ، ولكن أنى له الراحة . فهذا أبرص يعترض طريقه ، ويجثو على ركبته ، ويتضرع اليه فى حرارة أن يشفيه ، فتتحرك عوامل الشفقة فى نفسه ، فيمد اليـه يده ، ويلمسـه فيذهب عنـه برصه باذن الله ، ان الله يؤيده بالمعجزات ليثبت رسالته ، كما أيد الرسل قبله بالمعجزات .

نظر الأبرص الى نفسه ، فاذا هو قد ذهب عنه السوء ، فامتلأ فرحا ، وأسرع يعلن المعجزة ، وينفذ ما اصطلح عليه اليهود عنـد اعلان التطهير من البرص . فقد كانوا يعتبرونه نجاسة ، لا يتطهر منها الأبرص ، وان برأ ، الا بطقوس ورسوم .

كان الكاهن يأتيه خارج المحلة ، ويذبح عصفورا على ماء حى فى وعاء من خزف ، ويأخذ خشب أرز وقرمزا وعصفورا حيـا ، ويغمسها فى الدم ، ويرش المتطهر من البرص سبع مرات ، ثم يطلق العصفور الحى ، ويعـلن طهـارة الأبرص ، فيغتسـل ويحلق كل شعره ، ويقيم سبعة أيام خارج داره ، وفى اليـوم السـابع يأتى بخروفين ، ويذبحهما ، أحدهما ذبيحة اثم ، والآخر ذبيحة خطيئة ، ويقـدم نعجة للمحرقة ، ويأتى بدقيق وزيت فيأخذ الكاهن من دم ذبيحة الاثم والزيت ويدهن شحمة أذن المتطهر اليمنى وابهام يده ، وابهام رجله اليمنى ، ويصب الزيت على رأسه ، ويعلن طهارته ، طقوس كتبوها ما انزل الله بها من سلطان .

ودخل عيسى كفر ناحوم والحواريون معـه ، وما استقر بهـا حتى جاء اليه قائد مائة ، وفى عينيه رجاء ، انه القائد الذى بنى لكفر ناحوم مجمعها ، جاء اليه يلتمس منه أن يشفى عبدا له ، غلاما يحبه تركه يتعذب من آلام المرض ، قال القائد :

– جئت ألتمس منك أن تشفى فتــاى الذى غادرته وهو يقاسى نوبة صرع قاسية ٠

فقال له عيسى :

– أنا آتى لأشفيه ٠

تضايق اليهــود الذين سمعوا ذلك ، كانوا يخشــون أن يشفى عيسى ذلك الغلام ، فيؤمن به قائد المائة ، انهم لا يريدون أن يدخل أحد فى دينهم ، ولا يتمذون هــداية الأمم ، فهم يتصـــفون بأنانية دينية ، فلو اهتدى غير بنى اسرائيل لدخلوا الجنة مع الوارثين ، مع ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وما كان اليهــود يرحبون بذلك ، فهم يرون الجنة لهم خالصة ، حتى اسماعيل بن ابراهيم لا يرحبون به فيها ، ولولا أن قال الله لأبيه سيباركه ويجعله أمة عظيمة لطردوه من السماء !

كان الدخول الى بيت وثنى خطيئة ، فقال القائد :

– يا سيد ، لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى ٠

وصمت الرجل قليلا ثم قال :

– لى جند تحت يدى ، أقول لهذا اذهب فيذهب ، ولآخر ايت فيأتى ، ولعبدى افعل هذا فيفعل ٠ قل كلمة فقط فيبرأ غلامى ٠

عجب عيسى لهذا الايمان ، فالتفت الى من عنده وقال :

– الحق أقول لكم لم أجد ولا فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم أن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ، ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب في ملكوت السموات ٠

فالجنة ليست وقفا على شعب دون شعب ، فالوارثون هم عباد الله المؤمنون ، سواء أكانوا من الأمم أم من الشعب المختار ٠

وقال لقائد المائة :

– اذهب وكما آمنت ليكن لك ٠

وجاء المساء ، ووضع الطعام ، وقبل ان يمدوا اليـه يدا راح عيسى والحواريون يصلون لله :

أبانا (١) الذى فى السموات .

ليتقدس اسمك .

ليأت ملكوتك .

لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .

خبزنا كفافنا ، اعطنا اليوم .

اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا .

ولا تدخلنا فى تجربة .

ولكن نجنا من الشرير .

لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد .

آمين .

كان أمينا فى تبليغ رسـالته ، لم يدع مع الله الهـا آخر فى صلاته ، وكان رسولا كالرسل الذين أرسـلهم الله الى النـاس . ليدعوهم الى الصراط المستقيم ، ولو كان يعلم أن مع الله الها آخر ، لصلى له مع الله ، ولكنه ككل الرسل كان يصلى لله الأحد الصمد ، ولا يستنكف أن يكون عبدا لله داعيا لوحدانيته ، وعظ الناس فوق الجبل قائلا :

« لا يقـدر أحد أن يخدم سـيدين ، لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر » .

كان يعلم هدف رسالته ، فما أرسل لينقض شريعة موسى ويقيم شريعة أخرى ، بل أرسل بشيرا باقتراب ملكوت السموات ، فراح

---

(١) آب بمعنى الله واستعملها عيسى بمعنى رب .

يردد فى صلاته : « فليــأت ملكوتك » وراح أتبــاعه يرددونها مع الأيام ·

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات وأجيالا ، « فليأت ملكوتك » هى الانجيل الذى جاء به الى الأتباع والأنصار ، فراح المؤمنون يترقبون ذلك اليوم العظيم ، اليوم الذى يأتى فيه ملكوت بانيه الله ، وشارعه الله ، وشريعته كلام الله ·

٢٠

« ويبرىء الأكمه والأبرص واحيى الموتى باذن الله » .
(قرآن كريم)

كان يحيى يعيش فى الصحراء الواسعة ، طليقا كالطير ، يستقبل الشروق منشرح الصدر ، يملأ رئتيه بالنسيم الطلق ، ويودع النهار راضى النفس ، فالشروق والغروب ، واصفرار الشمس كالنضار ، واحمرارها كالدم ، آيات تدعم فى قلبه الايمان ، وتقربه من خالق الكون .

كانت روحه تهفو الى النجوم ، فهى انيسته فى سكون الليل ، وهى شريكته فى تسبيح الله . وكان ضوء القمر المنعكس على مياه البحر الميت يملأ قلبه نورا ، وهيام الوحوش والغزلان فى القفار ، وتحليق الطيور فى السماء توحى اليه قناعة ورضا . انها تجد رزقها فى دنيا الله كما يجد رزقه فى عسل النحل والجراد .

كان يدعو الى التوبة والى تطهير النفوس من الاثم ، لاستقبال ملكوت الله . فاجتمع الناس اليه مؤمنين به ، فحقد الفريسيون عليه ، وما كانوا يملكون الا الحقد وبعض نصوص ميتة من الشريعة حفظوها عن ظهر قلب ، فرفعوا الى هيرودس انتيباس انه يدعو الناس الى الثورة وقلب نظام الحكم .

والقى يحيى فى حصن ماكيروس الرابض فى الصحراء ، فغابت عن عينيه السماء الصافية الزرقاء ، والطبيعة الطلقة الموحية : شروق الشمس وغروبها ، وحرارتها التى كانت تبعث فى جسمه الناحل الحياة ، والنجوم المتلألئة الهامسة بالأسرار ،

والقمر الهاتف بسنة الحياة : محاق فهلال فبدر ثم محاق ·

رطوبة السجن تسرى فى بدنه ، ورائحة الحياة البركانية تملأ صدره ، وتكتم أنفاسه ، والظلمة كانت كسحابة دكناء رانت على بصره ، وسلاسل ثقيلة فى قدميه ، ويديه ، عيشة بغيضة لربيب الحرية ، عيشة أهون منها على نفسه الموت ·

كان السجن بغيضا اليه ، ولكن نفسه لم يعتورها وهن ، لم يضعف أمام جبروت هيرودس ، بل ظل يصرخ ان هيروديا لا تحل له ، فغير عليه قلب المرأة المغامرة الطامعة فى أبهة الحكم ، فراحت كالأفعى تنفث سمومها ، وتوسوس لهيرودس أن يقتله ، فى الليل وفى النهار ، ولكن هيرودس كان يصم أذنيه عن فحيح الأفعى ، فهو متطير يخشى ان قتله ـ وهو نبى ـ أن ينزل به غضب السماء ·

كان يحيى يقابل تلاميذه وهو فى سجنه ، يصغى الى أخبار الناس ، ويبعث اليهم تعاليمه ، فبلغه أن عيسى قام مثله يصيح فى بنى اسرائيل : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وأنه يقوم بمعجزات ، يبرىء الأكمه والأبرص ، وأنه يدعو القوم الى الله ، فأرسل اثنين من تلاميذه يقولان له : « أأنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ » ·

غادر الرجلان القلعة ، وانحدرا من جبال مؤاب العالية التى كانت تحجب الشمس ، وسارا والضياء المنعكس من مياه البحر الميت يكاد يغشى عيونهما ، ولاحت لهما التلال العارية الا من زنابق نبتت ، فكانت كجواهر تناثرت فى صحراء ، وانطلقا يخترقان الوديان الخضر ، والفيافى الصفر ، يدخلان مدينة ويخرجان الى مراع يرعى فيها رعاة بنى اسرائيل الرحل ، وينسابان فى صحراء قاحلة ليس فيها ديار ولا نافخ نار · كانت قبلتهما كفر ناحوم التى ذاع منها ما فعله صانع المعجزات ·

ولاح لهما جبل يكسوه الجمال ، فيمما صوبه . فعلى سفحه تقع مدينة نايين الجميلة . كانت الشمس فى كبد السماء ، وكانت أشعتها حامية ، فعزما أن يدخلا تلك المدينة يقضيان فيها الظهيرة ، ثم يغادرانها ليلحقا بمن أرسلهما يحيى اليه ·

دلفا الى المدينة ، وجلسا يستريحان تحت ظل شجرة ، ثم قاما يستانفان رحلتهما ، وما خرجا من باب المدينة الشمالى حتى لمحا جبل طابور وجبل الندرو ، ينساب بينهما طريق يصل الى بحيرة طبرية ، فاغذا السير واذا بموكب قادم ، فصوبا اليه البصر ·

كان عيسى وحوله الحواريون والمؤمنون ، غادروا كفر ناحوم فى الفجر ، ليبلغوا نايين قبل العصر ، جاء يبشر باقتراب ملكوت السموات ، فهو فى رحلة دائمة ، يبصر الناس بما أرسله به الله ·

دنا تلميذا يحيى منه ، وبلغاه رسالة السجين ، فلم يقل لهما أنه هو الآتى ، بل قال لهما : تعاليا وانظرا ·

وسار موكب المؤمنين ، وراح يرتقى الطريق الصخرى المؤدى الى نايين ، وقبل أن يجتازوا باب المدينة ، اذا بجنازة خارجة ، واذا بامرأة تولول وتصرخ فى حزن عميق ، فالمحمول على الأعناق ابنها الوحيد ، كان الأمل وكان الرجاء بعد موت أبيه ، فاذا به يلحق بأبيه تاركا اياها للأسى والاحزان ·

نظر عيسى الى المراة ، فهزه حزنها ، احس كأن دموعها تحرق قلبه ، فاقترب منها ، وقال لها فى حنان :

ــ لا تبكى ·

رفت المرأة اليه من خلال دموعها ، ولاح فى وجهها عتاب ، فكيف يطلب منها ن تكف عن البكاء والنار تسرى في حشاتها ، انه لا يدرى عظم فجيعتها ، صارت تكلى بعد أن كانت ارملة ، تمزق قلبها وتجددت الأشجان ·

وذهب الى النعش ووضع يده عليه ، وقال فى صوت عميق :

ـ أيها الشاب قم ·

وساد وجوم ، واتسعت العيون ، وتحرك الشــاب فى نعشــه . فلاح فى الوجوه هلع ، ووضع النعش على الأرض ، وقام الشاب تدب فيه الحياة ، فهرعت اليه أمه تضمه وهى لا تكاد تصــدق ما جرى . وتغسل وجهه بدموعها ·

وفى ذلك الذهول تذكروا ايليا ، فقد أعاد الحياة الى ابن المرأة صاحبة البيت الذى ينزل فيه ، وتذكروا ما ورد عن اليشع واعادة الحياة الى ابن المرأة الشونمية ، فصاحوا :

ـ انه نبى ، انه نبى كريم ·

وانطلق عيسى وصحبه ورســولا يحيى ، فراح يعظ النــاس ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ثم التفت الى تلميــذى يحيى · وقال لهما ، مقتبسا البشارة من التوراة :

ـ عودا الى ســيدكما وقولا له : العمى يبصرون ، والعــرج يمشون ، والبرص يتطهرون ، والصم يسمعون ، والأموات يقومون ، والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى ·

انصرف رسولا يحيى ، وقد ملئا عجبــا ، وأقبــل عيسى على حوارييه والمؤمنين ، يحدثهم عن يحيى العظيم ، فقال لهم :

ـ ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا ؟ أقصبة تحركها الريح ؟
بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أانسانا فى ثياب ناعمة ؟
ها هم ذوو لباس المجد والنعيم فى بيوت الملوك ·
بل لماذا خرجتم ؟ ألتنظروا نبيا ؟
نعم أقول لكم انه أفضل من نبى ، لأن هــذا هو المكتوب عنه ، هأنذا أرسل ملاكى قدامك ، فيعد طريقك أمامك ·

وصمت عيسى قليلا ثم قال :

ـ ان يحيى لم تلد النساء مثله ·

٢١

« وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير » .

(قرآن كريم)

صعرت الشمس خدها للكون ، وشمخت فى كبرياء ، كانت كالغانية المزهوة بجمالها تحسب أن لن يغيض ، ورنت الى تلال الناصرة من عليائها ، فقد كانت فى ذروة مجدها فى كبد السماء ، وسار عيسى وحواريوه حوله فى الطريق المتعرج المنساب بين التلال ، ذلك الطريق الذى قطعه وهو غلام ، ونظر الى البيوت البيض ، وثبت بصره على بيت بعينه ، بيت الصبا والشباب ، ذهب اليه وفى قلبه بهيج الاحساسات .

كان عيسى فى رحلته الدائمة يتنقل من مدينة الى قرية ، كفراشة تنتقل بين الأفنان ، فما يتم موعظته فى مكان حتى ينطلق الى مكان آخر ، فذاع اسمه فى مدن الجليل وقراه ، وان كانت صورته لم تنطبع فى نفوس الناس ، كان اذا ذكر اسمه تخيلوه مواعظ وأمثالا ، فمواعظه وأمثاله سرت مسرى الهواء .

انه يعظ اليوم فى مجمع كفر ناحوم ، وغدا فى سوق نايين ، وفى الليل على شاطىء البحر ، وفى النهار على سفح الجبل ، وترادفت المجامع والأسواق ، وطويت السهول والصحراء ، فأحس تعبا ، بعد الرحلات الطويلة التى قطعها على الأقدام ، وحن الى ليلة يقضيها تحت سقف بيته بعد تلك الليالى التى قضاها فى بيت

سمعان أو تحت قبة السماء ، فانطلق الى الناصرة يمضى فيها أياما .

جلس حواريوه فى حديقة الدار ، وذهب الى أمه ، ففرحت مريم بمقدمه ، وأقبلت عليه تحادثه وقد فاض حديثها بالحنان . ثم دخل عيسى الى غرفته ومريم ترنو اليه فى عطف واشفاق فقد نحل مذ غادرها يدعو الناس الى ملكوت السموات .

وهبطت مريم الى الحديقة لترى أصفياء ابنها وحوارييه . فوجدت صيادى أسماك بسطاء ، ولكن كان فيهم شىء يميزهم عن الناس ، صفاء نفس وايمان .

طفقوا يحدثونها عن ابنها ، وعن معجزاته ، فقالوا لها فى زهو ان ما كانوا يقرءونه فى التوراة رأوه رأى العين ، رأوا ابنها يحيى ميتا ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، فعل ما فعله ايليا واليشع ، فدعم رسالته بالآيات ، كما دعمها الرسل الذين أرسلوا قبله .

وذاع فى الناصرة خبر مجىء عيسى الى مدينته ، وكانت شهرته قد سبقته ، فتحدث الناس عما فعله فى كفر ناحوم ونايين ، وقالوا انه النبى المنتظر ، كانت أحاديثهم مفعمة بالزهو ، ولكن قلوبهم من الايمان خواء .

وفى يوم السبت ارتدى الرجال ثيابا نظيفة ، وتزينت النساء ، ولبس الأولاد ثياب الصلاة ، وذهبوا الى المجمع ، فيوم السبت يوم عبادة وراحة ، كان المجمع بناء متواضعا مستطيلا ، رفع سقفه على عمد من الطراز اليونانى ، وفى صدره مكان القدس ، وقد اتجه الى أورشليم ، فأورشليم قبلة اليهود من زمان سليمان الحكيم . كان الرجال يجلسون فى المجمع بحسب مهنهم ، فالنجارون فى ناحية ، والزراع فى ناحية ، والتجار فى ناحية ، والنساء فى شرفة عالية ضرب عليهن الحجاب .

وجلس فى الصف الأول رئيس المجمع ، وعلى يمينه كاهن المجمع ، وعلى يساره « الشيلاك » وجلس خلفهم أسن سبعة فى الناصرة ، وأمام رئيس المجمع التابوت ، وفيه الأسفار المقدسة ، وجوار التابوت شرف يقف عليه القارىء أو الواعظ « البيعة » .

واقبل عيسى وأمه والحواريون ، وانضم عيسى الى النجارين وجلس الحواريون حوله ، وصعدت مريم الى الشرفة وعيناها على ابنها . والذكريات تتوافد الى رأسها . فما أكثر ما رأته فى السبوت فى ذلك المكان .

قام قارىء واعتلى الشرف ، ورتل فى صوت عذب الشمة : « اسمع يا اسرائيل الهنا اله واحد ... » وقال الأولاد : « آمين » وقضيت الصلاة ، وبدأت خدمة المجمع . وفيها يقرأ فصلان : « البراشاة » وهو فصل من الناموس ، و « الهافتراه » وهو فصل من الانبياء ، دنا رئيس المجمع من التابوت وأخرج السفر المقدس ، فنهض الناس ، وسبحوا الله ثم جلسوا ، وتقدم رجل مسن ، وتناول التوراة وراح يقرأ « البراشاة » ، ولما انتهى منها عاد الى مقعده ، فاصلح عيسى شال الصلاة على كتفيه ، ثم قام وتقدم الى الشرف ، والعيون متعلقة به ، وقلب مريم فى جوفها يخفق كجناح حمامة .

فتح الخازن التابوت ، وقدم الى عيسى « الهافتراه » . كان درس اليوم سفر النبى أشعيا ، فاشار الخازن بأصبعه الى بداية قراءته . ولكن عيسى لم يقرأ من حيث اشار اليه ، بل راح يقرأ من اشعيا :

« روح السيد الرب على ، لان الرب مسحنى لأبشر المساكين ، ارسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لانادى للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق ، لأنادى بسنة مقبولة للرب ، بيوم انتقام لالهنا لأعز كل النائحين » .

كان على علم بالتوراة ، يقتبس منها ما يلائم كل حالة ، اقتبس منها « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يتطهرون ... » لما سأله رسولا يحيى من يكون . والآن يقتبس منها ما يعلن به لـلملأ أنه رسول رب العالمين .

وطوى السفر ، ودفعه للخازن ، وجلس متأهبا ليلقى عظة ، وساد القاعة صمت ، فقال لهم فى صوت واضح :

ــ اليوم قد تم هذا المكتوب .

فهتك الصياح السكوت ، قالوا له :

ــ آتنا بمعجزة لنشهد لك .

ــ لن نؤمن بك حتى نرى آية من ربك .

وقال الفريسيون فى زراية :

ــ أليس هذا عيسى النجار ؟

ــ من أين يأتيه العلم وما كان من الربيين المتعلمين ؟

ــ لن نؤمن بك حتى تأتينا من السماء ببرهان .

صارت مريم عيونا ، راحت تنظر ماذا يفعل ابنها لهؤلاء الذين يتطاير الشرر من عيونهم ، انهم يصيحون به أن يأتيهم بمعجزة ، وهل كان فى مقدوره أن يفعـل معجزة من عنـده ، انها تؤمن أن ما يفعله باذن الله ، وما تصنع المعجزات الا اذا صفت النفـوس ، وأفعمت بالايمان ، وهـؤلاء الجليليون غلظت قلوبهم ، وما جاءوا ليؤمنوا ، بل جاءوا به يشاهدون عملا خارقا من الأعمال .

وارتفع الصياح :

ــ شفيت مرضى كفر ناحوم ، فاشف مرضانا .

فأشار عيسى اليهم أن اصمتوا ، فلما خفتت الأصوات ، قال :

ــ تقولون : أيها الطبيب ، اشف نفسك ، كم سمعنا بما جرى فى كفر ناحوم ، فافعل ذلك هنا أيضا ، الحق أقول لكم : ليس نبى

كرامة فى وطنه · ان أرامل كثيرات كن فى اسرائيل فى زمان ايليا فى ذلك الزمن الذى لم ترسل فيه السماء أمطارا لثلاث سنين ، فحل الجدب بالأرض ، واحتاجت الأرامل الى العون ، ولم يتقدم أيليا الا لانقاذ أرملة واحدة · وكان فى اسرائيل كثيرون مصابون بالبرص فى زمان اليشع النبى ، فلم يطهر منهم الا نعمان السريانى ·

فظهر الغضب فى الوجوه ، وصاح صائح :

ــ أيقصد أن يقول اننا لا نستحق المعجزات التى صنعها فى كفر ناحوم ؟

ــ لم يفعل شيئا لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يخدعنا بمعجزاته الزائفة ·

ــ ارجموه ، فالشريعة تقضى برجم النبى الكذاب ·

ــ ارجموه ··· ارجموه ·

وهاج الناس كالليوث الكواسر ، وانقضوا عليه يقتلعونه من مكانه ، وأخذوه وخرجوا به من المجمع ، فمشت الرهبة فى قلب مريم ، وهرعت تهبط الدرج واجفة ، وهب الحواريون ليخلصوه من أيدى أعدائه · وراح يوحنا يتدفق بين الجموع كثور هائج ، ولكن هيهات أن يصل اليه ، فقد أطبق الناس عليه كالأمواج ·

انطلقوا فى طرقات الناصرة ، والحواريون يجاهدون وما هم ببالغيه ، ومريم فى اثرهم مبهورة الأنفاس ، وبلغوا قمة الجبل المنحدر الى سهل يزرعيل ، وأمسكوا به ليدحرجوه حتى يتمزق على الصخور الناتئة ، فقد كان ذلك نوعا من الرجم الشرعى ·

جاءوا ليدفعوا به ، فأحسوا كأنما يغشى عليهم ، وكأن أيديهم عاجزة عن أن تصل اليه ، واذا به يجتاز بينهم وهم واجمون ، لاح على وجوههم دهش ، وعيسى يسير هادئا سالما ، وقد مالت الشمس للمغيب ، تلفظ آخر أنفاسها ، وقد وضعت على الأرض خدها فى ذلة المحتضر ·

٢٢

« وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا »
(قرآن كريم)

دب النشاط فى قلعة ماكيروس ، فالخدم فى غدو ورواح ، يستعدون للوليمة الكبيرة ، التى دعا اليها هيرودس انتيباس أصدقاءه الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين الرسميين ، الذين كانوا ضالعين معه فى خداع الشعب والظهور امامه بالتقى والصلاح .

كان هيرودس يتأهب للاحتفال بعيد ميلاده ، محاكيا الأباطرة الرومان ، ولما كان يتملق شعبه ، ويتظاهر أمامه بأنه فريسى متمسك بالدين والتوراة ، فلم يستطع أن يقيم ذلك الحفل فى قصره ، فأقامه هنا فى قلعة ماكيروس ، الشامخة على جبل عال فى جوف الصحراء .

كانت تلك القلعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرودس اللذة بعيدا عن رقابة شعبه الذى لا حديث له الا الحرام والحلال ، وكانت سجنا رهيبا للثوار الخارجين على السلطان ، والأنبياء ، كانت كامرأة ذات وجه بسام وقلب مظلم رهيب ، لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف الشفقة اليه سبيلا .

ذهب هيرودس وهيروديا وبطانتهما الى القلعة ، يستقبلون الزوار ، ووفدت الى رأس هيرودس أفكار ، صرخ فيه يحيى فى هذا

المكان أن هيروديا لا تحل له ، انه يخشى أن تنزل به لعنة موسى فلا يعقب منها ، وهو يشتهى أن يتجب من يرث بعده ولايته . كان هيرودس كثير التطير ، طلبت منه هيروديا أن يقتل يحيى ، الذى يقلب عليه بني اسرائيل ، وطلب منه السنهدرين أن يقتله ، حتى لا يثير بين الناس فتنة ، وأشار عليه أصدقاؤه الرومان يقتله قبل أن يؤلب الشعب على رومية ، ولكنه كان يرتعد فرقا اذا فكر فى قتله ، كان يصدق ما قيل من أن يحيى هو ايليا بعث بعد موته يدعو الناس الى الصلاح ، فخاف أن يمد اليه يده ، فينزل عليه خسفا من السماء .

لم يكن يذكر خوفه اذا هب يدافع عن وجهة نظره ، بل كان يتسربل بالدهاء ويقول ان من الحكمة أن يترك يحيى فى سجنه حتى ينساه أتباعه — وما أكثرهم — فبساطة تعاليمه ومطابقتها لناموس اليهود ، جعلت تصديقه أمرا سهلا ، حتى ان كثيرا من الفريسيين المتزمتين المتعصبين صدقوه وأصبحوا له أتباعا . فالأمل فى أن يخرج من سجنه يوما منع أتباعه من اعلان ثورتهم ، أما اذا قتل فسيندلع لهيب الثورات ، فموته أخطر من حياته ، ودمه أفصح من مواعظه التى يخرج بها حواريوه الى الناس . قد تكدر تعاليمه الصفاء ، أما دمه فيزلزل العروش والتيجان .

واتى المساء وأضيئت المشاعل في القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام ، وبدت من الشرفة الصحراء المترامية فى سكونها ، والسماء المزينة بمصابيحها ، والبحر الميت يعكس اضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها صحاف الفضة وأوانى الذهب ، ملئت بالفواكه والمآكل والشراب .

ووفد المدعوون : والرومان والأمراء وأعيان الجليل ورجال الدين السائرون فى ركاب السلطان ، وتحلقوا حول الموائد .

وامتلأت البطون ، ولعبت الخمر بالرءوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات خليعة ماجنة ، فاتسعت عينا هيرودس ، ولاح فى وجهه انشراح ، كان ينفعل لكل ما يحرك جذوة الشباب الذى ولى .

كانت هيروديا الى جواره تعابث ابنتها سالومى ، التى كانت رائعة الحسن ، كزنبقة نابتة فى الصحراء ، والتفت هيرودس اليها فوقعت عيناه على عينيها السوداوين كليل الربيع الساحر ، وقفزت الى ذهنه المخمور فكرة : لماذا لا ترقص سالومى فى عيد ميلاده ، وقد ذاعت شهرتها كراقصة ماهرة ، حتى قرعت أبواب القياصرة فى رومية ؟

مال نحوها وقال لها :

ـ ارقصى لى يا سالومى .

ـ لا أشعر برغبة فى الرقص .

ـ ارقصى لى .

ـ لا أستطيع .

ـ اذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

فقالت فى مرح :

ـ حقا ؟

ـ اقسم لك يا سالومى .

ـ بماذا تقسم ؟

ـ أقسم لك بآلهتى ، ما سألتنى شيئا الا أعطيتك .

ـ لقد أقسمت .

ـ أقسمت يا سالومى . وما حنثت فى قسمى قط .

رقصت سالومى فى خفة الطيف ، وتثنت كأفعى ، وهيروديا ترمقها وفى رأسها أفكار خبيثة ، وهيرودس ينظر فى ابتهاج .

وحبست الأنفاس ، فسالومى ترقص فى حرارة كأنما تتدفق فى عروقها نار ، تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعت الى هيرودس وحنت رأسها أمامه ، فقال لها فى انشراح :

ـ انهضى لأمنحك ما تطلبين ·

احتارت سالومى ، فما تدرى ماذا تطلب ، فذهبت الى أمها تسألها ، وما كانت هيروديا فى حاجة الى تفكير ، فقد فكرت ودبرت ، فقالت لسالومى همسا : « اطلبى رأس يحيى » ·

عادت سالومى الى هيرودس ، فقال لها وهو يبتسم :

ـ هيه ، ماذا تطلبين ؟

ـ هدية فى طست من فضة ·

فغمغم الملك فى دهش :

ـ هدية فى طست من فضة ؟ وما هذه ؟

ـ رأس يحيى ·

فاربد وجه هيرودس ، وطارت الخمر من رأسه ، وقال فى فزع :

ـ ··· لا ··· غير هذا يا سالومى ·

ـ أريد رأس يحيى فى طست من فضة ·

فقال هيرودس وهو يهتز رعبا :

ـ لا ··· لا · انه رجل صالح ، انه قديس ، غير هذا يا سالومى · اسألى نصف مملكتى ، اسألى أى شىء غير هذا ·

فقالت هيروديا فى اصرار :

ـ لقد اقسمت ·

وأيدها أصدقاؤها الرومان والرهبان ، الوالغين فى الاثم والعدوان ·

ـ اقسمت قسما عظيما ، فبر قسمك ·

ثارت فيه بربريته ، فلم يشأ أن يحنث أمام مدعويه فى قسمه ، ولو كان الحنث أشرف من سفك دم برىء ، فقال فى صوت خافت خائف :

ـ أعطوها ما طلبت ·

وهبط الجنود الى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم ، وانقشعت النشوة ، وحل قلق ورهبة ، وانقضى الوقت وئيدا بغيضا ، واذا الجنود يعودون يحملون طستا من فضة ، فوقه رأس يحيى ، وتناولت سالومى الطست ، وعيون الفزع ترمقها ، وذهبت الى امها تقدم لها رأس من سبها ، ومرغها فى العار ·

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه : لم تلد النساء مثله · ذبح وما اقترف اثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل عفيفا ، ولو كانت دعوى الفداء حقا ، وان الله يريد فداء عن خطيئة آدم ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر ، الذى اهدر بلا جريرة ، أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة آدم ، ولكن ما كان الله ليأخذ الأبناء بجريرة الآباء · فقد قرر فى التوراة أن النفس التى تخطىء تموت ، الابن لا يحمل من اثم الأب ، والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون ، وقرر أن الآباء لا يقتلون عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل انسان بخطيئته يقتل ·

ان الله عادل ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى · وهو رحيم ، فاذا كان آدم قد أخطأ ، فقد نال جزاء خطيئته ، طرد من جنة عدن ، وهبط الى دنيا الشقاء ، وراح يستغفر الله ، ويذرف دموع الندم ، ولما كان الله يغفر الذنوب جميعا ، فقد عفا عن زلة عبده ، « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم » · ·

٢٣

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » ·

(حديث شريف)

شباب بنى اسرائيل الرافل فى العز يحاول أن يتحرر من ربقة الدين ، فهم يكونون طبقة تتطلع الى محاكاة الرومان الحاكمين . فوطأة التقاليد ثقيلة بغيضة ، تكبت العواطف المذخورة المشبوبة بين الضلوع . انهم يريدون أن ينفسوا عن غرائزهم . وأن يقضوا ايامهم فى متعة وسرور .. فاجسادهم متعطشة الى البهجة ، ظمأى الى النشوة . والناموس حائل بينهم وبين الانطلاق المنشود . فليهجروا الناموس ، وليفعلوا ما يبغون ·

كونوا حلقات منهم ، وراحوا يمضون الأمسية فى بيت من بيوت الفاتنات ، اللائى يفتحن دورهن لأصحاب المال والنفوذ ، وكان بيت مريم المجدلية من تلك البيوت . كانت مريم شابة جذابة ، كأنما صيغت من لبن ودم . وكانت تمتاز بعينين سوداوين واسعتين. يتوج رأسها شعر فاحم مسترسل ، يخفى صدرها الناهد البديع ·

اذا نسج الليل خيوطه السود على الكون ، انسل الشباب الغنى اليها ، وراحوا يمضون ليلتهم فى سمر وحديث ومجون ، بين قرع الكئوس . وتثنى الراقصات ، وانغام الموسيقى التى تحرك الغرائز . وتبعث الدفء فى الصدور ·

كان لمريم أكثر من عشيق . وكانوا يتنافسون فى ارضائها .

فيحملون اليها الهدايا من الذهب واليواقيت ، فكانت تفكر أحيانا فى ان تبعث ببعض المال الى المعبد ، فكان الكاهن يرد اليها مالها . فالكل يعرفونها غارقة فى الدنس ، والشريعة تحرم لمس اموال الخطائين .

وتحت شجرة ضخمة وارفة الظل ، وقف عيسى فى السهل المنبسط . الذى اصفرت فيه سنابل القمح ، فبدا كأنما ارتدى حلة من الذهب ، واجتمع حوله الجموع يصغون اليه ، ومرت مريم المجدلية ، فالقت جمهرة ، فانطلقت فى خفة الغزال تنظر ، فرأت شابا ، لم يكن مثل الشباب الفارغ المتهافت عليها كالذباب ، بل كان وجهه ينطق بالطهارة والرزانة ، ولفت نظرها عيناه ، كانتا صافيتين صفاء غريبا ، حتى ليكاد يبدو منهما فؤاده ، وادامت النظر اليه فشعرت بمهابة ، ووقفت ترنو اليه لحظة ، ثم همت بالانصراف واذا بصوت عميق يقرع اذنيها ، فتحس كأنما أريقت فى جوفها كلماته ، كانت مواعظ قوية اخاذة ، تستحوذ على النفوس، وتنزل بالقلوب رهبة .

تسمرت مريم فى مكانها ، وأطرقت براسها ، وأرهفت سمعها . فأحست كأنما ينتشلها من دنياها . أصغت الى هلليل والى شماى والى الوعاظ من الكتبة والفريسيين ، فلم يطرق أحدهم باب قلبها . كانت مواعظهم كالطبل الأجوف . تدوى لحظة وسرعان ما تمحى . أما ما تسمعه الساعة فينفذ الى أعماقها ، وتنفعل له كل خالجة وجارحة ، ويبدد الظلام المتراكم فى جوف صدرها ، انها تشعر ان مواعظه تغسل روحها ، وتخلقها خلقا آخر .

وانتهى عيسى من دعوته ، وانصرف وحواريوه حوله . وانتشر الناس فى الأرض ومريم ذاهلة ، فصوته العميق الطاهر لا يزال يرن

فى أعماقها ، وانتبهت فوجدت نفســـها وحيدة ، فســـارت وهى مشغولة بأفكارها ٠

وجاء المساء ، فتواتر العشاق على دارها ، والتفـوا بهـا ، لينعموا بمرحها ، فاذا بها مطرقة ساهمة ، يحادثونها وهى شاردة ، فجعلوا يتظرفون ليبـددوا كآبتهـا ، ولكن هيهات ، كانت غائبـة بروحها ، وان كانوا يتحلقون حول جسدها ٠

وولد النهار ، فخرجت مريم الى الجليل تبحث عمـن فجر فى نفسها نبعا من الخير ، فقد باتت تستشعر مشاعر فاضلة ما كانت تعرفها ، وانطلقت تنقب عمن أحيا موات نفسها ، حتى وجدته يعظ الناس ، فهرعت خافقة القلب تصغى اليه ٠

احست نحوه احساسا غريبا ، شـعرت بحب يملأ جوانحها ، ولكنه ما كان كذلك الحب الخسيس الهابط بها الى حمأة الرذيلة ، بل حبا رافعا ينتشلها من وهدتها الى عالم صاف من الطهر ، ان نورا يسكب روحها ، فيفر أمامه ذلك الظلام الذى ران على حياتها ، وغشاوة الدعارة تتهتك عن عينيها ، فترى جمال العفـة ، وحرارة كلماته تبخر مسـتنقع الدنس الراكد فى أغوارها ، فتحس كأنمـا صارت فى خفة الطيف أو الملائكة ٠

وعادت الى بيتها ، وأغلقت عليها بابها ، ولم تفتحه لطارق ، وصمت آذانها عن توسلات أخدان الليل ، وفى السكون الهـاجع طفقت تناجى الله مستغفرة ، تبكى فى حرارة ، فقد عرفت عيونها مذ عرفته الدموع ٠

وخرجت وقد عزمت أن تنطلق اليــه ترفع اليــه شكرها على تخليصـها من أدرانها ، ولكن لما وجدته يعظ الجمـوع أحجمت ٠ كانت تعرف قسوة الناس ، فاذا ما تقدمت اليــه ارتفعت أصـوات

الهزء والسخرية ، فهم يعرفونها امرأة خاطئة ، ويا لقسوة الحكم على الخطاة فى مجتمع مراء يتظاهر بالطهر والعفاف .

وانتشرت الجموع فى الطرقات . وسار حواريوه وبعض الرجال ، ومريم فى أثره ، ترجو أن تنفرد به ، لتخر ساجدة تقبل قدميه ، فقد أخرجها الى النور من دياجير الظلمات .

ودعاه فريسى الى داره ، فدخل وحواريوه حوله ، ولم يقدم لهم الفريسى ماء ليغسلوا أرجلهم ، فما من ضيف يدخل بيت عارف بالناموس الا يقدم اليه الماء ، ولم يقبلهم ، فالضيوف يستقبلون بالقبلات ؟ .

وقفت مريم تنظر ، وأفكارها تراودها ، ان هى عادت الى بيتها فربما لا تتاح لها فرصة مثل هذه ، وان هى أقبلت فماذا يقول الرجال عنها ؟ وبقيت فى حيرة ، تترجح بين الاقدام والاحجام ، وتغلب ايمانها ، فتقدمت نحو الدار .

سارت وقلبها يدق فى صدرها ، مريم المجدلية الجميلة التى عنت لها الرقاب ، تتقدم واجفة ، فى يدها صندوق من المرمر فيه طيب ، وفى جوفها قشعريرة ورهبة ، ودلفت الى المكان ، فألفت عيسى ، النبى الذى بذر فيها الايمان ، متكئا على أريكة ، فركعت خاشعة . وصبت الطيب على رجليه ، وانهمرت دموعها ، فانتثرت كاللؤلؤ على قدميه ، فتلفتت تبحث عن شىء تجفف به دموعها التى تساقطت ، فلم تجد شيئا ، فحلت شعرها وجعلت تجفف به رجليه .

رمقها سمعان الفريسى فى شزر وزراية ، ولكنها لم تلحظه ، كانت ذاهلة عنه بالفرح المنبثق فى صدرها ، فتلك الدموع الطافرة من مآقيها غسلت روحها ، حتى صيرتها أنقى من البللور ، وخطر للفريسى خاطر : لو كان عيسى نبيا لعرف أى امرأة هى تلك التى تغسل قدميه بالدموع .

رفع عيسى بصره الى الفريسى وقال له :

ــ يا سمعان ، عندى شىء أقوله لك ٠

ــ قل ٠

ــ كان لدائن مديان ، على أحدهما خمسمائة دينار ، وعلى الآخر خمسون ، ولم يكن لهما ما يوفيانه ، فسامحهما ، فأيهما يحبه أكثر ؟

ــ الذى ترك له اكثر ٠

ــ نطقت صوابا ٠

فطن الفريسى الى ما يرمى اليه ، فهذه المرأة المثقلة بالآثام ، اذا غفر الله لها ، فسيكون حبها له بمقدار عظم خطاياها التى غفرت ٠

وقال له عيسى :

ــ أترى هذه المرأة ؟

فلم ينظر اليها الفريسى ، كأنما النظر اليها نجاسة تحتم التطهير ، فاستمر عيسى فى حديثه :

ــ انى دخلت بيتك ولم تقدم لى ماء لأغسل رجلى ، أما هى فقد غسلتهما بالدموع ، وجففتهما بشعرها ، لم تقبلنى قبلة وهى لم تكف عن تقبيل رجلى ! لم تدهن رأسى بزيت ، أما هى فقد دهنت بالطيب قدمى ٠

كان عيسى يعرف أن الله غفور ، يحب توبة الخطائين ، تاب على آدم ، وتاب على موسى لما قتل المصرى ، وتاب على داود ، وانه ليتوب على مريم المجدلية ، التى خشعت باكية مستغفرة ، فقال لها :

ــ مغفورة لك خطاياك ٠

خرجت مريم فرحة مستبشرة ، تحس أنها خلقت خلقا آخر ٠

٢٤

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

(قرآن كريم)

كان الوقت صبحا ، النسيم يهب رخاء ينعش الأفئدة ، وصفاء ماء بحيرة جيسارت يقرض النفوس صفاء ، وروعة المشاهد تهز المشاعر ، وتغريد الأخيل الأزرق تنسكب فى الآذان ، فتنشرح له الصدور ، كأنما كان ابتهالا وتسبيحا .

وعلى شاطىء البحيرة ، وقف عيسى فى ثوبه الأبيض ، تتدلى منه الأهداب ، وعلى رأسه غطاء ، وبالقرب منه يوحنا وسمعان ، وحوله باقى حوارييه ، وعلى بعد خطوات وقفت نسوة محجبات ، يتبعنه أينما يذهب ، انهن مريم المجدلية ، وسالومى زوجة زبدى ، ويونا زوجة جوزى ياور هيرودس ، كن صاحبات أموال ، فأخذن يصرفنها فى سبيل الدعوة .

وجاء الناس اليه من كل قرية ومن كل مدينة ، يصغون اليه ، ويشاهدون آياته ، فراح يعظهم ، ويضرب لهم الأمثال ، فقال لهم :

« خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور ، فأكلته طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فلما نبتت جفت ، لأنها لم تسق بالماء ، وسقطت بذور وسط

الشوك ، فنبت معها الشوك وخنقهـا ، وسـقطت بذور فى الأرض الصالحة . فلما نبتت أخرجت مائة ضعف ٠

وصمت قليلا ثم قال :

ـ من له أذنان للسمع فليسمع ٠

واستمر عيسى يضرب الأمثال للناس ، وحواريوه ينظرون اليه فاغرى الأفواه . لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صـيادى أسـماك أغفالا . لم يتلقوا علما الا فى مدرسـته . لذلك كانوا اذا خلوا به سألوه عن تأويل أمثاله ٠

وتفرقت الجموع ، وبقى عيسى وتلاميذه وحدهم ، فقالوا له :

ـ ماذا تقصد بمثل الزرع والزارع ؟

فرنا اليهم فى ود وقال :

ـ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله (١) ٠

فاصاخوا بسمعهم ، وبان فى وجوههم الاهتمام ، انه يبشرهم باقتراب الملكوت ، وعلمهم أن يبتهلوا الى الله فى صلاتهم ضارعين « فليأت ملكوتك » وقد آن أن يكشـف لهم عن سر الملكوت ، ذلك السر الذى لا يعرفه الا اياه ، أشار اليه فى مثله ، ومر المثل دون أن يفطنوا اليه ، كسائر الناس الذين حسبوه وسيلة للتعليم وتقريب الأشياء الى الأذهان ، قال :

ـ يعـرف البـاقون الملكوت بأمثـال ، حتى انهم مبصرين لا يبصرون . وسامعين لا يفهمون ٠

وصمت قليلا ، ثم أفضى اليهم بالأسرار :

ـ الزرع : هو كلام الله ٠ والذين على الطـريق : هم الذين يسمعون ، ثم يأتى ابليس وينزع الكلمة من قلوبهم ، والذين على الصخر هم الذين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح ، وهؤلاء ليس

---

(١) لوقا (٨ : ١٠ ـ ٦٥) ٠

لهم أصـــل ، فيؤمنـــون الى حين ، وفى وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشـوك : هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولا يثمرون ، أما البذور التى سقطت فى الأرض الطيبة : فهم الذين يسمعون الكلمة فيحفظونهـا فى قلب مؤمن صالح ، حتى تثمر بالصبر .

هذا هو سر ملكوت الله الذي يبشر به ، ويدعو في صلاته أن يرسله للناس ، ذلك الملكوت الذى شريعته البيضاء « كلام الله » ، الزرع سينبت فى الأرض الصالحة ، ويثمر أطيب الثمـار بالصبر والايمان .

كانوا يتلهفون على اعلان ملكوت الله فى حياتهم ، على تأسيس شريعة جديدة ، تحكم فى الأرض ، تستمد سلطانها من السماء ، وينظم المعاملات فيهـــا كلام الله ، كانوا يأملون أن يروا بأعينهم السراج الوهاج الذى قال عنه : « ليس لأحد يوقد سراجا ويغطيه ، أو يضعه تحت السرير ، بل يضعه على منارة ، ليهتدى الداخلون بالنور » .

عرفوا أسرار الملكوت ، فلن يأتى ملكوت الله ، الا اذا نزل الى الأرض كلام الله ، وســادت شريعته ، ونبتت تعــاليمه فى الأرض الطيبة . ولن ينال ذلك الا بالصبر ، والصبر الطويل .

وانطلق عيسى وحواريوه الى منزل متى ، فقد أعد لهم وليمة ، وكان بين المدعوين بعض حواريى يحيى وبعض الفريسيين ، وكان أغلب المدعوين من الفقراء والخطائين ، فمـا كان متى يعــرف الا أبناء طبقته .

اتكأ عيسى الى الوليمة ، منشرح الصدر ، وأقبـل على هؤلاء الفقراء والخطائين يبادلهم الحديث في عطف ، فقلبه الكبير يتفتح لهم ، ويغمرهم بحنان دافق ، وراح يشـاركهم الطعام والشراب ،

بينا وقف الفريسيون بعيـدا فى كبريائهم وعجرفتهم . فالاختـلاط بأمثال هـؤلاء الخطائين يخدش كرامتهم ، وينال من صـــلاحهم وتقـاهم . أما حواريو يحيى فقـد نظروا فى انكار الى ما يجرى امامهم . فامثال هذه الولائم لا تتفـق مع دعوى النسك والتقشف التى نادى بها يحيى .

واقترب الفريسيون من بعض حواريى المسيح ، وقالوا لهم فى استخفاف :

ـ لماذا يأكل مرشدكم مع الخطائين ؟

لاحظ عيسى تقارب الرءوس ، والهمس والمناجاة . ففطـن الى ما يدور بين الفريسيين وتلاميذه من عتاب . فقال :

ـ لا يحتاج الأصحاء الى طبيب بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا . انى أريد رحمـة لا ذبيحة ، لم آت لأدعو الأبرار ، بل جئت ادعو الخطائين الى التوبة .

فقال له تلاميذ يوحنا :

ـ لمـــاذا نصـــوم كثيرا نحن والفريسيون ، بينا تلاميـــذك لا يصومون ؟

فقال لهم فى رقة :

ـ هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا ما دام العروس فيهم ، ولكن ستأتى أيام حين يرفع العروس عنهم ، فحينئذ يصومون .

وصمت قليلا ، ثم قال :

ـ بمن أشبه أناس هذا الجيل . وماذا يشبهون أولادا جالسين فى الســوق ، ينادى بعضـــهم بعضا ويقـــولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنـــا لكم فلم تبكوا ، لأنه جاء يحيى لا يأكل خبزا ولا يشرب خمرا ، فقالوا عنه : ان به شـيطانا ، وجاء ابن الانســان يأكل ويشرب . فقالوا : هذا انسان أكول وشريب خمر .

ودخل بايروس ، رئيس المجمع ، مضطربا وفى وجهه هلع . فلما رأى عيسى هرع اليه ، وارتمى على أقدامه وقال له فى توسل

ـ ابنتى تجود بأنفاسها ، أضرع اليك أن تنقذها .

أثر حزن الوالد الحزين فى قلب عيسى ، فقام معه ، وسار يتبعه حواريوه وحواريو يحيى وبعض الفريسيين ، وفيما هو فى انطلاقه أحس يدا تلمسه ، كانت لمسة ايمان عميق ، فالتفت الى من حوله وقال :

ـ من الذى لمسنى ؟

فقال بطرس :

ـ الناس يحشرون حولك ، ثم تسال عمن لمس طرف ثوبك ؟

وتقدمت امرأة أنفقت كل ما جمعت لتبرأ من مرضها ، كانت تنزف دما طوال السنين ، فرأت أن تلمس ذلك النبى الكريم لعلها تبرأ مما بها ، فنظر اليها عيسى فألفى فى وجهها ايمانا عميقا . فقال لها :

ـ اذهبى ، بارئة باذن الله .

وفى الطريق جاء رسول الى بايروس ، يحمل اليه الخبر الفاجع ، قال له :

ـ ماتت ابنتك .

وقال لبايروس وهو يتلفت الى عيسى :

ـ لماذا تتعب السيد ؟

فقال عيسى لرئيس المجمع :

ـ لا تخف . آمن .

فقال الرجل فى حرارة :

ـ آمنت .

وبلغ الحشد بيت بايروس ، فاذا ضجيج العويل يتجاوب فى

الفضاء ، فتقدم عيسى ولم يتبعه الا بطرس ويعقوب ويوحنا ، وقابلته النائحات الباكيات ، فقال لهن :

ــ لماذا تبكين ؟ انها نائمة ·

فظهر فى العيون من خلل الدموع استخفاف ، ولم تكدره تلك النظرات · بل طلب من الجميع أن يخرجوا ، وذهب الى الصبية وخلفه أمها وأبوها وصحابته ، فاذا هى مسجاة فى فراشها ، فامسك بيدها وقال :

ــ قومى باذن الله ·

وخنقت القلوب وحبست الأنفاس ، واتسعت العيون ، واذا بالفتاة تتحرك ، ثم تقوم ناهضة ، وفى الوجود دهش واستغراب ·

٢٥

« لأورشليم جعلت مبشرا » .

(أشعيا)

أشرقت شمس دعوته فى بنى اسرائيل . فالجموع تحتشد تصغى اليه وتصدقه ، وصفت سماؤه لم يكدرها بعد عداوة اعدائه وحساده . فاذا كان أهله لم يصدقوه ولم يؤمنوا به ، فقد كان ذلك سحابة عابرة . وشرحت صدره تلك البداية الموفقة لرسالته . فدعا حوارييه ، ليبعثهم الى بنى اسرائيل داعين الى الله ، مبشرين باقتراب ملكوت السموات .

كان تلاميذه لا يفهمون أمثاله ، بل كانوا يستفسرون منه عما يرمى اليه بتلك الأمثال اذا ما خلوا به ، فكيف يبلغ هؤلاء عنه رسالته ؟ ان الأفكار تنبثق من القلب ، وتصقل فى الرأس ، وتخضع للطبع ، فكيف يبلغ يعقوب المندفع ، وبرثلماوس الاسرائيلى الذى لا غش فيه ، وبطرس المتحمس ، وأندراوس المفكر ، وفيليبس المؤمن ، ويهوذا القلق المضطرب ، أفكارا واحدة ، افكار عيسى النابعة من رقراق نفسه ، المغلفة برقة طبعه ، المصقولة بصفاء ذهنه ؟

حرم المسيح عطف الأهل ونعمة الأبوة ، فاتخذ هؤلاء التلاميذ أهلا ، ووجد فيهم متنفسا لعواطفه ، فكان يرعاهم رعاية الاب لأبنائه ، يحس نحوهم احساسات الحب الأبوى ، فكانوا جميعا فى عينيه كاملين .

حتى يهوذا الأسخريوطى ، ذلك الذى جعله أمينا لصندوق جماعته ، كان لم يحرم حبه ، بل كان يقربه ويدنيه .

جاء الجليليون الاغمار ، الذين أوحى الله اليهم أن آمنوا به وبرسوله ، يصغون الى نبيهم ، الذى راح يرسم لهم الطريق ، قال :

ـ الى طريق أمم لا تمضوا ، والى المدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، وفيما انتم ذاهبون « عظوا » قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات .

بصرهم بهدف رسالته ، أن يبشروا بنى اسرائيل ، وبنى اسرائيل فقط ، باقتراب ملكوت السموات . فقد أرسله الله رسولا الى بنى اسرائيل ، اما الأمم : الشعوب الأخرى ، فسيرسل الله اليها « مشتهى الأمم » الذى بشر به النبى حجى .

كان المسيح يعرف أغراض رسالته ، فما بعث الا لشعب الله المختار ، وسيرسل الله الى الأمم الآخر ، الذى قال عنه لبنى اسرائيل على لسان موسى : « سوف أقيم لهم نبيا مثلك ، من بنى اخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه (١) ، ذلك الآتى من البرية من الديار التى سكنها قيدار (٢) « من جزيرة العرب » . ذلك الذى بشرت به البشارات ، بأن الله جعله عهدا للشعب ، ونورا للأمم .

حذر تلاميذه ان يذهبوا الى طريق الامم ، فالذاهب الى طريق الأمم هو عبد الله ومختاره الذي بشر به أشعيا : « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ... لا يكل ولا ينكسر ، حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته (٣) » .

---

(١) تثنية (١٨ : ١٨) .
(٢) تكوين (٢٥ : ١٣) .
(٣) أشعيا (اصحاح ٤٢) .

واستمر فى وصيته :

ـ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا .

وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا عمن فيها ، واقيموا هناك حتى تخرجوا ، ولا تدخلوا بيوتا حتى تستأنسوا وتسلموا . فان كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه ، وان لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم اليكم . فاذا قيل لكم اخرجوا فاخرجوا وانفضوا غبار أرجلكم .

هأنذا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات . وبسطاء كالحمام .

فقال بطرس باندفاعه المعهود :

ـ واذا مزقت الذئاب الخراف ؟

ـ لن ينالوا الا اجسادكم ، أما أرواحكم الطاهرة فتحيا عند الله .

واستأنف وصيته :

ـ احذروا الناس ، سيسلمونكم الى مجالسهم ، وتجلدون فى مجامعهم ، وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلى ، لتشهدوا لهم وللأمم ، فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون ، فسيوحى اليكم ما تنطقون ، لأنكم لستم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم .

سيسلم الأخ أخاه الى الموت ، والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلون ، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى . ولن يخلص الا من يصبر الى المنتهى .

ومتى طردوكم من هذه المدينة ، فاهربوا الى الأخرى . فانى الحق أقول لكم لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن الانسان .

ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده ..

لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا ، فانى جئت لأفرق بين المرء وأبيه ، والابنة وأمها ، والكنة وحماتها ، وأعداء الانسان أهل بيته ٠

من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقني ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى ٠

كان يدعوهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ، فالخارج فى سبيل الله واهب روحه لله ، فمن يتعرض لوعظ الناس ، فليأخذ صليبه الذى سيصلب عليه اذا ثار الناس ضده ، وليتأهب للموت ، ويأخذ معه أكفانه ٠

من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ، من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار ، فأجر بار يأخذ ٠

وانتهت وصيته ، فخرج تلاميذه الى بنى اسرائيل ، اثنين اثنين ، حتى اذا أخطأ أحدهما هداه الآخر الى المحجة ، انطلقوا يبشرون بملكوت الله ، يدعون الى اله واحد ، لا يدعون معه الها آخر ، فما حدثهم المسيح فى وصية الا عن الله الواحد ، وعن رسوله الذى أرسله ٠

(★) يلاحظ أن عيسى عليه السلام يستعمل دائما لفظة أب بمعنى رب ٠

٢٦

« ظهر الفساد فى البر والبحر ، بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .
(قرآن كريم)

كانت نفسه صافية ، جموع الناس تهرع اليه تصغى الى مواعظه ، ونظرات الحب والاعجاب ترمقه من هنا وهناك ، فتسقى الأمل ، فينمو ويزدهر . لم يمض على رسالته غير سنة واحدة ، واذا بدعوته صارت حديث بنى اسرائيل ، حديث القرى والمدن ، حديث الأكواخ والقصور .

ان تلاميذه ينتشرون فى الأقاليم يعظون ويبشرون ، ويعلنون للناس اقتراب ملكوت السموات ، فلو رحبت الجماهير بهم ، وألقوا اليهم السمع والأفئدة ، لرفرفت دعوته على الشعب المختار — انفرجت شفتا المستقبل عن أسنانه ، فحسب كل من يحسن به الظن أن سيشهد مولد بسمة راضية .

واستمر فى رحلته الدائمة ، يعظ ويبشر باقتراب ملكوت السموات حتى لاحت له قباب الهيكل ، فانطلق خافق القلب ، تداعبه آمال ، كان يرجو أن يؤمن به أهل أورشليم ، فتصبح المدينة المقدسة قلب دعوته النابض ، تتدفق منه الى الولايات بشاراته ومواعظه .

كانت أورشليم معقل الصدوقيين والفريسيين ، وحصن اعضاء السنهدرين الذين يستمدون سلطانهم من السلطة الحاكمة ، فلو أن مواعظه وتعاليمه دكت هذه المعاقل ، لفتحت له القلوب أبوابها .

سار فى طرقات المدينة الخالدة ، فاذا اليهود فى مرح وحبور ، كانوا يحتفلون بعيد البوريم ، وهو عيد ليس من الأعياد الدينية ، بل هو عيـــد لهو وسخرية ، كانوا فى ذلك العيـد يتحررون من القيود ، انطلاق وخلاعة ، ضحكات ومغازلات ، مداعبات وقبلات ، دعابات صاخبة ماجنة ، دعارة سافرة أغلقت دونهـا الأبواب . والفريسيون والصدوقيون فى الطرقات يتجسسون على الشعب ، ليطمئنوا الى أن كل شىء قد غسل جيدا بالماء ، وأن كل شىء طاهر ، وأن شريعة موسى نافذة !

كانت عيونهم المفتوحة ترى خلاعة الاسرائيليات فى ذلك العيد ، وعربدة الشباب الماجن الفارغ ، وكانت آذانهم المرهفـة تسـتقبل ضحكات الاغراء والنداء ، ولكنهم ما كانوا يحركون ساكنا ، كانوا يعتقدون بقدسية ما جاء فى التلمود من أن « خطيئـة الزنا مباحة ما دامت تقترف فى الخفاء » كان كل ما هو مكتوب مقدسا عندهم ، ولو كان ذلك المكتوب يسخر بالمعقول ، ويسفه الأحلام .

قلب وجهـه فيما حوله ، فاحس أسى ، فقـد ظهـر فى الأرض الفساد ، شريعـة موسى اندثرت ولم يبق منهـا الا حروف والفاظ ازهق روحها الصدوقيون والفريسيون ، وأعضاء السنهدرين الذين يتمسكون بالناموس اذا كان فى التمسك به جلب مغنم ، أما اذا تعارض مع مصلحتهم فما أيسر ايجاد المحللات .

وجاء يوم السبت فارتدت المدينة المقدسة ثوب الوقار ، انطلق الكتبة الى الهيكل فى طيالسهم الفضفاضة ، والكهنـة فى جببهم السود ، والرجال وقد وضعوا على أكتافهم مشـامل الصـلاة ، وشدوا الى أذرعهم التفلين ، وهى صناديق صغيرة تضم الشريعة ، وتدلت من أطراف الأثواب الهدب ، والشارات الزرق التى يحتمها الناموس ، انطلقوا مطـرقى الرءوس متظاهرين بالخشـوع كانهم

ملائكة ، متناسين عيد البوريم الذى كانوا فيه شـياطين فترك فى عيسى أثرا عميقا ذلك الرياء البغيض ٠

وقضيت الصـلاة ، فذهب عيسى الى بعض معـارفه فى بيت صيدا ، يمضى عندهم يوم السبت فى حديث ، فالسبت عند اليهود يوم مقدس ، يوم راحة ، فمن عمل فيه عملا أو حمـل حمـلا خرق الناموس ، ومن يخرق الناموس يرجم ٠ انطلق وفى الطريق قابل مقلوجا ممددا على سريره ، كان بائسا يائسا ، فحرك بؤسـه قلب عيسى ، فدنا منه وقال له فى صوت رحيم :

ـ قم ، واحمل سريرك ٠

أحس المقلوج كأن حياة جديدة دبت فيه ، فأطرافـه تتحرك ، فراح يرفعها ويخفضها وقد انتشر فيه فرح عظيم ، وقعد فى سريره ، ثم قام والدموع تنهمر من مآقيه ، وحمل سريره وسار منشرحا يكاد يطير من السرور ٠

لمحه اليهود وهو يحمل سريره فى السبت ، فثار الغضـب فى الصـدور ، انه يخرق بذلك العمل النـاموس ، فاليهود المتمسكون بحرفية الشريعة لا يلبسون يوم السبت حذاء به مسمار ، لأن ذلك المسمار حمل ، فكيف يسير الرجل وعلى كتفه سرير ؟

هرعوا الى الرجل وأمسكوا به ، وقالوا له فى تعنيف :

ـ انه سبت ، لا يحل لك أن تحمل سريرك ٠

ـ قال لى الذى أبرأنى : احمل سريرك وامش ٠

ـ من هو ؟

ـ لا أعرفه ٠

كان عيسى فى رحلة دائمـة ، لا يسـتقر فى مكان ، حتى ان صورته لم تثبت فى الأذهان ، وان كان اسمه يتردد على كل لسان ، وانصرف الرجل وذهب الى الهيكل يقـدم شكره لله ، ولمح الرجل

الذى شـقاه ، فدنا منه حتى عرفه ، فلم يكتم أمره ، بل ذهب الى رؤساء اليهود ، ودلهم عليه ، فالمغدر فى الانسان ٠

وجاء رسل اليهود وأمسكوه ، وذهبـوا به ليحاكموه لكسره السبت المقدس ، واقتيـد الى الكهنة العظام ، فسـألوه عن خرقه الناموس فى السبت ، فقال لهم ان الله يعمل كل يوم ، وان الله رب الأيام ، هو رب السبت أيضا ، وراح ينقض لهم اعتقادهم الخاطىء بأن الله خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى يوم السبت ٠ وقال لهم ان الله خلق العالم فى ستة أيام ولم يمسسه تعب ولا لغوب ٠

وألقى الكهنة يصغون اليه ، فرأى أن يدعوهم الى الله ، فقال :

ـ الحق الحق أقول لكم ، ان الذى يســمع كلامى ، ويؤمن بالذى أرسلنى ، فله حياة أبدية ٠

ان كنت أشهد لنفسى ، فشهادتى ليست حقا ، ولكن يشهد لى آخر ، وأنا أعلم أن شهادته هى الحق ، أرسـلتم الى يحيى فشهد للحق ، وأنا لا أقبل شهادة من انسان ٠ لى شهادة أعظم من شهادة يحيى ، جئت من الله بالآيات التى تشهد لى ، فالله أرسلنى ، والله نفسه الذى أرسلنى يشهد لى ، لم تسمعوا صوته ولم تروه ولم تثبت كلمته فيكم ، لأنكم لا تؤمنـون بمن أرسله ، فتشـوا الكتب ، فهى تشهد لى ٠

لا تظنوا أنى أشكوكم الى الآب (١) ، يوجد من يشكوكم وهو موسى ، الذى عليه رجاؤكم ، لو كنتم تصدقون موسى لصدقتمونى ، لأنه بشر بى ، فأن كنتم لا تصدقون كتبه ، فكيف تصدقون كلامى ٠

وانصرف عيسى والكهنة ينظرون ، يصرفون أسنانهم ، ولا شىء غير الحنق الشديد ، حتى اذا اختفى عن عيونهم هبـوا ليمسكوه ويقتلوه ، ولكن كان قد مضى ٠

---

(١) آب (غير أب) بمعنى الله ٠

وما كانت الدعوة تنتشر بالتسامح والموعظة الحسنة ، فهؤلاء الأقوياء سادرون فى عداوتهم وطغيانهم ، يريدون أن يقتلوه ليطفئوا نور الله بأفواههم ، فلو كانت تظاهره قوة لتحدى طغيانهم وثبت فى أورشليم يدك حصونهم ، فلا يفل القوة الا القوة ، وما كانت تعاليمه تنهاه عن أن يقاتل الذين يريدون ان يقتلوه ، فقد قال : « لا تظنوا انى جئت ألقى سلاما على الأرض بل سيفا » ؛ ولكن ما كان يمتلك ذلك السيف الذى يلقيه ، فلم يكن أمامه الا ان يغادر أورشليم ٠

وكان هيرودس فى قصره ، يرى رأس يحيى فى طشت من فضة أينما توجه بصره فى رقعة السماء ، أو فى صفحة الماء ، أو فى سكون الليل ، أو فى جلبة النهار ؛ كان منظره يطارده فى اليقظة وفى المنام ، فلما رفع اليه أن نبيا جديدا بعثه الله بالآيات ، هبت مخاوفه ، فقال لمن حوله :

ـ هذا هو يحيى الذى ضربت عنقه قد قام من الأموات ٠

وعاونه تطيره على نمو تلك الوساوس فى نفسه ، فكان يرى يحيى قادما ينتقم لدمه الذى أهدر من غير ذنب ، وضاق بمخاوفه ، وأراد ان يضع لها حدا ، فأوحى الى من حوله رغبته فى ان يرى ذلك الذى اختلف فيه الناس ، وقالوا عنه انه ايليا ، بل أرميا ، بل نبى من الأنبياء ٠

وعاد عيسى الى الجليل ، ووافاه تلاميذه ، بعد أن خرجوا ليحملوا الى بنى اسرائيل البشارة ، واقبلوا عليه يسردون أخبارهم ، لم تتدفق الكلمات من أفواههم حارة نابضة ، بل كانت هادئة مغلفة بالأسى ، ما كانت أنباؤهم مفرحة ، بل كانت اقرارا بالاخفاق ٠

كانوا أتقياء أصفياء ، كل مميزاتهم عمق الايمان ، وما كانوا

صالحين لقيادة الناس بالوعظ والارشاد ، كانت أعباء الرسالة فوق طاقتهم ، فالله يصطفى رسله من أولى العزم من الناس ٠

أحس مرارة العداوة بعد المحبة ، ومرارة اخفاق تلاميذه بعد النجاح ، هبت العواصف ، وثارت الأنواء ، وتلبدت سماؤه بغيوم ، حجبت شمس الأمل ، وأسدلت أستار الظلام ، فتيقن أن الطريق طويل ، محفوف بالمخاطر والأهوال ، فتذرع بالصبر ، لعله ينجح فى أن يبلغ رسالات الله ٠

٢٧

« اذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين » ٠

(قرآن كريم)

تجاوب صياح الديكة فى كفر ناحوم ، ولاح فى الأفق الشرقى ضياء فضى باهت يزاحم عتمة الليل ، وكان فى السماء نجم واحد يتلألأ ، لم يفضحه النور ، وعوت الكلاب فهتكت حجاب السكون ، وترددت أنفاس الفجر ندية عاطرة ٠

وخرج عيسى الى البحيرة الهادئة ، كان سطحها مصقولا ، لم يقو النسيم الواهن على تجعيده ، أو مداعبة سعف النخيل ، ولم تكن البحيرة صافية الزرقة ، فقد انتثرت فيها دوائر داكنة ، ودوائر باهتة ، وتجمعت المراكب عند شاطئها ، ارصادا لطلوع النهار ٠

ووافاه تلاميذه ، فدعاهم الى الخروج الى مكان هادىء منعزل ، ليفقهم فى أمر دينهم ، بعيدا عن جلبة الجموع ، فى أحضان الطبيعة الساكنة ، فصعدوا الى المركب ، وانسلوا فى عماية الصبح ، يشقون بحيرة جنيسارت ٠ وأخذ النور يراق على الأرض والماء ، والطيور ترفرف فى الفضاء ، والصقور السود تنقض كالشهب ، وسرعان ما تعرج الى السماء ، ودبت فى الميناء الحياة ، وعيسى وحواريوه فى طريقهم الى سهل البطيحة العارى الموحش ، البادى كناسك خلع زينته فى هذه البقعة الغنية بالجمال ٠

ونهـــادى المركب حتى اذا بلغ الشـــاطىء ، هبط عيسى وتلاميذه ، وذهبوا الى مرتقى من تل ، وجلسوا يصغون الى رسول الله ، كان يعلمهم أوامر الدين ونواهيه . وفيما هم آخذون بأطراف الحديث ، قال أحد التلاميذ :

ــ كتب فى كتاب موسى ، ان العهد صنع باسحاق (١) ·

فقال عيسى فى أسى :

ــ هذا هو المكتوب ، ولكن موسى لم يكتبه ، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله ·

الحق أقول لكم : انكم لو أمعنتم النظر فى كلام جبريل تتحققون من خبث كتبتنا وفقهائنا ، لأن جبريل قال : « يا ابراهيم ، سيعلم كل العالم أن الله يحبك ، ولكن كيف يعلم مقدار محبتك لله ؟ فعليك أن تفعل شيئا تظهر به محبة الله » فقال ابراهيم : « انى سامع مطيع لأوامر الله » · فقال الله لابراهيم : « خذ ابنك بكرك اسماعيل (٢) واصعد الجبل ، وقدمه ذبيحة لله » · فكيف يكون اسحاق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين ؟ !

فقال له تلاميذه :

ــ ان خداع الفقهاء لجلى ، قل لنا أنت الحق ، لأننا نؤمن أنك رسول الله ·

فقال عيسى :

ــ الحق أقول لكم : ان الشـــيطان يحاول على الدوام تعطيل شريعة الله ، لذلك نجس ، هو وحزبه والمراءون الأشرار ، كل شىء · المراءون بتعاليمهم الكاذبة والأشرار بحياة الخلاعة والمجون ، حتى ضاع الحق · ويل للمرائين » ·

---

(١) هذا الحوار من انجيل برنابا ·
(٢) فى التوراة : خذ ابنك بكرك اسحاق ·

واكتشف الناس مكان خلوتهم ، فجاءوا يتراكضون ، وغص السهل بالجموع ، فقام عيسى يعظهم :

ــ السلام عليكم يا بنى اسرائيل ، أنا اليوم الذى أنزلت الدنيا منزلتها باذن الله ، ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتى ؟

ــ أين بيتك يا روح الله ؟

ــ بيتى المساجد ، وطيبى الماء ، وأدامى الجوع ، وسراجى القمر بالليل ، وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس ، وريحانى بقول الأرض ، ولباسى الصوف ، وشعارى خوف رب العزة ، وجلسائى الزمنى والمساكين ، أصبح وليس لى شىء ، وأمسى وليس لى شىء ، وأنا طيب النفس غير مكترث ، فمن أغنى منى وأربح ؟

لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء ، طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشا ، حتى يقتله ، ان الشيطان مع الدنيا ، وفكره مع المال ، وتزينه مع الهوى ، واستمكانه عند الشهوات .

طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته ، وحفظه لسانه ، ووسعه بيته .

طوبى لعين نامت ، ولم تحدث نفسها بالمعصية ، وانتبهت الى غير اثم .

وسرت النشوة فى صدور الناس ، فصاحت امرأة :

ــ طوبى لحجر حملك ، ولثدى أرضعك .

ــ طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به .

واستمر فى موعظته :

ــ الحق أقول لكم : من طلب الفردوس ، فخبز الشعير ، والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير .

لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله ، فتقشعر قلوبكم ، فان القلب

القاسى بعيد من الله . ولكن لا تعلمون • ولا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب . وانظروا فيها كأنكم عبيد . فانما النــاس رجلان : معافى ومبتلى . فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية •

اعملوا لله . ولا تعملوا لبطونكم ، انظروا الى هذه الطير ، تغدو وتروح . لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها ، فان قلتم : نحن أعظم بطونا من الطير ، فانظـروا الى هــذه الجمــاعات من الوحوش والحمر . فانها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها •

عجبت من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبــه ، وبانى القصور والقبر منزله ، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه . ابن آدم لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع . تجمع مالك لمن لا يحمدك •

انما أنت عبد بطنك وشهوتك . اجعلوا كنوزكم فى السماء . فان قلب الرجل حيث كنزه •

لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها اهلهــا فتظلموها . والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه . فردوا علمه الى الله عز وجل •

لا تطرحوا اللؤلؤ الى الخنازير ، فالخنازير لا تصــنع اللؤلؤ شــيئا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فان الحكمــة خير من اللؤلؤ ، ومن لا يريدها شر من الخنزير •

انتم ملح الأرض ، فاذا فسدتم فلا دواء لكم •

ونظر فاذا بعض الكتبة والفريسيين بين الجموع . فقال :

ـ يا علمــاء الســوء ، جعلتم الدنيا على رءوسكم ، والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شــفاء ، وعملكم داء ، مثلكم مثــل شجرة الدفلى ، تعجب من رآها ، وتقتل من أكلها •

يا علماء السوء ، جلستم على أبواب الجنــة فلا تدخلوها ،

ولا تدعون المساكين يدخلونها . ان شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه .

واستمر فى وعظه ، والناس يلقون اليـه السمع ويقولون : « هذا هو النبى الآتى الى الناس » ومالت الشمس للمغيب ، واختفت خلف التـلال الغـربية ، والجماهير فى مكانهـا لا تريم ، ونظـر الحواريون فأعجبتهم كثرة بنى اسرائيـل الذين جاءوا يسـمعون المسـيح ، انهم يذكرونهم بآبائهم الذين خرجوا مع موسى ، ها هى ذى الصحراء ، وها هى ذى جموعهم ، وها هو ذا رسـول الله ، ولكن أين المن والسلوى ؟ أطعـم الله آباءهم من السـماء ، فلماذا لا يطعمهم كما أطعم الآباء ، فذهبوا الى عيسى وقالوا له :

ـ يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

فنظر اليهم فى عتاب ، وقال :

ـ اتقوا الله ، ان كنتم مؤمنين .

قالوا :

ـ نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، وتكون عليها من الشاهدين .

فاعتزل وأطرق رأسـه ، وأسبل عينيـه ، وتضرع الى الله فى الدعاء والسؤال ، قال عيسى بن مريم :

ـ اللهم ربنا أنزل علينـا مائدة من السـماء تكون لنا عيدا ، لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين .

قال الله :

ـ انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعـد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين .

رأى عيسى فى نزولها نقمة لا رحمـة ، فذهب الى حوارييه .

واخبرهم بما أوحى الله اليه ، فخافوا وأبوا نزولها ، وقالوا :

ــ جاع الناس . فاصرفهم يبتاعوا لهم خبزا . فليس عندهم ما يأكلون .

وقال أحد تلاميذه :

ــ أنمضى نبتاع لهم بمائتى دينار خبزا ؟

فقال عيسى :

ــ كم رغيفا عندكم ؟ اذهبوا وانظروا .

وعاد اليه أندراوس ، وقال له فى قنوط :

ــ ان صبيا معه خمسة أقراص من شعير ، وسمكتان .

فقال المسيح :

ــ ليتكىء الناس .

فبان الدهش فى وجوه الحواريين ، ولكنهم لم ينبسوا بكلمة . وذهبوا الى الجموع يفرقونهم فرقا فرقا .

واتكئوا بثيابهم الزاهية ، فبدوا كأحواض الزهور المتناثرة فى حديقة ساعة الأصيل ، وتناول أقراص الشعير ورفع عينيه الى السماء وشكر الله ، وراح يكسر الخبز . فباركه الله حتى أشبع الجميع .

وأمر تلاميذه أن يركبوا السفينة ويتركوه . وانسل من الناس واعتزلهم . كان يشعر براحة كلما أمضى الليل قائما يناجى ربه ، وخشع الكون . ونامت العيون . الا عيناه ، كانتا شاخصتين الى السماء . وسكت كل لسان الا لسانه . كان يقول :

ــ اللهم انى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره . ولا أملك نفع ما أرجو . وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى ، اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولا تسؤ بى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى .

٢٨

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل لله ما فى السموات والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » .

(قرآن كريم)

وجاء الهزيع الأخير من الليل ، فهبت الرياح وصفرت فى الفضاء ، وعيسى فى خشوعه يدعو الله . حتى اذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهبا الى البحيرة ، فرأى المراكب فى الغبش تعابثها الرياح ، والأمواج ثائرة مزمجرة ، ترفعها فى غضب وتحطها فى استياء . ولمح حوارييه يغالبون الموج ، والموج يغلبهم . فانطلق اليهم يمشى على الماء .

نظر الحواريون فالفوا شبحا يسير على الماء ، عليه كساء ، نصفه ازار ، ونصفه رداء . فانقبضت قلوبهم خوفا ، وصرخوا فى رعب فقد حسبوه خيالا . فاذا بصوته العذب يمس آذانهم :

ــ لا تخافوا .

فنزلت بهم طمانينة وأمن ، وهدأت مخاوفهم . وصاح بطرس باندفاعه المعهود :

ــ يا معلم . ان كنت انت هو ، فمرنى ان آتى اليك .

فقال له عيسى :

ــ تعال .

فنهض بطرس ، ووضع احدى رجليه فى الماء . ثم ذهب ليضع الأخرى فخفق قلبه واضطرب ، فصاح وهو يهوى :

ـ غرقت يا نبى الله .. نجنى .

ـ أرنى يدك يا قصير الايمان .

ومد يده وانتشله ، وصعدا الى السفينة ، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه فى دهش ، فالتفت اليهم وقال :

ـ لو كان لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشى على الماء .

وسكنت الرياح ، واستوت السفينة على الماء ، وانسابت فى طريقها ، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون ، لم يكتبوا أقواله ، لأن ملكوت السموات صار قريبا .

وبلغت السفينة الشاطىء وقد ولد فجر يوم جديد ، وهبط عيسى وتلاميذه ، فلما رآه الناس دهشوا ، فتلاميذه أقلعوا وهو على الشاطىء ، وقد تفرقوا وهو فى الفضاء وحده يناجى ربه ، فكيف لحق بحوارييه ؟

وتجمعت الجموع حوله وانطلقوا الى مجمع كفر ناحوم ، وانتشر خبر اطعامه الناس ، فاقبلت الوفود ، يداعب نفوسهم الجشعة امل اطعامهم . وكأنما قرأ عيسى ما تخفى صدورهم ، فقال لهم :

ـ الحق الحق أقول لكم ، أنتم تطلبوننى لا لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم .

وقلب ناظريه فيهم ، ثم رأى أن يرفعهم الى عالمه الروحى المتحرر من الماديات ، فقال لهم :

ـ اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى ، للحياة الأبدية ، الذى يعطيكم ابن الانسان . ذلك الطعام الذى باركه الله .

ـ ماذا نفعل حتى نعمل أعمالا ترضى الله ؟

فقال لهم :

ـ أن تؤمنوا بمن أرسله .

ـ أرنا آية حتى نؤمن بك · آباؤنا أكلوا المن فى البرية ·

كان عيسى يحاول أن يحلق بهم فى عالم الروح ، وهم لا يريدون الا أن يهبطوا فى عالم الماديات ، الى اشباع البطن ، الى الطعام البائد ·

ـ لم يعطكم موسى الخبز من السماء ، ولكن الله يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ، لأن خبز الله النازل من السماء يهب حياة خالدة ·

لم يفهموا ما يرمى اليه ، حسبوه يعدهم خبزا يشبع بطونهم لا خبزا يشبع أرواحهم ، فقالوا له :

ـ أعطنا هذا الخبز فى كل حين ·

فقال لهم فى صوت عميق :

ـ أنا هو خبز الحياة ، من يقبل الى فلن يجوع ، ومن يؤمن بى فلن يعطش الى الأبد ، انى جئت من السماء لا لأعمل مشيئتى ، بل مشيئة الذى أرسلنى ·

وتذمر اليهود ، فهو ينال من مقدساتهم دون أن يمنحهم خبزا ، فقال لهم ان موسى لم يعطهم خبزا من السماء ، فسكتوا حاسبين انه سينزل عليهم من السماء الخيرات ، فلما قال انه هو خبز الحياة ، لم يبق من الغضب مفر ، غضبوا لتسفيهه معتقداتهم وتذمروا وزاد فى تذمرهم قوله انه جاء من السماء ، وكأنما أراد أن يوضح لهم كلامه ، فقال لهم :

ـ الحق الحق أقول لكم ، من يؤمن بى فله حياة أبدية ، أنا هو هو خبز الحياة ·

وزادت ثورتهم ، فما كانوا يريدون ذلك الخبز الواهب الحياة الأبدية ، بل يريدون خبز البطون ، فقال لهم يشرح الخلود :

ـ آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا • أما الخبز النازل من السماء فمن يأكل منه لا يموت •

كانوا فقراء اغفالا . لا يفهمون الأمثال ، وما من حديث ألقى الى من لا يفهمه الا كان له فتنة ، لذلك تخاصم النـاس ، وارتفعت فى المجمع المشادات والمناظرات ، جلجلت أصوات الكتبة والفريسيين بالاعتراض ، صدقوا أن يحيى رسول الله ، فقد كانت تعاليمه سهلة لا تناقى الشريعة ، ولكنهم لن يصـدقوا رسـالة من جاء ينقض الناموس ، ويقول ان موسى لم يعطهم المن من السماء ، وانه خبز الحياة •

وانفض النـاس من المجمع ، غاضـبين ثائرين ، حتى بعض تلاميذه تركوه ، لم يفهموا قوله انه جاء من السماء ، ولم يقبلوه ، وخرج عيسى وحوله حواريوه ، وانطلقوا صامتين ، وفطن الى أنهم يكتمون تذمرهم ، فقال لهم :

ـ الروح هو الذى يحيا ، أما الجسد فلا يفيـد شيئا ، الكلام الذى أكلمكم به هو روح الحياة ، ولكن منكم قوم لا يؤمنون •

وساروا لا يتبسون بكلمة ، وضاق عيسى بصمتهم ، فقال لهم :

ـ لعلكم تريدون أن تمضوا ؟

فقال له بطرس فى فزع :

ـ يا روح الله الى من نذهب ؟ عندك كلام الحياة الأبدية ، وقد آمنا وعرفنا أنك رسول الله •

وتبخر القلق المنتشر فى صدورهم ، وشـاعت فيهم طمـأنينة عجيبة ، وحل بهم ايمان عميق ، فرفعوا وجوههم الى السـماء .. وقالوا :

ـ ربنا آمنـا بما أنزلت ، واتبعنا الرسـول ، فاكتبنا مع الشاهدين •

٢٩

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا . ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » ·

(قرآن كريم)

أورشليم غارقة فى المشاحنات الدينية . مناظرات بين أتباع هلليل وأتباع شماى ، وعداوات بين الصدوقيين الشعبيين وبين الفريسيين الطائفيين ، وبنو اسرائيل يرسفون فى أغلال هؤلاء الكهنة راضين ، فقد ثبتوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس ·

راحوا يشغلون الناس بالمحظورات والمحرمات ، ويقسمونها الى اقسام ودرجات ، فشماى فى تزمته يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه الدفاع عن النفس ، وقتال الأعداء وان جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شىء فيه ، وان كان ابرة او كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة ولم تثبت فيه ، حتى الأسنان الصناعية كانت حملا لا ينبغى حمله فى السبت المقدس ·

أظهروا التقشف رياء للناس ، وتظاهروا بالتقوى وحماية الشريعة ، حتى ان فريق « الجباه الدامية » من الفريسيين ينطلقون فى الطرقات مغمضى العيون ، لكيلا تقع عيونهم على النساء ، فيتخبطون فى سيرهم ، وبالجدران يرتطمون ، فتسيل الدماء على الجباه ارضاء للناموس ·

وامعانا فى النفاق تمسكوا بحرفية النـاموس ، مضحين بالروح على مذبح الرياء ، فاذا جاع يهودى يوم السبت ولم يكن عنده ما يأكله . فخير له أن يموت جوعا من أن يطهى طعامه ويكسر السبت ، لأن كاسر السبت يستحق الرجم ، وأما من مات فى سبيل حفظه فهو شهيد •

وكان بنو اسرائيل يعتقدون أن عداوة الصدوقيين والفريسيين فى سـبيل الشريعة والتلمـود ، ولكن ما قامت تلك العـداوة الا للتنافس على المغانم ، والاثراء من غفلة الناس ، كان الصدوقيون يحتكرون بيع الحمام فى الهيكل ، فضاعفوا المناسبات التى يقـدم فيها الى الله تقربا وزلفى ، فهب أعداؤهم الفريسيون يعملون على نقض تلك المناسـبات ، ليلحقـوا بتجارة أعدائهم البوار ، فكانت المناسبات المقدسة فى ايدى حماة الشريعة منافســة ، يرفعهـا فريق ويحطها فريق •

يا ويل من يكسر يوم السـبت من رجال الدين ! لن يطـمئن ايمانهم حتى يرجموه ، ففى كسر السبت اثم كبير ، ولكن ما حرموه على الناس أحلوه لأنفسهم ، وما أيسر د من عمل أن يضعوا قاعدة جديدة « لا سبت فى الهيكل » فيوقدوا النـار ، ويذبحوا الذبائح ، ويختنوا الأطفال ، ويتناولوا النذور •

وذاع بين أروقة الهيكل أن نبيا قام فى الجليل . يبشر كيحيى باقتراب ملكوت السماء ، ويشجع الناس على ترك الذبائح ؛ يعلمهم أن الله لا ينال من لحوم الأضحيات ولا من دمائها ، وانه لا يريد من عباده الا التقوى ، فثار أعضاء السنهدرين ، أولئك الذين ورثوا شيوخ بنى اسرائيل ، ولكن لم يعملوا عملهم ، بل كانوا فى الفساد غارقين •

ساءهم أن يقوم ذلك النبى الجديد يفتـح عيون بنى اسرائيل

فيزعزع سلطانهم . ويقوض صرحهم الذى أقاموه على الخداع . ويفضح تعاليمهم . ويسد منافذ الخير فى وجوههم . فلو قر فى أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون ذبيحة ، ودون وساطة الكهان . لبارت تجارتهم ، وذابت قدسيتهم ، وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا اليه فريسيين متعصبين ، يتجسسون عليه ، حتى اذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه ، واستراحوا من خطره الذى أرقهم ، وأطار النوم من العيون .

أرسل أعضاء السنهدرين جواسيس يتربصون به ، وأرسل اليه هيرودس أنتيباس يدعوه أن يأتى الى قصره ، لا ليستمع الى تعاليمه ، فما كان مهتما بتلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحيى الذى يطارده فى اليقظة وفى المنام افزعه ، وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثأر لدمه ، فأراد أن يرى ذلك النبى ، ليستريح من هواجسه التى تضنيه ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وفى الجليل حشد الناس يصغون ، وأقبل جواسيس أورشليم يسمعون ، فراح يعظ الناس :

ـ اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم ، واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، واذا صلى فليرخ ستر بابه ، فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .

واستمر فى موعظته ، ثم خرج هو وتلاميذه الى الحقول ، كان اليوم سبتا ، فراح يفقه حوارييه فى الدين ، انهم لا يفهمون أمثاله . فيشرح لهم فى خلوته ما استغلق عليهم ، وما دق على افهامهم . واستمروا فى درسهم ، وجواسيس أورشليم على البعد يرصدونهم . يترقبون أن يقيموا عليه الحجة ليحاكموه .

كان عيسى يدعو بنى اسرائيل الى الله الواحد ، الى ما دعا اليه ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى والنبيون ، فلو أنه دعا مع

الله الها آخر . لوجد الفريسيون فى ذلك الشرك ما يبرر قتله ، ولكنه يؤكد فى كل مواعظه أنه جاء بشيرا ، وانه ما جاء لينقض شريعة موسى . بل ليكملها ويثبتها ، فكان من العسير أن يتهموه بالمروق والخروج على الدين .

عض الجوع الحواريين ، فهبطـوا الى حقـل . وقطعوا بعض سنابل القمـح ، ثم فركوها وذروها وأكلوها . ورأى الفريسـيون المتجسسون أن التلاميذ قد جاءوا أمرا ادا ، فالحصاد والدراس فى السبت من المحرمات ، وما قام به التلاميـذ من قطف وفرك ان هو الا حصاد ودرس . كسر الناموس فى يوم السبت ، وهى جناية تنطبق لها السماء على الأرض .

هرع الفريسيون الى عيسى غاضبين ساخطين ، وقالوا :

ـ فعل تلاميذك ، ما لا يحل فعله فى السبت .

كان عيسى يفهم عقليتهم ، انهم يخاصمون بالتوراة ولا يقبلون الا حكم التوراة . فلو انه حاول أن يبرىء تلاميذه بالمنطق والعقل ، لوضعوا أصـابعهم فى آذانهم ، ولأعرضـوا عنه ، ولجوا فى اتهاماتهم ، لذلك رأى أن يبرئهم ، بتذكير هؤلاء الغاضبين بحوادث مماثلة وقعت لأنبيائهم ، فقال لهم فى هدوء :

ـ أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معـه ، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة ، الذى لا يحل له أكله ، ولا للذين معه ، لأنه للكهنة فحسب ؟ أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنـة فى السبت يدنسون السبت فى الهيكل ؟ انى أقول لكم ان ههنـا أعظم من الهيكل . لقد جعل السبت للانسان ، ولم يجعل الانسان للسبت ، والله رب الأيام هو رب السبت أيضا .

وصمتوا كأنما ألقمهم حجرا ، وانسلوا يطوون صدورهم على حقدهم ، فان كان قد هزمهم هذه المرة ، فلن يهزمهم مرة أخرى ، سيتربصون به الدوائر ، وسيسقط فى أيديهم يوما ، ويومذاك لن ينقذ حرصه أو معرفته الناموس ، وابتعدوا يرقبونه ، يحصـون حركاته وسكناته .

خفقت شمس الأصيل ، ونفضت على الأفق الغربى نبتا أصفر وراحت تلم أشعتها لتودع الدنيا ، فانطلق عيسى وحواريوه الى المجمع ، ودلفوا اليه . فاذا الكتبة والفريسيون فى الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع اليه بناء به حادث وتوسل اليه أن يشفيه . فقال له :

ــ اذهب وقم فى وسط المجمع .

فذهب الرجل والفريسيون والكهنة يرمقون عيسى فى اهتمام يترقبون أن يشفى الرجل ، فيكون ذلك حجة على تدنيس السبت فالتفت عيسى الى الفريسيين الشامخين غرورا وقال لهم :

ــ أيحل فى السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخليص نفس أم قتلها ؟

لم ينبسوا بكلمة ، بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويناظروه ، بل جاءوا يترقبون خطأه ، ليقبضوا عليه ويحملوه الى المستهدرين .

فرماهم بنظرة حادة وقال لهم :

ــ اذا كان لأحدكم خروف وسقط فى حفرة فى يوم السبت ، ألا ينتشله ؟

أغرقوا فى الصمت ، بقيت عيونهم مثبتة به ، فنبت فى صدره غيظ ، ولكنه كظم ما به وقال :

ــ انقاذ انسان أفضل من انقاذ خروف ، اذ يحل فعل الخير فى السبوت .

وقال للبناء فى رفق :

ــ مد يدك .

فراح الرجل يمد يده ، فاذا باليد اليابسة تتحرك ، وعادت سيرتها الأولى ، وتحرك الغيظ فى صدر أعدائه ، فمالت رءوسهم ، وطفقوا يتشاورون ، حتى اذا اتفقوا على قتله وهموا به ، ألفوه قد غادر المجمع ، واختفى عن العيون .

٣٠

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » .
(قرآن كريم)

مواعظ تتدفق من قلب مشتعل بحب الانسانية ، ملتهب بالعشق الالهى ، وافئدة مؤمنة ، تفتحت لغيث الرحمة والعفو والصدق والاحسان . وقلوب قاسية ملئت كبرياء وحقدا . كان عيسى يدعو بنى اسرائيل الى الصلاح ، ويشرح الشريعة الموسوية ، ويعيد الكلم الى موضعه ، ويبث فيها روحا جديدا ، والمؤمنون يذهلون من عذب تعاليمه . والأعداء من الكتبة والفريسيين فى جببهم السود ، قلوبهم غلف ، يترصدون له أن يخرق الناموس ، ليقودوه الى حتفه .

كان يسلط نور تعاليمه على التقاليد البالية ، فيفضح رياء من نصبوا انفسهم حراسا على الدين ، اخذ يمجد الروح ، ويعلم الملأ ان الروح يحيا ، أما الجسد فيبلى ، ولا يفيد شيئا ، والكهنة يقدسون القبور ، ويبالغون فى تزيينها ، ويعظمون الموتى ، كان لا يخشى فى الله لومة لائم . وهم يتملقون العامة جلبا للثناء والمديح. يخزهم وخزا قاسيا ، ولكنهم ما كانوا قادرين على اقامة الحجة عليه .

الفريسيون يهتمون بالنظافة ، فقبل الأكل يغسلون ايديهم ، واذا عادوا من السوق غسلوا أيديهم ، واذا تنجست الأوانى المعدنية غسلوها بحسب ما تقضى به القواعد الموضوعة ، واذا

كانت الآنية النجسة من الفخار حطموها . ومبالغة فى الطهارة غسلوا « شمعدانات » الذهب . حتى أن أعداءهم الصدوقيين قالوا عنهم ساخرين : سيغسلون الشمس عما قليل .

ودعا الفريسيون عيسى وتلاميذه الى وليمة ، ليتناظروا فى عر الدين . فراح الفريسيون يغسلون ايديهم قبل الدخول ، اما تلاميذه فقد دخلوا وجلسوا الى الطعام دون أن يغسلوا أيديهم ، فسرع الفريسيون الى عيسى . وقالوا له فى عجرفة وكبرياء :

ـ لماذا يتعدى تلاميذك سنن الشيوخ ؟ لم يغسلوا ايديهم قبل الأكل .

فرمق المتمسكين بالتفاهات فى زراية وقال :

ـ وأنتم لماذا تتعدون وصية الله ، وتتمسكون بسنتكم ؟

فاتسعت عيونهم ، كأنهم يسألونه ان يفسر دعواه ، فقال لهم

ـ تقولون لأبناء الفقراء : أنذروا للهيكل تذورا ، فينذرون القليل الذى يجب أن ينفقوه فى عول آبائهم . فاذا احتاج الآباء الى هذه النقود ، صرخ الأبناء منذرين : هذه النقود نذر لله . فيصيب الآباء ضيق . ان الله يقول : أكرم أباك وأمك ، ولكنكم بسنتكم حرمتم الآباء بر الأبناء .

أيها الكذابون ، أيستعمل الله هذه النقود ؟ ان الله هو الغنى الوهاب ، انه يقول على لسان داود : « لا ينال الله لحوم الثيران ولا دماؤها » .

أيها المراءون ، عطلتم كلام الله وأحييتم سنتكم ، لقد تنبأ اشعيا عنكم ، قال : « هذا الشعب يسبح لى بشفتيه ، وقلوبهم غلف . يعبدوننى بالباطل ، فتعاليمهم وصايا للناس » .

التزموا الصمت ، فما ناقشهم الا افحمهم ، انه يقوض سننهم

فوق رءوسهم . وما يملكون الا الصمت ، والصمت البليغ .
وتضاءلوا كتلاميذ أمام عالم كبير ، وراح يعلمهم :

ـ اسمعوا وافهموا : ما يدخل فم الانسان لا ينجسه ، بل ينجسه ما يخرج من الفم .

فهم الفريسيون ما يرمى اليه ، كانوا أهل ثقافة . وما قتلهم الا غرورهم . فرحوا بما عندهم من علم ، فأعرضوا عن الآيات ، أما حواريوه فلم يفهموا شيئا . كانت عقولهم الضعيفة لا تتفتح للحكمة . فانتظروا حتى اذا خلوا به سألوه ماذا يريد بهذا مثلا .

أحس الفريسيون مرارة الهزيمة ، فتفرقوا . والحواريون يرمقون عيسى فى غبطة . كان نصره عليهم مبينا . وتقدم اليه تلاميذه وقالوا فى مرح :

ـ لما سمع الفريسيون قولك نفروا .

فقال عيسى فى هدوء :

ـ كل غرس لم يغرسه الله يقلع . دعوهم . هم عميان يقودون عميانا . وكل أعمى يقود أعمى ففى الهاوية يتردى .

وانطلقوا ، فسأله بطرس :

ـ فسر لنا ذلك المثل .

فرمقهم فى عطف . كان يحبهم ، يحب اخلاصهم ، يحب ايمانهم ، وان كانوا لا يفقهون أمثاله . قال :

ـ ألا تفهمون بعد ان كل ما يدخل الفم يمضى الى الجوف ، ثم الى الخارج ، وأما ما يخرج من الفم فيصدر من القلب . وذلك ينجس النفس ، فمن القلب تخرج أفكار خبيثة : قتل ، زنا ، فسق ، سرقة . شهادة زور ، كفر . هذه هى التى تنجس الانسان . وأما الأكل بأيد لم تغسل فلا تنجس الانسان .

وسار عيسى فى رحلته الدائمة ، انطلق الى نواحى صور

وصيدا ، وهو يحادث حوارييه ، واذا بامرأة كنعانية تركض وراءه قائلة :

ـ ارحمنى يا سيدى . يا بن داود . ابنتى تتعذب كثيرا ·

فلم يلتفت اليها . ما كان ذلك عن قسوة ، بل أراد أن يثبت فى اذهان تلاميذه الذين لا يمتازون بالفطنة ، حقيقة طالما رددها عليهم . واستمرت المرأة الكنعانية فى توسلاتها :

ـ ارحمنى يا سيدى ·

وصم اذنيه عن توسلاتها . لأنها لم تكن اسرائيلية . حتى ان تلاميذه عجبوا من أمره ، فما كان فظا غليظ القلب · وظلت المرأة فى صياحها :

ـ ارحمنى يا سيدى ، ارحمنى يا بن داود ، ابنتى تتعذب ·

وضاق تلاميذه بها ، فقالوا له :

ـ اصرفها لأنها تصيح وراءنا ·

فقال لهم :

ـ لم ارسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ·

هذه هى الحقيقة التى يريد أن تقر فى اذهان حوارييه ، قال لهم قبل أن يرسلهم مبشرين : الى طريق أمم لا تمضوا . الى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل بالحرى اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة (١) · وها هو ذا يعيد عليهم قوله مؤكدا أن الله بعثه رسولا الى بنى اسرائيل ·

---

(١) ان كل الآيات المضادة لهذه الآيات اما محرفة أو زائدة ، ويؤيد ذلك ما جاء فى « قاموس الكتاب المقدس » للدكتور جورج بوست الامريكى ، فقد ذكر أن خاتمة الاصحاح السادس عشر (مرقص ١٦ : ٩ ـ ٢٠) لم تكن فى نسخ انجيل مرقص القديمة ، بل أضيفت اليه فيما بعد ·

فسجدت المرأة عند أقدامه وقالت :

ـ سيدى أغثنى .

ولم تنهض المرأة الا بعد أن اطمأنت الى أنه قد شفى ابنتها باذن الله (١) .

---

(١) جاء فى انجيل متى : فأتت وسجدت له قائلة : يا سيدى أعنى . فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم يا سيدى والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك كما تريدين ! فشفيت ابنتها من تلك اللحظة .

وأربأ أن يكون هذا قد صدر عن الرسول الكريم ، فما يصدر هذا القول من انسان ذى قلب كبير ، واذا كان المسيح قد قال ذلك كان وصمة لكل من اتبعوه من غير بنى اسرائيل .

٣١

« وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله . فاذا جاء امر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

(قرآن كريم)

الليل والشجر ساجدان . والكون خاشع تدثره قدسية وجلال . وعيسى شاخص الى السماء يناجى الله . فالغيوم تتكاثف حول رسالته . والعداوات المريرة أطلت بوجهها البغيض . فخلا بربه يستمد منه عونه وتأييده .

كان يدعو الناس بالحسنى والموعظة الحسنة . كان رقيقا شاعرا . يبغى أن يجلب للبشر سعادة . رءوفا رحيما . يتحاشى ايلام الناس . ولكن أعداءه أعلنوا الحرب عليه . وأشعلوا نار العداوة والبغضاء . فلم يعد للسلم مكان . سيقابل العداوة بالعداوة . واذا أمده الله بسلطان . فسيقابل القوة بالقوة حتى يضع الحق . فما كانت الشرائع الصالحة تغرس فى الأرض بأغصان الزيتون . ومعسول الكلام .

للباطل جنوده وأعوانه . وهم قساة غلاظ القلوب . فجرة لا يرعون حرمة . ولا يقفون فى عداوتهم عند حد . فاذا لم يحشد الحق أعوانه . ويشهرها على الباطل حربا لا هوادة فيها . فسيزهق الحق . ويمكن للباطل فى الأرض . ويسود العالم الفساد .

وانبثق الفجر . وعيسى فى خشوعه فأحس كأن قوة أريقت فى جوفه . فتيقن أن الله رب الحب . هو رب القوة أيضا . أمده بسلطان ليصرخ فى وجوه أعدائه بالحق دون أن يخشاهم . ذلك السلطان

المهيب الذى أمد به من أرسلهم من قبله . وقام عيسى فاسرع حواريوه اليه ، وراحوا يصلون ، ولما قضيت الصلاة ، انطلقوا يستقبلون عهدا جديدا من الجلاد والكفاح والاضطهاد فى سبيل التبشير باقتراب ملكوت السموات .

وجاءت الجموع زمرا تعيره السمع ، وجاء جواسيس أورشليم مثقلين بالرياء ، يترقبون من الناس الاحترام والتوقير ، وقد ملأت قلوبهم الاحن ، يصغون اليه ، ليقيموا عليه الحجة ، وما كانوا مصدقيه ، ولو جاءهم بملائكة من السماء يشهدون له .

وقام الرسول يعلن الملأ بالحقيقة الجديدة :

ــ من ليس معى فهو على :

رمقه الناس فى دهش ، كانت فى عينيه الصافيتين قوة ، وبدا الحمل فى اهاب أسد ، عودهم ناعم القول ، والمواساة والعطف ، والتسامح وحب العدو ، واذا به اليوم يعلنها مدوية : انه لم يعد ذلك المتشبث بأهداب السلام ليهنأ بالسلامة ، بل رجل الحرب الذى يبرز للنزال ، فاما انتصر فى سبيل مبدئه أو هلك دونه .

وران على الجميع هدوء ، كانوا يقبلون اليه يرشفون من نبع حكمته ما يملؤهمنشوة ، ثم يدعونه ويعودون الى دورهم آمنين ، وما كان فى ذلك نصب لهم ، بل كان فيه لذة ، أما أن يدعوهم الى الانضمام اليه على السلطة ورجال الدين ، فدون ذلك مخاطر واهوال ، وما كانوا يركبون الصعاب طائعين ، فقال لهم :

اجعلوا الشجرة طيبة وثمرها طيبا ، أو اجعلوا الشجرة خبيثة ، وثمرها خبيثا ، لأن من الثمرة تعرف الشجرة ، يا أولاد الأفاعى ، كيف تتكلمون بالصالحات وأنتم فجرة ، فمن فضلة القلب يتكلم الفم ، الصالح يخرج الصالحات من الكنز الصالح فى القلب ، والطالح يخرج الشر من الكنز الخبيث .

أقول لكم : ان كل كلمة خبيثة ينطق بها المرء يحاسب عليها يوم الدين ·

انفعلت الجموع ، كأنما لا تنفعل الا بالقوارع ، ان هذا الصوت يذكرهم بصوت حبيب ، بصوت يحيى الشهيد : « يا أولاد الأفاعي » كانت لهم فى نفوسهم أثر السحر ، انها الوصف الذى ألبسه يحيى للفريسيين الوافدين اليه من السنهدرين ، وهو نفس الزجر الذى يوجهه عيسى الى جواسيس أورشليم · وكادت الجماهير تتجاوب لدعوته ، وكادوا جميعا يعلنون فى ثورة حماستهم ، انهم معه على أعدائه وأعداء الدين ، وفطن الفريسيون الى ما يعتمل فى نفوس الجمع ، فأرادوا أن يريقوا على الجذوة المتأججة فى الصدور ماء باردا ، فقالوا :

ـ نريد أن نرى منك آية ·

خبت النار المندلعة فى الأجواف ، فما يطلبه الفريسيون حق ، جاء أنبياء بني اسرائيل بالآيات ، وقد سمعوا أنه شفى المرضى ، وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، ولكنهم لم يروا بعيونهم شيئا ، فلو شاء أن يتبعوه ، وأن يكونوا معه لا عليه ، فليأتهم بآية من ربهم ليصدقوه وتطمئن قلوبهم ·

واتسعت العيون واشرأبت الأعناق ، وكتمت الأنفاس ، وساد المكان ترقب وانتظار ، كأنما الآيات شعوذة مشعوذين ، أو سحر ساحرين ، وما دار بخلدهم أنه ما كان لرسول أن يأتى بآية الا بإذن الله ·

ورنا عيسى الى الجموع الغارقة فى الجهالة رنوة غضب ، ثم قال :

ـ جيل شرير فاسق ، يطلب آية ولا تعطى له ·

وارتفعت أصوات الحنق والغضب ، وراح الفريسيون يزكون

ثورة الجماهير ، وينفضون الناس من حوله . فانجابت الجموع كما ينجاب السحاب . وبقى عيسى وحيدا وحوله حواريوه وفى القلب اسى . وفى الوجوه امارات الحزن العميـــق ؛ واقترب فريسى من عيسى كالأفعى ، وأظهـر له الود ، ودعاه الى الغـداء ، ولو كان مخلصا لدعى حوارييه معه . ولكنه دعاه وحده .

ودلف الوســول الى بيت الفريسى ، فالفى نفســه بين اناس يتطلعـون اليــه فى تحد ، فى عيـونهم شر ، وفى جلوسهم كبر ، ووجوههم تنضح بخبث ما فى القـلوب ، فلم يضطرب ، ولم يراء مثلهم ، فلم يذهب ليغسل يديه ، بل انطلق الى المائدة وجلس .

ارتسمت بسمات الزراية على الشفاه ، وقام اليه أحدهم وقال :

ـ لم تغسل يديك قبل الأكل .

فأدار عيسى عينيه فى المتكئين الى المائدة وقال :

ـ انكم أيها الفريسيون تطهرون القصعة وخارج الكاس ، أما بواطنكم فمملوءة شرورا وخبثا ، يا أغبياء من صنع الظاهر صنع الباطن ، تصدقوا بما عندكم يتطهر كل شىء ، ولكن ويل لكم أيهـا الفريســيون ، يا من تعشرون النعنع والســـذاب وكل البقـول ، وتتجاوزون عن محبة الله والحق ، كان عليكم أن تعلموا هذه ولا تتركوا محبة الله والحق .

ويل لكم أيها الفريسيون ، يا من تحبون الصدارة فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق .

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم مثـل قبور مختفية ، من يمشون عليها لا يعلمون .

فظهر الغضب فى وجه واحد من الناموسيين ، وقال قاطعا نهر توبيخاته المتدفق :

ـ انك تشتمنا نحن أيضا بهذا القول .

لم يقف هذا الاعتراض فى وجه النهر ، بل حوله بكل قوته وكل اندفاعه ، فراح عيسى يكيل للناموسيين المتزمتين التهم :

ـ وويل لكم أيها الناموسيون ، تضعون على عواتق الناس أحمالا لا يطاق حملها ، وأنتم لا تمسونها بأصبعكم . ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم ، كأنما تشهدون وترضون بأعمال آبائكم ، كذلك قالت حكمة الله : انى ارسل اليهم أنبياء ورسلا ، ففريق يقتلون وفريق يكذبون . ليقع على هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ الخليقة ، من دم هابيل الى دم زكريا (١) .

ويل لكم أيها الناموسيون ، أخذتم مفتاح المعرفة ، فما دخلتم ، وما تركتم غيركم يدخلون .

وفاض مرجل غضب الفريسيين والكتبة ، فقاموا ليبطشوا به ، واذا بأصوات تلاميذه وأنصاره تصك آذانهم ، فخافوا أن يمسوه بسوء خشية ثورة المؤمنين ، وغادرهم وخرج ، وهم يصرفون أنيابهم فى حنق شديد .

خشى الحواريون أن يكون الفريسى قد دعا الرسول وحده ، ليتفرد به أعداؤه ، وينالوه بمكروه ، فجمعوا أنصاره وعند باب البيت وقفوا ينتظرون ، فلما انقضى بعض الوقت ولم يعد ، تناجوا وارتفعت أصواتهم حتى وصلت الى مسامع المتآمرين ، فملأت قلوبهم رعبا ، فخرج الرسول مرفوع الجبين .

نظر عيسى الى الجموع ، ولا تزال جذوة الغضب مندلعة فى صدره ، فقال :

ـ تحرزوا من الرياء ، خمير الفريسيين ، ما تبطن يظهر ، وما

---

(١) يلاحظ ان زكريا لم يقتل ، وقيل انه يقصد زكريا آخر غير النبى ولو كان ما قيل صحيحا لوجب أن يقول « الى دم يحيى » فيحيى آخر من قتل . والظاهر أن هذه العبارة زائدة .

تخف يعلن . لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور . وما كلمتم به الأذن فى المخادع . ينادى به على السطوح ·

واستمر فى موعظته حتى قاطعه أحد السامعين :

ـ قل لأخى يقاسمنى الميراث ·

لم يكن عيسى مأمورا بتأسيس شريعة جديدة ، ولم يأت بدين ناسخ لدين موسى . ما جاء الا ليبشر بقرب ملكوت الله ، ذلك الملكوت الذى يوحد الدين والدولة معا . ذلك الملكوت الذى سينظم الميراث ، لذلك قال للرجل :

ـ يا انسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو مقسما ·

ما جاء عيسى لينظم ويشرع ، بل جاء بالانجيل ، بالبشارة . بالأمل ! بالسعادة الحقيقية ! بالأمر العظيم ·

٣٢

« ان هو الا عبد أنعمنـــا عليه ، وجعلنـــاه مثلا لبنى اسرائيل ».

(قرآن كريم)

تغشـت السـماء بسحب دكنـــاء ، وخيم على الكون ظلام ، وانسابت السفينة فى بحر لجى ، ظلمــات فوقها ظلمــات ، وجلس عيسى وحواريوه مطرقين ، انهم قليــل مستضــعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، لقد اضطهدهم الفريسيون فى كفر ناحوم . ولاحقوهم بالعداوة والبغضاء حتى اضطروهم الى الفرار الى الوثنيين ، الى نواحى صور وصيدون .

عاشوا بين عبدة الأوثان آمنين ، كانوا أراف بهم من شيوخهم وأحبارهم ورهبانهم ، ومن أقاموا أنفسهم حراسا على تراث موسى التليد . وما دار بخلدهم أن ذلك الذى يحاربونه أحق بموسى منهم ، فهو رسول وموسى رسول .

لم يركن عيسى الى الراحة والدعة . فقــد اصــطفاه الله ليبلغ رسالته ، ولم يختره ليفر من الاضطهاد الى الأمن والهدوء . فلو أن الله أرســله الى الأمم لبقى بين هؤلاء الوثنيين يهديهم الى نور التوحيد ، ولكن الله أرسله الى بنى اسرائيل ، فعــاد الى السفينة بعد أن التقط أنفاسه ، وانطلق الى الجليل ، الى أعدائه الفريسيين لينازلهم ، فاما قهرهم واما قهروه .

لم يذهب الى كفر ناحوم ، فاعداؤه هناك يترقبون ، فاتجه الى مجدلة ، الى بلدة مريم ، ليعظ الناس ويجد فى بيتها بعض الراحة التى فقدها بعد ان هجر بيت امه فى الناصرة ، يجوب البلاد اليهودية يبشر باقتراب الملكوت .

واقتربت السفينة من الشاطىء ، وما مست أرجلهم الأرض حتى وجدوا أعداءهم ينتظرونهم ، كانوا يتجسسون عليهم ويعدون حركاتهم ، فعرفوا وجهتهم ، وسيقوم ليقابلوهم فى تحديهم المقيت .

ولم يكن الفريسيون وحدهم ، بل كان معهم أعداؤهم الصدوقيون ، تناسوا ما بينهم من احن ، وطووا فى أكبادهم مرارة النفوس ، واتحدوا لمكافحة العدو المشترك حتى اذا فرغوا منه ، عادوا سيرتهم الأولى من التنافر والتشاحن ، وما كانت تلك العداوة التقليدية تزعزع سلطانهم ، او تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

لم يعادوه لأنه جاءهم بدين ينقض دينهم .. أو لأنه انكر انبياءهم ، أو دعاهم الى عبادة اله آخر غير الههم ، فما فعل شيئا من ذلك ، فهو يحفظ الشريعة ، ويتمثل بأقوالها ، ويدعو الى ما دعا اليه الرسل من قبله ، ويحاول اصلاح بنى اسرائيل ، وتقرير ان الشريعة ليست حروفا بل هى روح ، ولكنهم عادوه واتفقت كلمتهم عليه ، لأنه جاء يعلم الناس أن يتقربوا الى الله دون وساطة ، ولو اتبع الناس تعاليمه لاندثرت مكانتهم ، ودرست سطوتهم ، وخلعوا المسوح التى تمكنهم من أكل أموال الأرامل واليتامى ، كانوا فى حربهم له يذودون عن كيانهم وعما هم فيه من رغد ونعيم .

واجتمع الناس اليه ، وهم بأن يعظهم ، فقال له الفريسيون :

— لن نصدقك حتى تأتينا بآية من السماء .

فطلبت الجموع منه ان يأتيهم بآية ، فران الحزن عليه ، ولاح الأسى فى وجهه وقال فى مرارة وهو يتنهد :

ـ لماذا يطلب هذا الجيل آية ، الحق أقول لكم لن يعطى هـذا الجيل آية ٠

كانوا يريدون أن يروا برق البروق وقصف الرعود ، أو نزول مائدة من السماء ، أو يرزقهم المن والسلوى ، فالتفت الى الغرب ، فرأى آية الله : الشمس غارقة فى بحر الدماء ، فأشـار الى تلك الآية ، ولكنهم أعرضوا عنه ، ومنحوه ظهورهم ، فعاد الى السفينة مطرق الرأس ، يحز فى نفسه اعراض الناس عن دعوته ٠

وأقلعت الســفينة والشمس تنحدر ، وتصــطبغ المـاء بلون الارجوان ، وراحت تغوص فى الماء حتى أطبق عليها اليم ، وساد الظلام والسكون ولم يعد يسـمع الا أصـوات المجاديف ، وزفيف النسيم ٠

وفى غبش الليل لاح لعينيــه كفـر ناحوم ، مدينـة الذكريات الحبيبـة ، ذكريات شروق دعوته ، ذلك الشروق الرائع الذى كان يغـرى بالتفـاؤل ، والاغراق فى التفـاؤل ، ولكن ما أقصر ذلك الشروق ، تجمعت سحب المقـاومة ، لتحجب بينـه وبين أنصاره ومريديه ٠ ان قلبه يخفق لكفر ناحوم ، وروحه تهفو الى شاطئها ، وكل خالجة فيه تحن الى سفح جبالها ، تلك البقعة المباركة التى طالما وعظ فيها الملأ من بنى اسرائيل ٠

انه يحس فى تلك اللحظة احساسات الواقف على أطلال مدينة كانت عليــه عزيزة ، فالأسى ينـداح فى جوفه ، حتى لتكاد دموع الحزن تطفر من مآقيه ، لو خلى أعداؤه بينه وبين ما يريد لذهب الى مجمع كفر ناحوم يعظ الجموع ، ولكن الفريسيين والصدوقيين هناك ، بعداوتهم يتربصون ٠

وبلغ الظـلام الشاطىء الجميل ، واستمرت السفينة فى شرود حتى اذا بلغت بيت صيدا ألقت مراسيها ، وهبط عيسى وحواريوه ، وانطلقوا فى المدينة التى بدت كأنما استعارت من رومية مبانيها ، ولبثوا فيهـا يوما أو بعض يوم ، ثم انطلقـوا حتى بلغوا أرباض قيصرية ، وفى الطريق التفت الى أصحابه وقال :

ـ أيعرف الناس من أنا ؟

أحس حواريوه مرارة ، أيقولون له ان الذين يعظهم فى غدوه ورواحه لا يعرفونه ، وصمتوا قليلا ، وكان الصمت أمر من الكلام . فقالوا :

ـ يقولون انك يحيى ، وآخرون يقولون انك ايليـا ، وآخرون يقولون انك نبى من الأنبياء .

يا للمرارة ، يذوب من أجل النـاس وهم لا يعـرفونه ، وقال لحوارييه :

ـ وأنتم ما تقولون ؟

فقال بطرس فى اندفاعه :

ـ أنت المسيح .

اتحد الفريسيون والكتبة والصدوقيون لمحاربتـه ، ولجأوا فى العداوة والبغضاء ، وراحوا يطاردونه فى كل مدينة وهم يحسبونه نبيا من أنبياء بنى اسرائيل ، أو دعيا من أدعيائهم ، فاذا بلغهم أن أنصاره يقولون انه المسيح أجج ذلك نار عداوتهم ، ونفخ فى جمرة بغضـائهم ، وزاد فى مقـاومتهم . وما كان باحثا عن اضرام العداوات ، بل كان يرجو أن يبلغ رسالته ، ويحالفه التوفيق ، فقال لتلاميذه محذرا :

ـ لا تذكروا ذلك لأحد .

وطوى الحواريون صدورهم على سره .

٣٢

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ، قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك ، تضل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين » .

(قرآن كريم)

غسق الليل بعد ذهاب النهار . ونفضت الرمال عنها حرارة الشمس ، وأراق القمر أشعته ، فانداحت حتى وسعت الأرض والماء والجبال ، وألبست الكون ثوبا رائعا من الحسن .

وشمخ جبل حرمون فى كبرياء ، فما كان يتطاول اليه ما حوله من تلال وجبال ، وقد أكرمه الله ، فتوجه بتاج متألق ناصع من جليد ، كان يعتز به ، لا يخلعه فى صيف أو شتاء .

كانت سفوحه مرتعا من مراتع الحسن ، تنمو فيها الأزهار والنوار ، وتترنم فيها الطيور بعذب الألحان ، وتجرى فيها جداول رقراقة صافية هاطلة من القمة الخيرة الجوادة بماء الحياة ، كان حرمون وحى الخيال ، فألهم الشعراء الغناء والتسبيح بالجمال .

وانطلق عيسى وبطرس ويعقوب ويوحنا فى سكون الليل ، فبدا لهم جبل حرمون فى فوف من ضوء القمر رائعا يهز المشاعر . وراحوا يصعدون فيه ، يخترقون السفوح الخضر ، وزرعا مختلفا ألوانه ، ويملئون صدورهم بأنفاس عطرها أريج الزهر ، ورطبها برد الثلج ، فانتشت أرواحهم ، وأثرت تلك الروعة فيهم ، فتفتحت نفوسهم ، واستعارت القلوب من الرقة السائدة عذوبة وسلاما .

انطلقوا وكأنما هدأ كل شيء ، وأصاخ السمع لوقع أقدامهم . فهم خارجون الى حرمون لميقات ربهم ، كما خرج موسى وقومه الى طور سيناء ليروا الله وتطمئن قلوبهم .

انطلقوا حتى اذا بلغوا مرتقى عاليـا ، وقف بطرس ويعقوب ويوحنا . واستمر عيسى فى رقيه ، يبدو لعيونهم كشبح أسود انطبع على صفحة الجليد الناصعة . ووقف وراح يدعو الله قانتـا آناء الليل ساجدا وقائما ، يرجو رحمة ربه . ودثر الكون قدسية . وبدا كأنمـا الأرض تتأهب لاسـتقبال وحى السماء ، صـفاء وخشوع وطمأنينة وسلام .

ونامت عيون بطرس ويعقوب ويوحنا ، كان ذلك الجمال يغرى بالنوم ، ولذيذ الأحلام ، نهكتهم الرحلة الدائمة . فمـا انتهوا من صلاتهم ، ومست جنوبهم العشب الأخضر الحشـون ، حتى راحوا فى سبات .

نامت كل العيـون الا عين عيسى ، كأننا معلقتين بالسماء ، يستشف الحكمة ، ويستمد القوة ، ويستلهم وحى الله ، وصـفت روحه حتى كانت أصفى من الجليد ، وهدأت نفسه حتى كانت أهدأ من الكون الهاجع ، وانسكبت فيه طمأنينة عجيبة ، فقد كان فى تلك اللحظة أقرب ما يكون من الله .

وسقط من السماء ضوء باهر ، وغرق الجبل فى غمرته ، وكان سناه قويا حتى ان النوّم هبوا من نومهم ، وفتحوا عيونهم ، فألفوا عيسى يتألق فى الضوء ، فرمقوه فى دهش ، واذا بالضوء يزداد فيغشى عيونهم ، واذا بأرواحهم لا تطيق ذلك السنا ، فأخذتهم رجفة ، وخروا على وجوههم صعقين ، فقد أرسـل الله على عبده سكينة مضيئة بهرتهم ، وكأنما سلبت منهم الروح .

غشى عليهم ، وظلوا غائبين عن الدنيا حتى هبط اليهم عيسى ،

وراح يطمئنهم ، ويسكن خوفهم ، فلما أفرخ روعهم ، قاموا يرنون اليه فى اجلال ، رأوا ما كانوا يقرءون عنه فى التوراة ، رأوا السكينة التى أرسلت الى موسى ، وخروا ، كما خر قوم موسى ، صعقين .

وهبطوا من الجبل صامتين ، كانت حادثة الليلة عجيبة ، استبدت بجوارحهم وأفكارهم ، وفيما هم منطلقون ، قال لهم عيسى

ـ لا تذكروا لأحد شيئاً مما رأيتم .

كان يخشى أن يقع الحسد فى قلوب حوارييه ، فقدب بينهم العداوة والشقاق ، وتنزل صدورهم الاحن ، فتزداد متاعبه . يريد أن يأتيه حواريوه بصدر سليم ، وكفاه عداوة الفريسيين والصدوقيين والناموسيين .

تحقق الليلة لهم أنه المسيح ، النبى الذى سيرسله الله خاتما لأنبياء بنى اسرائيل . لقد قالت البشارات أنه نبى عظيم ، وثبتت الليلة عظمته ، أكرمه الله بما أكرم به موسى الكليم .

وقفزت الى أذهانهم اعتراضات الكتبة والكهنة والفريسيين . وخطر لهم ن يسألوه ، ولكنهم كانوا يحسون منه رهبة ، وان كان يعطف عليهم ويواسيهم ويفتح لهم قلبه الكبير . وطووا تلك الاعتراضات التى راحت تحتل تفكيرهم ، ولجوا فى صمتهم .

الطريق طويل ، والهدوء شامل ، ولا شىء غير التأمل والتفكير ، ودوت فى نفوسهم اعتراضات المكذبين برسالته ، ولم يقووا على خنق ذلك الدوى المتردد فى رءوسهم ، فقالوا له :

ـ لماذا يقول الكهنة ان ايليا ينبغى ان يأتى أولا ؟

كان الاعتقاد السائد أن ايليا ينهض من الأموات ويرد الى بنى اسرائيل التابوت فيه سكينة وبعض ما ترك موسى وهارون ، فالنبى ملاخى يقول على لسان ربه : « هأنذا أرسل اليكم ايليا

النبى قبل مجىء الرب ، اليــوم العظيم » . فاذا كان هو المسيح المنتظر ، فكيف لم يأت ايليا قبله ؟

فقال لهم عيسى فى هدوء :

ـ ان ايليا يأتى أولا ويرد كل شىء ، ولكننى أقول لكم ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا .

وصمت قليلا ، ثم قال :

ـ كذلك ابن الانسان سيتألم منهم .

ترى أيحدثهم عن الاضطهادات التى يقاســيها ، أم يتنبأ عن الاضطهادات المطوية فى الغيب القريب ؟

وأراد تلاميذه أن يسألوه عن ايليا الذى ســبقه ، ولكن هيبته عقلت ألسنتهم فصمتوا ، واقتنعوا أنفسهم أنه يقصد يحيى . يحيى الذى جاء قبله يبشر باقتراب ملكوت السموات ، يحيى الشهيد .

٣٤

« انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

(قرآن كريم)

نودى فى القرى اليهودية وفى المدن وفى أورشليم : « اخرجوا الى الجبل ، وأتوا باغصان الزيتون ، وأغصان زيتون برى ، وأغصان آس ، وسعف النخل وأغصان أشجار لعمل مظال » فقد كتب الله على بنى اسرائيل ثلاثة أعياد لشكره على اخراجهم من مصر ، وانقاذهم من العذاب المهين : عيد الفصح ، وعيد الأسابيع ، وعيد المظال .

ففى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين ، عقب أن يجمع بنو اسرائيل بيادرهم ، وينتهوا من معاصرهم ، يخرجون رجالا ونساء ، وشبانا وأطفالا وشيبا الى الخلاء ، يعيشون فى مظال ، يقدمون قرابينهم ، ويمضون الأيام فى سرور ومرح ، حتى اذا ما انتهت أيام عيد الحصاد عادوا الى ما كانوا فيه .

وكان القادرون يشدون الرحال الى أورشليم ، يصلون فى الهيكل ، ويمضون الأيام فى مظلات أقيمت فى الخلاء ، فراح الناس يتأهبون للخروج ، واجتمعت الجموع فى أورشليم ، ووافى يوم العيد ، فانطلق الناس الى الهيكل ، وقرعت الطبول ، فدبت الحماسة فى الصدور ، كانت طبول الهيكل تدق نشيد النصر ، وبدأت الصلاة ، فراح الجميع يرددون فى خشوع : « اسمع

يا اسرائيل ، الهنا اله واحد ... » والأطفال يرددون « امين » .
وقضيت الصلاة ، فقام القراء يقرءون الناموس ، وذبح فى المذبح ثلاثة عشر ثورا ، فالشريعة تقضى بذبح سبعين ثورا فى أيام العيد قربانا لله ، على أن تنقص القرابين قربانا كلما انقضى يوم من أيام العيد .

وغادروا الهيكل الى مظالهم ، وراحوا يتسامرون ، ويتناجون ويتساءلون فى همس ، عن عيسى الذى أقلق الكهنة ، ويقولون « أين ذاك ؟ » ، كانوا يحسبون أنه قادم فى العيد ، يدعو الناس الى الذى أرسله ، ولكن انقضى اليوم الأول ولم يظهر ، وانقسموا فيه : فريق يقول : انه صالح ، وفريق يثور ، ويتهمه بأنه أضل الجميع .

وكان حديثهم نجوى ، لا يقدرون أن يرفعوا أصواتهم بذلك الحديث ، لخوفهم من رؤسائهم ، فما كانوا يجرءون على اعلان رأى الا اذا وافق عليه أعضاء السنهدرين ، المجلس الموقر .

كان العيد للعبادة والشكر ، ولكنه انقلب الى عيد لتحصيل اللذة ، الفتيات والفتيان فى ضوء القمر يتناجون ، وأنغام الموسيقى الناعمة التى تلهب الحواس ، تهتك سكون الليل وقدسية المكان ، والنشوة تعبث بالرءوس ، فيتبخر التحفظ والوقار ، أصبح العيد رمزا للحرية والتحرر والانطلاق .

انقضى من العيد أيام ، واطمأن أعداؤه الفريسيون والصدوقيون والكتبة ، الى أنه لن يقدم يكدر صفو العيد ، واذا به قد جاء الى أورشليم ، وراح يمر بين الجموع التى تموج بها المدينة ، لا يلحظه أحد ، كانوا يعرفون اسمه ، ولكن ما أقل من يعرفون هيئته ، فما كان يميزه عن آلاف الرجال شىء ، فالعين لا ترى عظمة النفس ، وانطلق حتى أتى الهيكل ، ودوت الطبول ، وقرئت الشمة

والناموس ، وقام عيسى فى رواق من أروقة الهيكل يعلم الجماهير ، فحشر الناس زمراً يصغون ٠

انقلب سرور أعدائه غما ، كانوا يحسبون أن العيد سينقضى دون أن يقدم ليفسد عليهم الملأ من بنى اسرائيل ، واذا الجموع تتهافت عليه ، وتظهر اعجابها بما يقول ، وراحوا يقولون :

ـ ما أعجب تعاليمه ، انه ليجمع بين مدرسة هلليل ومدرسة شماى ٠

ـ كيف يعرف الكتب ولم يتعلم ؟

ـ أليس هذا عيسى الناصرى ؟

ـ وهل يخرج من الناصرة شىء صالح ؟

وفطن عيسى الى همسهم ، وحزر ما يدور بينهم ، فقال :

ـ تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى ، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق ٠

وتحرك الفريسيون ، والشرر يتطاير من عيونهم ، ووقعت عيناه عليهم ، فقال :

ـ لماذا تطلبون قتلى ؟

لم يكن يخشى الموت ، ولكنه يريد أن يمكن لدينه فى الأرض ، لم يكن أمامه فسحة من الوقت ليبلغ رسالته ، ويعلنها ساطعة ناصعة ، وأتباعه من الأغفال ، الذين لا يفهمون تعاليمه كل الفهم ، كلما ضرب لهم مثلا سألوه عن تأويله ، انه لا يطمئن أن يترك هذا الدين وديعة فى أيديهم ، وخاف الفريسيون ثورة الجماهير المفتونة به ، وما أيسر أن تثور ، فقال الفريسيون مظهرين العجب :

ـ بك مس ، من يطلب قتلك ؟ !

كان يعرف أن الحجة التى يقيمونها عليه ، هى العمل فى السبت ، ولا حجة غيرها ؛ فقال لهم مبررا كسره ذلك اليوم المقدس :

ـ أعطاكم موسى الختان (١) ،والختان ليس من موسى ، بل من الآباء ، ففى السبت تختنون الأولاد ، فاذا كان الانسان يقبل الختان فى السبت ، لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت انسانا فىالسبت ، لا تحكموا بالظواهر ، بل احكموا حكما عادلا •

فقال قوم من أهل أورشليم :

ـ أهذا الذى يطلبون أن يقتلوه ؟

وراح عيسى يقول :

ـ لم آت من نفسى ، بل أرسلنى الحق ،الذى لا تعرفونه •

ثار اليهود ، فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة بالله ، وها هو ذا القادم من الناصرة يتهمهم بأنهم لا يعرفونه ، يتهمهم بالكفر به ونكرانه ، وهجموا عليه ليمسكوه ، ولكنه اختفى دون أن يروه ، فقد كان قادرا على الافلات من أيدى الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول ، وغمغموا :

ـ هذا سحر مبين •

وذهب عيسى الى المظال ، فاذا صخب ماجن ، وضوضاء فاجرة ، وضحكات خليعة فاسقة ، وأغانى ماجنة ، كان المكان المقدس أشبه بملهى من ملاهى الوثنيين ، تعرض فيه ألوان الفسق والفساد ، والفريسيون والكتبة والصدوقيون يجوسون خلال المظال صامتين خاشعين ، كأنما كانوا فى محراب مقدس •

لم يرتفع لأحدهم صوت اعتراض ، كأن ما يقع تحت أبصارهم لا يخدش الناموس ، ولا ينقض شريعة موسى ، أما اذا قام هو فى

---

(١) المقصود أن الختان من الآباء ابراهيم واسحاق ويعقوب ، لا من الكهان الآباء ، كما فهم بعضهم ، فحرموا الختان •

الهيكل يعظ الناس ، ويدعوهم الى الله الواحد ، فقد تصدعت الشريعة ، وتلمسوا الأسباب ليقتلوه ، ويستريحوا من دعوته ، التى ما جاءت الا لتفض الناس من حولهم ، وتنزع منهم السلطان .

وفى الصباح ، بعد أن دقت الطبول ، وقدمت القرابين ، وقضيت الصلاة ، جلس يعظ الناس ، غير هياب ولا وجل ، أرسله الله لا يخشى فى الحق لومة لائم ، فليصرخ بها فى وجوه الجميع مدوية .

ورفع بصره ، فاذا جموع قادمة تدفع امرأة ، والمرأة تخفى وجهها بيديها وشعرها ، ووقفت المرأة ذليلة ، خافضة الرأس ، فتحركت شفقته ، وأقبل نحوه الفريسيون ، وقالوا فى قسوة :

ـ هذه المرأة وجدناها فى زنا ، وناموس موسى يأمر برجمها ، فماذا تقول أنت ؟

كان ذلك الناموس معطلا ، عطله رئيس كهنتهم ، بعد أن حاكى بنو اسرائيل الرومان حتى فى المفاسد ، فتفشى الزنا فيهم ، وكان الفريسيون يعلمون ذلك ، لكنهم أرادوا أن يحرجوه بخبثهم : اذا أمر بتركها ثاروا للناموس ، وأرغوا وأزبدوا ، وطالبوا بدم المارق ، الناقض للشريعة ؛ واذا أمر برجمها تحدى السلطة التى عطلت هذا الحد من الحدود .

ولم يرفع عيسى رأسه ، وان كان بسريرته يلحظ الرياء الذى يقطر من وجوههم ، وساءه أن يقيم الخطاءون من أنفسهم حكاما للخطيئة ، ولم يحترم المرأة التى اقترفت الزنا ، ولكنه يرى أن متهميها لا حق لهم فى رجمها ، كلهم غارقون فى الدنس ، وما ثاروا ثورتهم الا رياء ، فحنى ظهره ، وراح يكتب باصبعه على الأرض :

ـ من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

وكأنما غشاوة الرياء تمزقت عن أعينهم ، فتمثلت لهم

خطاياهم ، ورأى كل منهم نفسه فى حمأة الفسق ، فندبت جباههم خجلا ، وأطرقوا رءوسهم خزيا ، وطفقوا ينسلون واحدا اثر آخر ٠

وبقى عيسى مطرقا ، والمرأة واقفة ترتجف عارا ، وقام عيسى ونظر ، فاذا المرأة وحدها فى وسط الهيكل ، فقال لها :

ــ أين الذين جاءوا بك ؟ أما دانك أحد منهم ؟

ــ لا يا سيدى ٠

ــ وأنا لا أدينك ، اذهبى ولا تخطئى ثانية ٠

ومشت المرأة تجر ذيولها ، وخرج عيسى الى الوفود يدعوهم الى تصديق رسالته ، وجاء اليوم الثامن ، فهب الناس فى البكرة ، فى ثيابهم الجدد ، فى أيديهم « اللبلاب » مجدول من لباب النخيل ، وراحوا يتدفقون على الهيكل ، وبدأت المراسيم ، ووضعت تقدمة الصباح على الهيكل ، وحمل كاهن كبير ابريقا من الذهب ، وسار فى موكب عظيم حتى غادر الهيكل ، وذهب الى جبل صهيون ، وفى بركة سلوام اغترف ثلاث غرفات فى خشوع ، وعاد الموكب العظيم ، وانسابت الأنغام المتدفقة من الأبواق المقدسة ، والكاهن يتقدم ٠ وقد غمر الجموع فرح ، فراحوا يلوحون بما فى أيديهم من « لبلاب » ، وصب الكاهن الماء فى وعاء فضى ، وصب خمرا فى وعاء آخر ، وارتفعت أصواتهم بالتهليل ، ذلك التهليل الذى رجعه داود ، صاحب المزامير :

هللويا ، سبحوا يا عبيد الرب ٠

سبحوا اسم الرب ٠

ليكن اسم الرب مباركا ، من الآن والى الأبد ٠

من مشرق الشمس الى مغربها ، اسم الرب مسبح ٠

الرب عال فوق كل الأمم ٠

فوق السموات مجده ٠

واستمروا فى التهليل ، حتى اذا انتهت المراسيم ، قام عيسى يقول :

ـ ان عطش أحد . فليقبل الى ويشرب ، من آمن بى ، كما قال الكتاب ، تجرى من بطنه أنهار ماء حى ·

لم يكن هذا القول جديدا عليهم ، كان يفرحهم أن يقتبس من كتبهم ، ففى ذلك توكيد منه بأنه ما جاء لينقضها ، وفى هزة الفرح قالوا :

ـ هذا نبى حقا ·

ـ هذا هو المسيح ·

ـأيأتى المسيح من الجليل ؟

قال الكتاب انه من نسل داود ، يأتى من بيت لحم ، مدينة داود ·

واندس الفريسيون بين الجماهير ، يوغرون صدورهم عليه . وتغيرت القلوب وما أيسر أن تتغير ، فرددت جوانب الهيكل زمجرات ، واندفعوا ليمسكوه ، ولكنهم لم يجدوه ، مضى من بينهم دون أن يروه ، وتركهم حيارى يعجبون ·

وجاء المساء ، واضيئت المصابيح ، ففاض النور من الهيكل حتى غمر المدينة ، ووقف اللاويون على الدرجات المؤدية الى الرواق ، يرددون ترانيم المصاعد :

ارفع عينى الى الجبال من حيث يأتى عونى ·

معونتى من عند الرب خالق السموات والارض ·

لا ينعس حافظك ·

انه لا ينعس ولا ينام حافظ اسرائيل ·

وراح الفريسيون والناس يرقصون نشوة حول المصابيح . فقام عيسى يدعوهم الى الحق :

ـ أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة ·

فهب الفريسيون يعترضونه ، قالوا :

ـ أنت تشهد لنفسك ، شهادتك ليست حقا ·

فقال لهم :

ـ ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق ، لأنى أعلم من أين أتيت ، والى أين أذهب ، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا الى أين أذهب ·

أنتم تدينون حسب الجسد ، أما أنا فلا أدين أحدا ، وان كنت أنا أدين فدينونتى حق ، لأنى لست وحدى ، بل أنا والأب (١) الذى ارسلنى ·

مكتوب فى ناموسكم : ان شهادة رجلين حق ، أنا هو الشاهد لنفسى ، ويشهد لى الذى ارسلنى ·

لو كنتم أبناء ابراهيم لعملتم أعمال ابراهيم ، ولكنكم تطلبون ان تقتلونى وأنا انسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله ، هذا لم يعمله ابراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم ·

فزاد غضبهم ، فهو يتهمهم أنهم ليسوا أبناء ابراهيم ، وكل فخرهم أنهم من نسله ، فقالوا فى حنق :

ـ اننا لم نولد من زنا ، لنا أب (٢) واحد هو الله ·

ـ لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ، لأنى خرجت من قبل الله وأتيت · لم آت من نفسى ، بل ذاك أرسلنى · لماذا لا تفهمون كلامى ؟

---

(١) الآب غير الأب : بمعنى الله ·

(٢) يلاحظ أن لفظة « أب » تستعمل بمعنى رب ·

لأنكم لا تقـــدرون أن تســـمعوا قولى · أنتم من أب هو ابليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ·

ان كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنون بى ، الذى من الله يسمع كلام الله ، وأنتم لا تسمعون كلامه ، لأنكم لستم من الله ·

فقالوا :

ـ ألسنا نقول حقا ؟ انك سامرى بك مس ·

ـ ليس بى شيطان ، ولكنى أكرم الله وأنتم تهينوننى · الحق الحق أقول لكم : ان كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يرى الموت ابدا ·

ـ الآن علمنا أن بك شيطانا - مات ابراهيم والأنبياء ، وانت تقول ان كان أحد يحفظ كلامى ، فلن يذوق الموت أبدا ، لعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذى مات ، وقد مات الأنبياء ، من تحسب نفسك ؟

ـ ان كنت أمجد نفسي فليس مجدى شيئا ، ربى الذى يمجدنى ، الذى تزعمون أنتم انه الهكم ولا تعـرفونه ، واما أنا فاعرفه ، ان قلت انى لا أعرفه أكن مثلكم كاذبا ، لكنى أعرفه وأحفـظ قوله ، أبوكم ابراهيم تهلل بأن يرى يومى · فرأى وفرح ·

ماجوا لما سمعوا قوله ، عاد يرميهم بالجهل بالله ، وزاد على ذلك انه ادعى ان ابراهيم رأى يومه وفرح ، فقالوا ساخرين :

ـ ليس لك بعد خمسون سنة ، أرأيت ابراهيم ؟

ورفعوا الحجارة ليرموا من قال لهم انهم أبناء ابليس ، ومن أنكر عليهم معرفة الله ، ونظروا فلم يجدوه ، اجتاز فى وسطهم ، ومضى دون أن يروه ، فارتفعت الأصوات :

ـ انه ساحر ·

ـ هذا سحر مبين ·

٣٥

« وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » ·

(قرآن كريم)

حشر الناس الى الهيكل وفدا ، فاليوم سبت ، وقعد امام باب الهيكل رجل أعمى يتكفف ، ترمقه العيون ، فتتردد فى الرءوس اسئلة : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ ورآه عيسى فأشفق عليه ، ورد فى نفسه على أسئلة الناس : لا هو أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر معجزة الرب فيه ·

وتقدم الى الأعمى ، وقال :

ــ ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى ما دام نهار ، يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل ·

وتفل على الأرض ، وجعل من التفل طينا ، طلى به عينى الأعمى ، وقال له :

ــ اذهب اغتسل فى بركة سلوام ·

وذهب الأعمى الى جبل صهيون ، واغتسل فى البركة ، فاذا به يرى دنيا لم يرها قبل الآن : سماء وماء ، وأشجار وتلال وضياء ، وحسن وبهاء ، فخفق قلبه فى قوة ، وغامت عيناه بدموع الفرح ، ورفع يده يجفف دموعه ، فما عاد يطيق غشاوة عبراته ، التى حالت بينه وبين النور لحظات ·

ورجع الرجل الى باب الهيكل وقعد ، وخرج الناس بعد

انقضاء الصـــلاة ، وتظروا الى الأعمى ليقـوم فى أنفسهم نفس السؤال : أأخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ فاذا به يستقبلهم بعينين مفتوحتين ، فقالوا :

ـ أهذا الذى كان يجلس يسأل الناس ؟

ـ لا · ليس هو ·

ـ بل هو ·

ـ انه يشبهه ·

ـ سلوه ·

واقتربوا منه يسألونه ، فقال لهم :

ـ رد عيسى الى بصرى ·

ـ متى ؟

ـ اليوم ·

ـ فى السبت ؟ !

وانقسم الناس بين مكذب ومصدق ، وأخذوا الرجل ، وقادوه الى الهيكل ، ودخلوا على الفريسيين ، وقالوا لهم :

ـ يزعم هذا أن عيسى رد اليه بصره اليوم ·

فقال له رجال السنهدرين :

ـ كيف أبصرت ؟

ـ طلى عينى بالطين ، وأمرنى أن أغتسل فى سـلوام ، فلما اغتسلت أحسست كأن غشاوة عن عينى تنجاب ، واذا بدنيا زاهية جميلة ، دنيا ما كنت أتخيلها ، تبدو لى ناصعة رائعة ، ما أجمل ان يرى الناس !

بان فى وجوه الفريسيين قهر ، وقال بعضهم فى حنق :

ـ انه ليس من الله ، فهو يكسر السبت ·

وقال آخرون :

ـ كيف يقدر انسان خاطىء أن يقوم بمثل هذه الآيات ؟

ودارت مناظرات ، ودب بين الفريقين خصام ، وكأنما أرادوا أن يضعوا حدا لتلك الفرقة ، فقالوا للرجل :

ـ ماذا تقول أنت عنه ؟

فقال الرجل فى حماسة :

ـ انه نبى ٠

فصاح صائح منهم :

ـ لا تصـدقوا دعواه ، انه احد تلاميـذه ، جاء يلقى بينكم العداوة والبغضاء ٠

ـ فلندع أهله ٠

وأرسل أعضـاء السنهدرين فى طلب أهـله ، فجاء ابواه يضطربان ، فقالوا لهما :

ـ أهذا ابنكما ؟

ـ نعم ٠

ـ أولد أعمى ؟

ـ نعم ٠

ـ فكيف يبصر الآن ؟

ـ لا نعلم ، اسألوه فهو كامل السن ٠

ونادوا الرجل ، فدخل ، فقالوا له :

ـ نعلم أن هذا الذى تزعم انه رد اليك بصرك خاطىء ٠

فقال الرجل فى تهكم :

ـ لا عـلم لى بذلك ، ولكنى أعلم أنى كنت أعمى وانه رد الى بصرى ٠

فقالوا فى ضيق :

ـ ماذا صنع بك ؟ كيف فتح عينيك ؟

ـ قلت لكم ، وكررت القول : لعلكم تريدون ان تصـــبحوا له تلاميذ !

فسبوه ، وقالوا له :

ـ بل أنت تلميذه ، اما نحن فتلاميذ موسى ، نحن نعلم ان موسى كليم الله ، اما هذا فلا ندرى من أين هو ؟

فقال الرجل دون أن يخشاهم :

ـ هذا أمر عجاب ، لا تعلمون من اين هو ، ولكنه فتح عينى ، والله لا يستجيب للخاطئين ، الله يلبى دعوة من يتقى الله ، لم نسمع من الازل ان احدا فتح عينى من ولد أعمى ، لو لم يكن مرسلا من الله لعجز عن أن يفعل شيئا .

، اخذتهم العزة بالاثم ، فصاحوا :

ـ اخرجوه ، اخرجوا من ولد فى الخطايا وجاء يعلمنا .

كانوا يعتقدون أن الله يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فما اعماه الله الا لأن اباه كان خطاء ، ولد ذلك الأعمى فى الخطايا ، وقام فى الهيكل يبصر أعضاء السنهدرين الكرام ، فمـا جزاؤه الا الطرد المهين .

وخرج الرجل ، وقابله عيسى ، فدنا يدعوه للايمان ، وقال له :

ـ اتؤمن برسول الله ؟

ـ من هو ؟ وأين هو ؟

ـ قد رأيته ، الذى يكلمك .

وعرف الرجل عيسى ، ذلك الذى رد اليه بصره ، وقال عنه امام السنهدرين انه نبى ، آمن به قبل أن يدعوه الى الايمـان ، فرفع بصره الى السماء يعلن ايمانه ، ويشكر الله .

ورأى الفريســيون عيسى والرجل يتناجيان ، فهرعوا اليهمـا يصغيان ، قال عيسى للرجل :

ـأتيت ليبصر الذين لا يبصرون ، ويعمى الذين يبصرون ·

فقال له الفريسيون :

ـ لعلنا نحن أيضا عميان !

فقال لهم عيسى : لا تثريب على من ولد أعمى ، ولكن اللوم كل اللوم على من أعمته الخطيئة ·

وذهب عيسى ، والريح تصفر ، ولكن صدى كلماته فى آذانهم كان أعلى من زفير الريح ، وراح يبتعد وهم يرمقونه ، حيارى لا يدرون : أهو خاطىء كما يزعمون ، أم رسول رب العالمين ؟

واعتزل عيسى يصلى لله ، ويفكر فى أمر الناس ، أعلن لهم وأسر لهم اسرارا ، ودعاهم جهارا ، ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه الا انكارا واستكبارا ، يدعوهم الى الله فيرمونه بالضلالة ، فغشاه حزن ، ونزل به هم ثقيل ·

وفكر فى أن يغادر أورشليم ، فعداوة الفريسيين والصدوقيين والكتبة مريرة ، ولكنه رأى أن يعود الى الهيكل يستأنف دعوته وجهاده ، فلو قبلوه قبله الجميع ، لو لان قلب أورشليم القاسى ، لتفتحت له جميع القلوب ·

وذهب الى الهيكل ، ووقف يدعو الناس ، فاجتمعوا حوله ، قال :

ـ من لا يدخل من باب حظيرة الخراف ، ويأتيها من مكان آخر ، فهو سارق ، أما من يدخل من الباب فهو راعى الخراف ، يفتح له البواب الباب ، وتسمع الخراف صوته ، فاذا دعا خرافه بأسمائها خرجت له ، فيمشى أمامها وهى خلفه ، لأنها تعرف صوته ، أما الغريب فلا تتبعه ، بل تهرب منه ، لأنها لا تعرف صوت الغرباء ·

رمقوه فى تساؤل ، فما عرفوا ماذا يريد بهـذا مثلا ، ولمح الحيرة فى وجوههم ، فقال لهم :

ـ الحق أقول لكم : انى أنا باب الخراف (١) ، فمن دخل منى يخلص ، يدخل ويخرج ويجد مرعى ، السارق لا يأتى الا ليسرق ويذبح ويهلك ، أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة ، أما هو الراعى الصالح ، والراعى الصالح يكرس نفسه للخراف ، أما الأجير اذا رأى الذئب مقبلا ترك له الخراف وهرب ، الأجير يهرب ، لأنه أجير ، ولا يبالى بالخراف ، أما أنا فانى الراعى الصالح أعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى ، كما أن الآب (٢) يعرفنى ، وأنا أعرف الآب ٠

وضاق الفريسيون به ، فقال فريق منهم :

ـ انه يهذى ، به مس ، لماذا تعيرونه السمع ؟

وقال فريق :

ـ ليس هذا كلام من به شيطان ، أيقدر شيطان أن يفتح أعين العميان ؟ !

وهاج النـاس فى الهيكل وماجوا ، وترقب عيسى ثمـرة ذلك الجدال ، ومر الوقت ، واشـتدت المناقشات ، ثم راحت تخفت ، وتخفت وتخبو ، كنار أكلت الحطب ، وأخذت تأكل نفسها ، وهدأ كل شىء ، كأنما أريق على المكان ماء بارد ، وانفض الناس من حوله ، واذا به قائم فى الهيكل وحده ٠

وخرج مطرقا ، وسار حزينا ، يعرج فى الطـريق ، حتى اذا

---

(١) جاء فى انجيل يوحنا : جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص ، ولا يعقل أن المسيح عليـه السـلام يقول ان ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى ويحيى جميعهم لصوص ٠

(٢) الآب = الله ٠

غادر أسوار المدينة ، وبلغ قمة جبل الزيتون ، نظر خلفه يرمى أورشليم بنظرة وداع ، وفى قلبه لوعة ، وفى نفسه حزن ، وهاجت شجونه ، فقال :

يا أورشليم ، يا أورشليم •

يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين •

أردت أن أجمع أولادك ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولكنهم أبوا وأعرضوا •

ها هو ذا بيتك يترك للخراب •

وانحدر من الجبل ، يدثره حزن ، أعرضت أورشليم عنه ، وأصمت آذانها عن دعوته ، وكذبته وناصبته العداء ، فسار مطرقا وقد طفرت من مآقيه دموع غالية غزيرة •

٣٦

« ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

(قرآن كريم)

ودع اليهودية ، واخترق السامرة ، وعند بئر يعقوب حط رحاله يستريح ، لم تكن هناك امرأة سامرية تجادله فى الدين ، تقول له آباؤهم سجدوا فى هذا الجبـــل بينا يقول اليهود فى أورشـليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه ، فيبشرها باقتراب اليوم الذى يسجد فيه الناس فى أى مكان وكل مكان ، كان منفردا بافكاره ، وكانت أفكارا مغلقة بقتام ، أعرضوا عنه فى أورشليم ، لم يزدهم دعاؤه الا فرارا ، وكفروا به فى الناصرة ، وحتى الجليـل الذى استبشر لدعوته ، عبس وقطب بعد أن راح الفريسيون يلحون عليه أن يريهم آية ، أن ينزل عليهم بروقا ورعودا ، كأنما السماء رهن بنانه ، وكأنما هو ليس بشرا مثلهم يوحى اليه ، يؤيده الله ـ ان شاء ـ بآياته ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله .

وأشرف على الجليل ، رأى بحيرة جنيســارت صــافية كعين زرقاء ، والعصافير والطيـور ترنم التســابيح الخالدة الأبدية ، والمروج زاهية تياهة بالشباب ، وورود متفتحة كالخدود ، ونرجس كالعيـون ، وأغصـــان مسترسلة كالشعر تنـوس لعبث النسـيم الهفهاف ، والرجال فى غدو ورواح ، يحملون خيرات السهل الى السفن الراسية فى الميناء ، ومحصلو الرسوم يزنون ويفحصون ،

صور حبيبة الى نفسه ، فأشرقت وانداحت فيها نشوة ، ولكن سرعان ما تبخرت البهجة ، لم يعد قادرا على أن يذهب الى هؤلاء الأغفال الأنقياء يعظهم دون أن يكدر صفو التلاقى الفريسيون والصدوقيون والأعداء .

وسار على شاطىء البحيرة ، ولمحه الناس ، ففتنوا به ، وقبل أن يتركوا أعمالهم ويلتفوا حوله ، زجرهم رؤساؤهم ، فاستنفذوا ما كانوا فيه من أعمال ، وهرع اليه حواريوه وأنصاره ، وألقوا اليه سمعهم ، ينهلون من المورد العذب ، وفيما هم فى حديث ودرس، اذ أقبل قوم فى وجوههم عبوس وقلق ، فنظر اليهم متطلعا ، فقالوا له :

ـ ذبح بيلاطس الجليليين فى المعبد ، خلط دمهم بدماء ذبائحهم .

كانوا يعتقدون أنه ما من مصيبة تنزل بالمرء الا لخطيئة اقترفها ، فاذا كان بيلاطس قتل هؤلاء الجليليين ، فما مكن الله له فيهم الا لأنهم قارفوا فى حق الله ذنبا ، وصمتوا يسمعون رأيه ، قال :

ـ أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا أعظم خطيئة من كل الجليليين ، لمكابدتهم هذا القتل ؟ أقول لكم : كلا . وان لم تتوبوا تهلكوا جميعا ، أتحسبون أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم أعظم خطيئة من جميع سكان أورشليم ؟ كلا . فان لم تتوبوا تهلكوا جميعا .

وراح يضرب لهم الأمثال :

ـ كان لامرىء شجرة تين ، اتى يلتمس ثمرها فلم يجد لها ثمرا . فقال للكرام : أتيت ثلاث سنين (١) ألتمس من هذه التينة

---

(١) أول بعضهم هذا المثل بأنه دلالة على أن مدة بعثه ثلاث سنين .

ثمرا فلم أجد عندها ثمرا ، أقطعها · قال له الكرام : يا سيد ، دعها هذه السنة أيضا حتى أصلح لها الأرض ، وأضع حولها زبلا ، فان أثمرت أبقيت عليها ، والا فاقطعها ·

ورمقوه بعيون واسعة ، ولم يسألوه تأويل مثله ، ترى أفهم تلاميذه أنه ضرب لهم هذا المثل ، ليشرح لهم أن الله يمهل عبده ، عله يستغفره ويتوب اليه ، أم لم يفهموا شيئا ، ولاذوا بالصمت حياء وهيبة !

والتفت به الجموع ، وخشى الفريسيون أن يفتن الناس ، وأن يهتك الأستار التى يسدلونها فى مهارة ورياء لاخفاء الحقيقة ، قرأوا أن يرهبوه حتى يغادر الجليل ، ويتركه مرتعا خصيبا ، يبذرون فيه البدع والأوهام ، ويجنون منه المال والنفوذ والسلطان ، فجاءوا اليه فى ثياب النصحاء الأصدقاء ، وقالوا :

ــ اذهب من هنا ، لأن هيرودس يريد أن يقتلك ·

لو كان هيرودس يريد قتله حقا ، لأخفوا عنه تدبيره ، وهل كانت أمنيتهم الا قتله ؟ اختلقوا هذا الخبر ليرهبوه ، ويرغموه على الفرار ، فينقذوا أنفسهم من وخزاته ولذعاته ، كانت سخريته أمضى من السيوف ، وما كان يشتد الا اذا قرعهم ، وسلط أنواره على ريائهم ، فيبدوا عاريا بغيضا ، لم يرهبه تخويفهم اياه « بالثعلب » الرواغ ، هيرودس أنتيباس ، المتطير الرعديد ، الذى يخشى الأوهام ، ويقبل على قتل الرجال والأنبياء · ولم يلق بالا الى تهديدهم ، بل استمر فى وعظ الملتفين حوله ·

ورأى أن يبعث تلاميذه الى بنى اسرائيل مبشرين باقتراب ملكوت الله ، فعين سبعين ، وراح يعظهم :

ــ الحصاد كثير ، والفعلة قليلون ، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة الى حصاده ، اذهبوا ، هأنذا أرسلكم كحملان بين

ذئاب ، لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية ، ولا تسلموا على أحد في الطريق ، وأى بيت دخلتموه فالقوا عليه السلام ، فان كان هناك ابن السلام يحل سلامكم عليه ، والا فليرجع اليكم ، وأقيموا فى ذلك البيت آكلين وشاربين مما عندهم ، فالفاعل مستحق أجره ·

لا تنتقلوا من بيت الى بيت ، وأية مدينة دخلتموها وقبلوكم ، فكلوا مما يقدم لكم ، وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا : حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم ، ولكن اعلموا هذا : انه قد اقترب منكم ملكوت الله ، وأقول لكم انه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة ·

وخرجوا اثنين اثنين يبشرون باقتراب ملكوت الله ، ولم يأمرهم أن يذهبوا الى الأمم أو الى السامريين ، ولم ينههم فقد اتضحت رسالته لتلاميذه ، عرفوا أن الله لم يبعثه الا الى بنى اسرائيل رسولا ·

وراح يجول على شاطىء البحيرة ، يعظ الناس ، ولكن ما أقل المؤمنين الذين كانوا يصغون اليه ! انفض عنه الناس لما لم يأتهم بآية ؛ نجح الفريسيون فى بذر بذور الشك فى القلوب التى كانت مهيأة للايمان ، وفى سكون الليل انطلق وحده والحزن يعصر قلبه ؛ أتى الناس بالهداية فرفضوه ، هداهم الطريق القويم فأبوا الا أن يتنكبوا الطريق ، دعاهم الى الله الواحد ، فأبوا الا أن يشركوا مع الله احبارهم ورهبانهم ، واكتأبت نفسه ، كان يرجو أن يتم رسالة ربه ، وأن يثبت أركانها ، ولكن بدا لعينيه أن مستقبل رسالته تلبد بالغيوم ، كفر الناس به بعد أن صدقوه ، وفروا منه بعد أن كانوا يقبلون عليه ، ويقتتلون ليلمسهم بيده ، أو ليفوزوا بلمس شىء منه ، ولو طرف ثوبه أو جلد نعله ·

حتى فى الجليل رفضوه . لو أمر بدعوة الامم لانطلق يهديهم الى الله ، فقد تكون قلوبهم أرحم من قلوب هؤلاء القساة الجاحدين . ولكنه لم يرسل الى الامم . فليس امامه الا ان يجوب البلاد اليهودية يتلقى الاضطهاد .

واقترب عيد التجديد ، فليترك الجليل ليعود الى أورشليم . ولئن كان امامه فسحة من الوقت ، لم يعد الانتظار فى الجليل محتملا ، عزيز عليه أن يعيش بين أناس جحدوه وطووا عنه كشحهم . سيذهب فى البلاد يعظ هنا وهنا ، حتى يوافى العيد ، فيقوم فى الوفود داعيا ، فقد يجنى ثمرة الكفاح .

وتاهب للرحيل ، ووقف ينظر الى بحيرة جنيسارت والى مدن الجليل القائمة على شاطئها ، فانبثقت فى جوفه ينابيع الحزن . وكانت أغزر ينابيع نفسه . كان نبى الأحزان ، ولم يجد منفسا لأساه الا الكلمات . فقال وهو يرنو الى الجليل فى لوعة :

ويل لك يا كورزين !

ويل لك يا بيت صيدا !

وانت يا كفر ناحوم ، المرتفعة الى السماء !

ستهبطين فى الهاوية !

وانطلق يغادر الجليل دون أن تلوح له يد واحدة بالوداع . حتى أغصان الأشجار وسعف النخيل لم تهتز ، خفت النسيم ، فبدا كأنه قد مات .

٣٧

« قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر » .

(قرآن كريم)

ليل سرمد لا يتخلله بصيص نور ، أرض تطوى ، وشمس تقبل لتغيب وأناس يحشرون يصغون ثم ينفضون ، وفريسيون قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، ونور الايمـــان لا يزحزح ظلمات النفـوس ، وبعثت الشمس رســلها ، ولكن دثر الكون ليل سرمد .

ولاحت له أشجار نخيل عين غانم ، مفتاح السامرة فراح يرقى التــل يداعبــه أمل . أضـــافه السامريون ثلاثة أيام ، يوم قابل السامرية عند بئر يعقوب ، واكتشفت أنه نبى ، كرموه على الرغم من العداوة القائلة بينهم وبين اليهود . فلو أحســنوا اســتقباله لمسحوا عن صدره آلام الجفــوة التى قاساها فى أورشليم . وفى الجليل ، وفى كل مكان ، فينبثق شعاع من نور فى الظلام الدامس الثقيل .

وقابله تلميــذاه يعقوب ويوحنـــا . ودخلوا عين غانم ، وقام عيسى بين الناس يعظهم ويدعوهم الى الله ، فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وطلبوا منه أن يغادر قريتهم ، وبدت العداوة منهم ، فنكص على عقبيه مقهورا .

علم السامريون أن وجهتهم أورشليم لحضور العيد ، وما كان السامريون يعترفون بالهيكل المقـــدس ، فهم يقـولون ان الآباء ابراهيم واسحاق ويعقوب سجدوا هنا فى جبل شكيم ، وما الهيكل الا معبد بناه سليمان الحكيم ، فلو شاء اليهود أن يسجدوا ، فليس هناك الا مكان واحد للسجود ، حيث سجد الآباء فى جبلهم المقدس ·

سبق أن قال عيسى للسامرية عند البئر ، تأتى ســاعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشــليم تسجدون لله ، فلمــاذا لا يدعو بهذا جهارا ؟ لماذا لا يقول للناس ان أورشــليم ان هى الا مدينة فتحها داود ، وما قدسها الا الكهان والتقاليد ، فلو فعل ذلك لأيد دعواهم ولأصاخوا له ، ففى ذلك بعض النصر لهم ، ولكنه لم يفعل ، فهو يخرج الى أورشليم حاجا كآلاف الحجاج من بنى اسرائيل ، فغير ذلك صدورهم عليه ، وما دار بخلدهم أن زمان ملكوت الســماء ، الذى يجعل الأرض كلها مسجدا ، لم يظلل الدنيا بعــد ، وما جاء عيسى ليضع تعاليمه ، بل أرسل به بشيرا ·

أبوا عليه أن يخترق السامرة ، حتى الطعام رفضوا أن يمدوه به ، لم ينظروا اليه نظرة الوداد السابقة ، لا لخشونة فى طباعهم ، ولا لقساوة قلوبهم ، بل لأنه جاء الى بلادهم حاجا الى أورشليم ، وما كانوا منطقيين مع أنفســـهم لو أنهم آووه وأكرموه ودعـوه يخترق ديارهم معززا مكرما وهو لا يحترم معتقداتهم ·

لو كرموه وتركوه ينطلق الى أورشليم لكان ذلك شاهدا على تهاونهم فى أس العداوة المريرة ، المشــتعلة بينهم وبين من كانوا لهم اخوانا فى اليهودية ، قبــل أن يقع الخلاف بينهم ، على شكيم وأورشليم والتوراة التى جاء بها موسى ، والتوراة التى كتب بعض اصحاحاتها مردخاى تمجيدا لاستر التى أنقذت بجمالها شعبها ·

وحنق تلميذاه يعقوب ويوحنا ، وغلى مرجل غضبهما ، فقـد

نكأت هذه المقابلة الجافة القاسية الجراح ، وجددت الأشجان ، فما بال الله حليما لا ينزل على هؤلاء الجفاة كسفا من السماء ، ما باله لا يدمدم عليهم بذنبهم . فيسوى أرضهم ؟ وتذكروا أن ايليا . هنا فى السامرة ، دعا الله أن ينزل على أعدائه نارا تحرقهم ، فاستجاب الله دعاءه . فلماذا لا يدعو عيسى ربه ، لينزل عليهم من السماء نارا ، فيفنيهم كما فعل ايليا .

غضب عيسى من ذلك الروح الثائر الحانق ، فزجرهما ، وقال لهما :

ـ ما أرسلت نقمة ، بل أرسلت رحمة .

وانطلقوا ، يدخلون القرى والمدن ، يجتازون السهول والقفار ، ويرقون الجبال ، ويهبطون الوديان ، وعيسى يعظ الناس ، ويبشرهم باقتراب الملكوت ، ويكسر السبت ، ويبرىء فيه المرضى ، كأنه ما جاء الا ليكسر السبت المقدس ، فاذا ثار الفريسيون والناموسيون ، والمراءون ، قال لهم فى سخريته اللاذعة :

ـ من منكم يسقط حماره أو ثوره ـ فى يوم السبت ـ فى بئر ولا ينتشله ؟

كانت أجوبته تفحمهم ، فيصمتون على مضض ، يتربصون به الدوائر ، فقد يأتى يوم يخرق فيه الناموس ، ويقصر فيه بيانه عن اقامة الحجة المتألقة ، فيقتلونه ويستريحون من ذلك القلق الذى يذر بذوره فى أعماقهم .

واستمر فى رحلته ، فهو من يوم أن بعث فى رحلة دائمة ، ولاح فى الأفق جبل الزيتون بأشجاره ، انها أورشليم معقل أعدائه ، ذات القلب القاسى الذى كان أقسى من الصخر الذى بنى به أسوارها ، كان مكدودا من الرحلة الطويلة التى قطعها على

قدميه ، فشاء ان يستريح قبل أن يدخل متحديا قوات الفريسيين فى عقر دارهم ٠

كان لعـازر من أنصـاره ، وكان له بيت فى أرباض المدينـة المقدسة ، فانطلق يستجم هنـاك بعد التعب ، وما دلف الى الدار حتى هرعت مرثا ومريم المجدلية ، أختا لعـازر ، تستقبلان الضيف العظيم فى ابتهاج ، وأسرعت مرثا تحضر الماء تغسـل له رجليه . وذهبت تعد له طعـاما ، توقد النـار وتبعث فى شراء ما تحتاج اليه ، وتغدو هنا وتروح هنا ، بينا مريم جلست عند اقدامه صامتة ، تصغى الى عذب حديثه الذى يتدفق من فمه الى قلبها ٠

نسيت كل شىء الا ذلك الضيف العظيم الذى كان بيانه سحرا ، تفتحت نفسها ، هامت روحها فى سماوات من النقاء ، كان حديثه وحيا من السماء ، يرفعها الى اجواء عاليـة ، فتمتلىء نشـوة عارمة ٠

ارتبكت مرثا واحتاجت الى عون اختهـا ، فارتفع صـوتها بالنداء :

ــ مريم ، مريم ٠

ولم تسمع مريم نداءها . كانت غائبة عن كل ما حولها بكلماته التى تنفذ الى قلبها قطرة قطرة ، وارتفع النداء وهى فى شرودها ، طغت شخصيته فذابت فيها ، كانما لم يعد لها كيان ٠

وضاقت مرثا باعراض أختها عنها ، فاندفعت اليها كالعاصفة ، وقالت للسيد :

ــ قل لها أن تعيننى ، تركتنى أخدم وحدى ٠

ما هذا الذى تفعله مرثا ، لقد شغلت نفسهـا فى اعداد طعام فاخر ، حتى انها تطلب عون اختها ، فمن قال لهـا ان السيد يحفل بذلك ، كانت مـريم تؤدى له خدمة أجل ممـا تؤديه مرثا ، كانت

تخدمه خدمة روحية . تصغى اليه وهو يحدثها حديث الشريعة فى اقبال . فقد أصبح فى حاجة الى من يقبل عليه ، بعد الاعراض والجفوة .

كانت مريم متهللة ، فالنبى الكريم يحدثها حديث الدين ، على الرغم من المثل المتداول بين الربيين « خير لك أن تحرق الناموس من أن تعلمه امرأة » .

ونظر عيسى الى مرثا فى اشفاق ، وقال لها :

ــ مرثا مرثا ، انك مهتمة ومشتغلة بأمور كثيرة ، والحاجة الى واحد (١) ، اما مريم فقد اختارت النصيب الصالح ، ولن ينزع منها .

كانت هذه الزيارة روضة الحنان فى صحراء دعوته الماحلة ، التى لم تنبت فيها مشاعر الود والحنان . كانت النهلة العذبة الروية للصادى الظمآن ، كانت لروحه المعذبة البرد والسلام ، كانت الخيط الابيض فى الليل السرمد .

---

(١) قامت حول هذه الجملة مناظرات كثيرة . قال رؤساء الكنيسة فى روما انها تفضيل لحياة الفكر على حياة العمل ، وقال آخرون ان القصد منها أن المرء لا يحتاج الى أكثر من نوع واحد للغذاء ، ومن يدرى فقد يقوم من يقول انها دعوة الى التوحيد ! .

٣٨

« واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك . ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب » .

(قرآن كريم)

كان غسق الدجى ينحسر ، وعيسى على جبل الزيتون خاشع . لا حسيس ولا نأمة ، والنجوم أفلت ، والسماء صافية ، للشمس تترقب ، وارتفع صياح الديكة فى أورشليم ، فتجاوبت الأصداء فى الجبل ، وزقزقت العصافير ، وتنفس الصبح ، فبعث أشعته خافتة توسوس للأرض بسر ، حتى اذا ذاع انتشر ، واشتعل الأفق الشرقى ، وحامت الطيور فوق الجبل ، وجعلت تحط على أسوار المدينة العتيقة ، ودوى فى الفضاء قرع طبول .

وقام عيسى ونظر الى المدينة . كان الهيكل يتلألأ ، الضوء ينبعث من شرفاته ، فقد أضيئت جميع ثرياته احتفالا بالعيد ، وحمل النسيم روائح البخور ، فملأت خياشيمه ، وبدت القباب كمزيج من الجليد والنضار ، بياض ناصع وذهب وهاج .

أنهار الناس من كل فج تصب فى الهيكل ، الرجال فى ثياب زاهية ، قد ثبتوا التفلين فى أذرعهم ، ووضعوا المشامل على أكتافهم ، والنساء محجبات ، والأطفال فى ثياب العيد ، وفى أيدى

الجميع غصون أشجار الليمون ، وفروع الأزهار وسعف النخل ، يهزونها فى مرح ، فاليوم عيد التجديد ، ذكرى تطهير يهوذا المكابى الهيكل ، بعد ان دنسه أبيفانوس ٠

وسار عيسى فى الطريق الجميل المؤدى الى بيت المقدس ، وبلغت مسامعه صلوات الجموع وابتهالاتهم ، ودقت الطبول معلنة أن أول ضحية من أضحيات اليوم الأول قدمت الى المذبح ، وراحت أقداح الدم تنتقل بين أيدى الكهنة حتى يد الكاهن الأكبر ، ليسكبها فى المذبح الكبير ، وقضيت المراسيم ، وانتشر الناس فى الأروقة ، وكانت جدرانها مزدانة بالسيوف ، تخليدا لذكرى الشجعان الذين خلصوا الهيكل مع يهوذا المكابى ، وراح عيسى يغدو ويروح فى رواق سليمان ، والفريسيون يرمقونه ، ولما لم يقف يعظ الناس ، ذهبوا اليه وقالوا له :

ـ الى متى تعلق أنفسنا ؟ ان كنت أنت المسيح ، فقل لنا جهرا ٠

ـ قلت لكم ولا تؤمنون ، لأنكم لستم من خرافى ، خرافى تسمع صوتى ، وأنا أعرفها فتتبعنى ، وأنا أعطيها حياة أبدية ، ولن تهلك الى الأبد ، ولا يخطفها أحد من يدى ، ربى (١) الذى أعطانى اياها هو أعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد ربى ، انا والآب واحد ٠

ثار الفريسيون ، انه كفر وادعى أنه اله ، فحق رجمه ، فتناولوا حجارة ليرجموه ، فالشريعة تقضى برجم من يدعى النبوة كذبا ، فما بالك بمن يدعى الألوهية ، نظر اليهم فى دهش وقال :

---

(١) ذكر فى انجيل يوحنا أبى ٠ وآب بمعنى الله ، وآب و : Vater, father تشبه فاطر ٠

ـ أريتكم أعمالا كثيرة حسنة من عند ربى ، بسبب أى عمل منها ترجمونني ؟

ـ لا ترجمك لعمل حسن ، بل لأنك كفرت (١) ، فانك وانت انسان تجعل نفسك الها .

ـ أليس مكتوبا فى ناموسكم : « أنا قلت انكم آلهة » . قال آلهة لأولئك الذين صارت اليهم كلمة الله .

كان عيسى يتمثل بالتوراة فى كل أقواله ، فما ادعى أنه اله لما قال لهم أنا والآب واحد ، أراد أن يقول لهم على طريقة داود انه رسول الله ، فقد قال داود فى مزاميره على لسان الله تعالى :

أنا قلت انكم آلهة .

وبنو العلى كلكم ،

لكن تموتون مثل الناس ،

وكأحد الرؤساء تسقطون .

انه ليستشهد بكتابهم ، وما أكثر اقتباساته منه ، صرخ فيهم يوما : « ابعدوا عنى يا جميع فاعلى الاثم » ، وما كان ذلك القول قوله ، بل قول داود فى مزاميره ، وهو الآن يقتبس من داود قوله ان الله يقول لانبيائه : انكم كلكم أبناء العلى ، ولكنكم لا تخلدون . بل يحق عليكم الموت كالناس ، والسقوط كالرؤساء ، ان هى الا عصمة من الله واصطفاء .

لم يدع عيسى الألوهية ، بل قال كما قال داود : ان الله اصطفاه ، واذا كان قد قد قال لهم انه ابن الله ، فما أراد بذلك بنوة

---

(١) الكلمة « تجدف » والتجديف بمعنى الكفر بنعمة الله ، لا الكفر اطلاقا .

حقيقية (١) ، فيا طالما دعا الناس فى أقواله بأبناء الله : « طوبى لصانعى السلام ، لأنهم أبناء الله يدعون » ، « يأيها الأحياء تحت أبناء الله » ، « وصـلوا للذين يطردونكم ... لتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » . انها أبوة روحية تظلل الجميع .

وما كانت تلك اللفظة جديدة على مسـامعهم . قال داود فى مزاميره انه ابن الله :

قال لى أنت ابنى

أنا اليوم ولدتك .

اسألنى أعطيك الأمم ميراثا لك .

تحطمهم بقضيب من حديد .

تكسرهم مثل اناء من خزف .

لم يدع أن المعجزات التى أتاها من عنده ، بل قال انه لم يأت بآية الا باذن الله ؛ « كل شىء قد دفع الى من ربى » ، ولم يدع أنه اله ، ولم يدع بنوة حقيقية ، بل بنوة روحية شاركه فيها المؤمنون والأنبياء ، فهم أبناء الله وأحباؤه وعبيده .

وأرخى اليهود أيديهم وهم يعجبون ، هـذا الذى لم يتعلم فى مدارس الربيين ، ولم يجلس فى أروقة الهيكل يصغى الى شماى وهلليل . أتاه من العلم ما يفوق علم العلمـاء ورجال الدين ، انه على علم بكتبهم وناموسهم ، وله بيان عظيم .

أحسوا قهرا ، حسبوه كفر ، وأقاموا عليه الحجة ليرجموه ،

---

(١) أوريغين Origeuns هو أول من دس فى فكر الكنيسة (الأبوة والبنوة) الالهيـة ، وهو راهب مصرى عاش فى القـرن الثانى الميلادى ، وكان خصيا متأثرا بالديانة الفرعونية .

وإذا به يبرهن لهم من ناموسهم أنه لم يدع الألوهية ، بل استعار حديثه ممن سبقوه ، ليعلن أنه رسول رب العالمين .

واستأنف دعوته ، وأعلن للملأ رسالته ، فأعرضوا عنه وكذبوه ، لم يصدقوا أن الله أرسله اليهم ، ولما كانت شريعتهم تقضى بقتل الأنبياء الكذبة ، هجموا عليه ليمسكوه ، ولكنه كعادته أفلت من أيديهم ومضى ، وتركهم فى حيرة ذاهلين .

سار عيسى يدثره حزن عميق ، لم يبق أمامه الا مغادرة أورشليم ، فأعداؤه يطلبونه ، ولكن الى أين يتوجه ؟ فى الجليل رفضوه ، وفى الناصرة رفضوه ، وفى اليهودية رفضوه ، وفى السامرة رفضوه ، لم يبق أمامه الا أن يلوذ بالبرية ، أن ينتهى الى ما انتهى اليه يحيى ، أن ينطلق صوب الأردن حيث بشر يحيى باقتراب ملكوت الله .

خرج عيسى يحس غصة ، وفى صدره جمرة ، وفى مقلتيه دموع ، وفى فؤاده حزن عميق ، وابتعد عن أورشليم رويدا رويدا . حتى ابتلعه الليل السرمدى الطويل .

٣٩

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

(قرآن كريم)

سحاب ثقال فى السماء يتلبد ويزداد قتاما ، فيدثر الأردن ظلام ، وهو هناك فى البرية يعلم تلاميذه ، ويعظ الذين يدفعهم الشوق الى الحج اليه ، فيصغون الى حكمته ، وتتفتح قلوبهم لها ، يؤمنون حينا ، حتى اذا عادوا الى دورهم انقشع سحر بيانه ، وغمرتهم حياتهم الثقيلة ، وجرفتهم فى تيارها .

وهطلت الأمطار غزيرة ، وهبت الرياح عاتية ، كان الوقت شتاء ، وسرعان ما أصبحت السماء صحوا وبزغت شمسها ، أما سحاب دعوته فلم ينقشع ، كان يتكاثف ويتجمع ، ليحجب نور الحق أن يحصحص ويتألق .

وجاءه رسول من مرثا وأختها مريم المجدلية ، يقول له :

ـ هو ذا الذى تحبه مريض .

علم عيسى أن لعازر سقط مريضا ، فدعا تلاميذه ، وقال لهم :

ـ لنخرج الى اليهودية .

فقال له تلاميذه فى فزع :

ـ اليهود يطلبون أن يرجموك .

وخشى التلاميذ أن يخرجوا ، فقال لهم :

ـ لعازر حبيبنا قد نام ، وانى أذهب لأوقظه .

فقال له تلاميذه فى بساطة :

ـ ان كان قد نام فهو يشفى ٠

لم يفهموه ، وما فهموه قبل ذلك ، قال لهم ان لعازر رقد رقدة الموت ، وانه ذاهب ليحييه ، وهم يحسبون أنه يتحدث عن رقدة النوم . فقال لهم :

ـ لعازر مات ٠ لنذهب اليه ٠

نظر بعضهم الى بعض ، كانوا يخشون الخروج من البرية ، فاليهود يطلبونهم ، وصمتوا قليلا ، فقام توما يقطع ذلك السكوت :

ـ لنذهب لنموت معه ٠

وخرجوا الى اليهودية ، فجاءه الفريسيون يسألونه عن الزواج ليحرجوه ، وينفضوا عنه هؤلاء الذين لا يزالون يؤمنون به ٠ قالوا :

ـ هل يحق للرجل أن يطلق امرأته لأى سبب ؟

ـ خلقهما الله ذكرا وأنثى ، وقال : يترك الرجل أباه وامه ، ويلتصق بامرأته ، ويصبح الاثنان جسدا واحدا ، لم يعودا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان ٠

كان ذلك يخالف شريعة موسى ، فقال الفريسيون :

ـ فلماذا أوصى موسى أن تطلق بكتاب طلاق ؟

ـ أذن لكم موسى أن تطلقوا نساءكم لقساوة قلوبكم ، وأقول لكم : ان من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، ومن يتزوج من مطلقة يزنى ٠

ظهر الدهش فى وجوه تلاميذه ، فما يقرره الساعة لا يطاق ، فمن الذى يقدم على زواج وهو لا يدرى ايوفق فيه أم يحالفه الاخفاق ، ثم يقال له : لا تترك زوجتك الا بسبب الزنا ، قد يحل الشقاق والنفرة بينه وبين تلك الزوجة ، أيعيش فى جحيم الحياة ؟ وقد تسقط فريسة لمرض عضال فماذا يفعل ؟ فقالوا له مستنكرين :

ـ ان كان هذا أمر الرجل مع المراة ، فخير للمرء الا يتزوج ٠

فقال لهم شارحا رأيه :

ـ لا يقبل الجميع هـذا الكلام ، بل الذين أعطى لهم ، يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصـيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا انفسهم من أجل ملكوت السموات ، من استطاع ان يقبل فليقبل ٠

وفيما هو يتحدث الى حوارييه ، اقبل عليه أولاد يلتمسون منه البركة ، فانتهرهم التلاميذ ، فقال لهم :

ـ دعـوا الاولاد يأتون الى ، ولا تمنعوهم ، لأن لمثـل هـؤلاء ملكوت السموات ٠

وانطلق فى رحلته الدائمة ، الى بيت عنيا ، بأرباض أورشليم ، حيث دار حبيبه لعازر ، الى تلك الدار التى يتفيأ فيها ظلال الراحة والأمن ، وفيما هو فى طريقه ، اذ قابله رجل غنى ، فدنا منـه ، وقال له :

ـ أيها المعلم الصالح ، أى صـلاح أعمـل لتكون لى الحياة الأبدية ؟

فقال له عيسى :

ـ لماذا تدعوني صالحا ؟ ليس أحد صالحا الا واحد ، وهو الله ، ان أردت أن تدخل الحياة ، فاحفظ الوصايا ٠

ـ أية وصايا

ـ لا تقتل ٠ لا تزن ٠ لا تسرق ٠ لا تشهد الزور ٠ أكرم أباك وأمك ٠ واحب قريبك كنفسك ٠

ـ هذه كلها حفظتها منذ حداثتى ٠ فماذا يعوزنى بعد ؟

ـ ان أردت أن تكون كامـلا ، فاذهـب وبع أمـلاكك ، وأعـط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى ٠

أطرق الرجل ، وعــلاه وجوم ، فأمواله كثيرة ممدودة ، وانه لعزيز عليه أن ينفق كل ماله فى سبيل الله ، فانسل مطأطىء الرأس حزينا • فقال عيسى لتلاميذه :

ـ عسير أن يدخل غنى ملكوت السموات ، ان مرور جمل من سم الخياط ، أيسر من أن يدخل غنى ملكوت السموات •

وانطلقوا حتى لاحت لهم قمة جبل الزيتون ، حيث يرقد خلفها بيت لعازر ، وذهب الرســـول الى مرثا واخبرها أن عيسى قادم ، فتركت المعزيات والمعزين الذين جاءوا للعزاء ، فقد مات أخوها منذ اربعة ايام ، وذهبت لاســـتقبال النبى ، وبقيت مريم المجدليـــة فى البيت ، فما بلغها نبأ وصوله •

قابلته مرثا ، وقالت له :

ـ لو كنت ههنا لما مات أخى •

فقال لها فى هدوء :

ـ سيقوم أخوك •

فقالت فى حزن :

ـ أعلم أنه سيقوم فى اليوم الآخر •

وذهبت الى أختها ، وأسرت لها أن عيسى رسول الله قد حضر ، وهو يدعوها ، فما ان مس اسمه أذنيها حتى هبت تهرول اليـــه ، فحسب من كانوا فى الدار أنها منطلقة الى القبر ، تبكى هنـــاك ، فخرجوا فى أعقابها •

قابلته مريم ، وقالت له :

ـ لو كنت ههنا ، لما مات أخى •

وانهمرت دموعها على خديها ، فاثرت فيه دموعها ، فاضطرب شفقة وقال :

ـ أين وضعتموه ؟

ـ تعال وانظر ٠

وعند القبر تجمع اليهود الذين خرجوا خلف مريم ، ونظر عيسى ، فجرت دموعه الغالية ، فهمسوا :

ـ انظروا ، كيف كان يحبه ٠

رنا الى القبر مدة ، كان كهفا عليه حجر ، ثم قال :

ـ ارفعوا الحجر ٠

فهرعت اليه مرثا منزعجة ، وقالت :

ـ له اربعة أيام ٠

كانت تخشى ان تفوح رائحته ، فقال لها :

ـ ألم اقل لك ان آمنت ترين مجد الله ؟

فرفعوا الحجر ، ورفع عينيه الى السماء ، وقال فى حرارة :

ـ الهى لك الشكر على ما منحتنى ، ابتهل اليك أن تستجيب دعائى ، ليؤمنوا انك أرسلتنى ٠

وصرخ صرخة عظيمة :

ـ هلم اخرج ٠

واذا لعازر يخرج ملفوفا فى أكفانه ، والناس فى دهش وذهول ، فقال :

ـ فكوه ٠

فاسرعت مرثا ومريم الى أخيهما ، تفكان اربطته فى انفعال ، والدموع تغسل الوجوه ، وذهب فريق اليه خاضعا يظهر ايمانه ، واستكبر فريق ، وأبى أن يصدق ذلك الذى أيده الله بالمعجزات ٠

وذهب الذين كفروا الى الفريسيين ، يخبرونهم بما رأوا . لعل عندهم له تأويلا ، فقالوا لهم ان هو الا سحر مبين ، وصدورهم ضيقة من الغيظ ، وذاع أمر احياء لعازر ، فانطلق الناس الى بيت عنيا يعلنون ايمانهم برسول رب العالمين ٠

وحقد عليه الفريسيون ، وأفزعهم انشقاق النـــاس فى أمره ، فذهبوا الى قيافا رئيس الكهنة يشكون اليه الفتنة الكبرى ، فأطرق قليلا ، ثم قال :

ــ خير لنا أن يموت واحد ، من أن تهلك الأمة كلها ٠

حرضهم على قتله ، لينقذ الأمة من دعواه التى فرقت بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه ، فلو أنهم خلوا بينه وبين النـــاس ، لانقسموا الى فريقين يتجالدون ويقتتلون ، ولكانت ثورة أهلية ٠

وعلم عيسى بما بيته الفريسيون له بليل ، علم أن قيافا أحل لهم دمه ، وأنهم يتربصون به الدوائر ، فخرج من بيت عنيـــا يترقب ، وذهب الى افرايم ينتظر حلول الفصح بعيدا عن الأنظار ، حتى اذا وافى العيد ، خرج الى أورشليم ، يهاجم الفريسيين وهو آمن من مكرهم ، فلن يستطيعوا أن يقتلوه بين الحجيج ، خشـــية ثورة الجماهير ، فالناس وان لم يؤمنوا به ، يعطفون عليـــه ، ويصغون اليه ، ولا يجدون فى دعواه ما يوجب اهدار دمه ، انه يشرح لهم الناموس شرحا أخاذا جذابا ، ويضرب لهم أمثالا تستهويهم ، وما أشد اعجاب الناس بالحكمة ، وان لم يفهموا مغاليقها !

٤٠

« وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ، فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » .

(قرآن كريم)

بحثوا عنه فلم يجدوه ، فضاقت الدنيا فى وجوههم ، ونزل بهم هم ثقيل ، لن يعرفوا طعم الراحة ، ما دام يسعى على الأرض ينفث فى الناس دعوته التى تقوض سلطانهم ، ولم يقدروا أن يداروا عداوتهم ، فأعلنوا انهم يطلبونه ، وأصدروا أمرا بتحريض من يعرف مكمنه أن يرشد اليه .

وبدأت قوافل الحجاج تفد الى أورشليم من سورية ومصر وبابل وآسيا الصغرى وروميه واليونان ، ليطهروا انفسهم تأهبا للفصح ، ومن افرايم شاهد عيسى جموع الحجاج مخترقة البرية الى بيت المقدس .

واقترب العيد فرأى أن يذهب الى بيت عنيا ، الى بيت لعازر حيث الدعة والهدوء ، ليستجم قبل أن يدخل أورشليم للكفاح المرير .

وخرج ومعه حواريوه ، وانطلقوا فى حذر ، حتى اذا دخلوا بيت لعازر ، راحت مرثا تعد وليمة فاخرة للضيوف ، كانت حريصة على اكرام النازلين عندها ، بتقديم ألوان من الطعام وصنوف : أما مريم فما عادت تحفل بالطعام وبالشراب ، شفت روحها ، فاهتمت بغذاء الروح .

رأت عيسى قد اتكأ مع المتكئين ، فأحضرت قارورة ناردين خالص ، ودخلت وأكبت على رجليه ، وراحت تدهن قدميه بالطيب ، وتمسحهما بشعرها ، فعبق البيت بالروائح الزكية النفاذة ، والتفت الحواريون الى مريم وفى عيونهم شىء من الانكار ، فما كان لامرأة أن تلمس رجلا غريبا ، لا أن تمسح بشعرها قدميه ، ورأى يهوذا الأسخريوطى ، وكان خازن الجماعة ، أن فى اهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا ، فقال :

ــ لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار ، أنفقناها على الفقراء ٠

نظرت اليه مريم نظرة انكار ، وبان فى وجهها ضيق ، وساد المكان وجوم ، ولمح عيسى ما فى وجه المجدلية من انفعال ، فقال :

ــ دعوها ، لماذا تتعبونها ، لقد أحسنت الى ، الفقراء معكم فى كل حين ، اما أنا فلست معكم فى كل حين ٠

وسكنت النفوس الا نفس يهوذا ، رأى فى قول عيسى مجاملة لامرأة على حساب تعاليمه ، فهو يدعو الناس الى التقشف والزهد والخروج عن أموالهم لله طيبة نفوسهم ، ويدع امرأة تسكب الطيب على قدميه ، دون أن ينهاها عن ذلك التبذير ، ماذا عليه لو ارشدها الى ما فيه خيرها وخير المساكين ؟

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به ، وجىء بالطعام ، وبدءوا يأكلون ، وغضب يهوذا يأكله ، وما انتهى الطعام حتى كان قلب يهوذا قد تغير على عيسى ، وان حاول أن يوهم نفسه أن ما يحسبه ان هو الا غضب وقتى سرعان ما ينقشع ٠

وهمس الناس فى أورشليم أن عيسى عاد الى بيت عنيا ، الى لعازر الذى أحياه من الموت ، فدفع حب الاستطلاع الناس الى الذهاب الى هناك ، ليروا الشاهد الحى على عظمة النبى الجديد ،

فانسلوا بين التلال ، وقابلوا عيسى ، وآمنوا به ، وبلغ الفريسيين خروج الجماهير الى بيت عنيا لرؤية لعازر القائم من الأموات ، فتجددت مخاوفهم ، فذلك الرجل يفتن الناس ، فاجتمعوا الى قيافا رئيس الكهنة يتشاورون ، ولما كان الاغتيال سلاح المغلوبين ، قرروا أن يقتلوه ٠

كان قيافا رئيس الكهنة عاجزا عن أن يقف فى وجه مناوئيه ٠ كان كل همه أن يرضى السلطة الزمنية ، وأن يسير فى ركابها ، يشاركها آثامها وخطاياها ، ويقاسمها مغانمها وأسلابها ، فاذا لاح فى الأفق من يعكر عليه صفو الليالى ، أفتى بقتله ، وما أيسر أن يشير الجبناء باغتيال مناوئيهم ٠

واجتمع الناس فى الهيكل يصلون : « اسمع يا اسرائيل ، الهنا اله واحد » ٠

وما قضيت الصلاة حتى انتشروا فى الأروقة يتهامسون ، لم يرفعوا أصواتهم ، كان حديثهم عن عيسى الذى أقام لعازر من الأموات ، وكثر الهمس ، وسرى بين الحجاج أن عيسى هو المسيح ، وراح الناس يتساءلون :

ـ أيقدم الى الهيكل فى العيد ؟

وانتشر الفريسيون والصدوقيون يتجسسون ، وحمل الهواء الى مسامعهم همس الناس ، فتحركت مخاوفهم ، اذا حضر أصغت اليه الجموع ، وعجزوا عن أن يمسوه بسوء ، فمن يدرى ، قد تهب فى أورشليم الثورة اذا قبضوا عليه وقتلوه ٠

وانتشر فى صدورهم قلق ، وانتابتهم حيرة ، أسقط فى أيديهم فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون ؟ وراحوا يتساءلون :

ـ أيقدم الى الهيكل فى العيد ؟

وفى طرقات أورشليم انطلق رجل طويل القامة ، ناحل الجسم ،

به انحناءة خفيفة ، أسـود العينين ، تغطى وجهه لحيـة سـوداء صغيرة ، من يراه يحسبه عيسى ، ولكنـه لم يكن عيسى ، بل كان يهوذا الأسخريوطى ، فى طريقه الى بيت قيافا ·

كان كل شىء ظلاما ، الطريق الذى يضرب فيـه ، وقلبه الذى يخفق بالغضب الأعمى البغيض ، وصدره الذى كان مأوى لخفافيش احساساته المقيتة ، سـاءه أن يتنكر عيسى لتعـاليمه ، فأصغى لشيطانه ووهب له نفسه ، وهو يحسب أنه ثار لدين الله ، وأنه يصيخ الى ضميره ·

واستأذن فى الدخول ، فاذنوا له ، فاذا به فى قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة ، وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهـوذا يتحدث ، وهم يصغون اليه ، فى وجوههم دهش وحيرة ، لا يدرون أيصدقون ما يسمعون أم يتلقونه فى حذر ؟ جاء يهـوذا الأسخريوطى ، الحوارى الصديق ، يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه ·

٤١

« واذا كففت بنى اسرائيل عنك ، اذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين » .

(قرآن كريم)

تنفست المدينة المقدسة ، ودبت فيها الحياة ، وخرج الحجاج الى الأسواق يشترون العطور والهدايا ، وانتشر الجنود الرومانيون فى طرقاتها الضيقة ، وراح سكان أورشـليم يجولون عند مداخل المدينة ، ويشـاهدون وفود حجاج الأقاليم ، كانوا يقبلون فرحين مستبشرين ، يرقصون ويرفعون أصواتهم بالغناء والتهليل ، واذا ما لاحت لهم قباب الهيكل ، راحوا يسبحون :

احمدوا الرب لأنه صالح لأن الى الأبد رحمتـه

احمـدوا اله الآلهـة لأن الى الأبد رحمتـه

احمـدوا رب الارباب لأن الى الأبد رحمتـه

وتدفقت المواكب تصب فى أورشـليم ، مبتهجة بذكرى تخليص بنى اسرائيل من عذاب فرعون المهين ، واقبل ركب الجليل ، الرجال بشعورهم الطويلة يهزون أعطافهم فرحا وهم سائرون ، كانوا فى تقدمهم يرقصون ، والنساء محجبات على الخيل والبغال والحمير ، والأولاد يهرولون ، وكانت مريم بينهم ، فهى تحج الى الهيكل فى كل عيد ، أقبلت يداعبها أمل ملاقاة ابنها فى أورشليم .

وعبقت المدينة بالبخور ، ولكن ما كانت رائحته خالصة ، بل كانت مشوبة بروائح العرق وروث الخيل والبغال والحمير والأغنام

التى ماج بها الهيكل ، فكانت رائحة تضيق الأنفاس ، وتقبض الصدور .

وراح الحجاج يتهامسون ، يتحدثون عن عيسى الذى أحيا لعازر ، وقال الذين ذهبوا اليه فى جنح الليل انه اليوم الى المعبد قادم ، فخرج الحجاج يرصدون طريقه يدفعهم حب الاستطلاع ، كانوا جميعا يبغون أن يروا ذلك الذى كثر الحديث عن آياته ، خرجوا وفى أيديهم سعف النخيل ، وأغصان الليمون ، وكان اليوم أحد .

وأقبل ركب عيسى ، كان راكبا جحشا وحوله حواريوه ، كان مهيبا يشع من وجهه نور الايمان واليقين ، فلما رآه الناس استولت عليهم الحماسة ، فراحوا يهزون فى أيديهم الأغصان وسعف النخيل ، وهرع اليه بعضهم يفرشون طريقه بثيابهم ، وارتفعت أصواتهم بتسابيح اقتبسوها من مزامير داود :

ـ اوصنا (خلصنا) ، مبارك الآتى باسم الرب ، أوصنا فى الاعالى .

وانساب الركب تحوطه الجموع الهاتفة فى طرقات أورشليم ، فخف الحجاج ينظرون ، ويتساءلون :

ـ من هذا ؟

ـ عيسى النبى الذى من ناصرة الجليل .

رأى الفريسيون استقبال الناس له ، فأحسوا كمدا ، كانوا يدبرون قتله ، فاذا بالجموع تلتف حوله ، فلن يستطيعوا تنفيذ خطتهم الا بعد انصراف الحجاج المفتونين به الى ولاياتهم ، وانطلق الركب والفريسيون يرقبونه ، ونار الحقد تأكل أفئدتهم ، وغمغموا فى يأس :

ـ هو ذا العالم قد ذهب وراءه .

وهبط عيسى عن جحشه ، وتقدم الى الهيكل . فالفى الصيارفة وتجار الحمام والعجول والأغنام قد عادوا لاحتلال أروقته ، فثار غضبه . طردهم قبل ذلك مرة . وطهر الهيكل من أدرانهم ، واذا بهم يعودون الى ما كانوا فيه ، كان همهم أن يبيعوا الذبائح للحجاج . وأن يحققوا أرباحهم ، أما نظافة الهيكل فلم تكن موضوعا ذا بال .

وفى ثورته قلب موائد الصيارفة ، وكراسى باعة الحمام ، وأخرج العجول والأغنام وهو يصيح :

ــ مكتوب : بيتى بيت الصلاة ، فجعلتموه مغارة لصوص .

حتى فى ثورته لم ينس طبعه ، لم يكلمهم بحديث من عنده ، بل استشهد بما هو مكتوب فى ناموسهم ، كانت كل أحاديثه اقتباسا ، ومع ذلك كان لها فى نفوس سامعيه وقع عجيب .

ووقف يعظ الناس ، وأصوات الأطفال تتجاوب فى الهيكل :

ــ أوصنا .. أوصنا .

غاظ ذلك الترحيب رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين . فقالوا له فى غضب :

ــ أما تسمع ما يقول هؤلاء ؟

كانوا يحرضونه على أن يزجرهم ، فمن هو حتى يخلصهم ؟ !

ولكن عيسى قال فى هدوء ، مقتبسا من المزامير :

ــ أما قرأتم قط : من أفواه الأطفال والرضع أعددت تسبيحا .

كان ذلك اليوم نصرا . وبدا كأنما انقشع ليل دعوته السرمد ، وفود تستقبله فى حماسة استقبال الغزاة الفاتحين . وجموع تصغى اليه فى خشوع . والفريسيون والكتبة والأعداء يصرفون الأنياب غيظا . أشرقت شمس دعوته ، ولكن ما اقصر ذلك الشروق .

كان الناس يعيرونه آذانهم وقلوبهم مغلقة . هتافات تنطلق من

الحناجر والأفئدة صامتة ، وحماسة تتهلل بها الوجوه ونفوسهم لا تنفعل لها ، كان ترحيبهم به ترحيب جماهير ، وما كان ترحيب ايمان ويقين ·

ولم يشأ الفريسيون أن ينقضى اليوم وهو يتألق فى قصره ، فراحوا يجادلونه ويحاورونه ، محاولين أن يشككوا فيه الجموع ، وكانت مناظرتهم له قاسية ، تقطر بالمرارة ، ففطن عيسى الى ما تطويه صدورهم من خيانة ، فعزم على أن يخرج من أورشليم لا يقضى ليلة بين جدرانها ·

وتقدم بعض الحجاج اليونانيين الى تلميذه فيلبس ، وقالوا له :

ـ يا سيد نريد أن نرى عيسى ·

فأمهلهم حتى يسأله ، وفى جنح الليل انسل هو وحواريوه الى جبل الزيتون ، ليمضوا ليلهم بعيدا عن أعدائه وشانئيه ·

٤٢

« واذ قال الله يا عيسى ، انى متوفيك ، ورافعك الى ،

ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » ٠

(قرآن كريم)

على جبل الزيتون ، وتحت الأشجار نام الحواريون ٠ كان الليل هادئا ، والنجوم ساهرة ، والكون ماجعا غارقا فى الكرى ، وعيسى ساجدا يصلى لله ويدعوه ، وقام ونظر الى السماء وقد بللت عينيه الدموع . واذا بجبريل يهبط اليه يبلغه وحى الله :

ـ يا عيسى ، انى متوفيك ، ورافعك الى ٠ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ٠

دثره حزن عميق ٠ كان يبغى أن يتم رسالة ربه ، واذا بالوحى يخبره أن أيامه على الأرض انقضت ، لم يصدقه الناس ولم يؤمنوا به ٠ وهو ذاهب الى ربه ، تاركا للناس حوارييه ، انهم لم يفهموه يوما ، فكيف يدعون الناس الى الله بعد موته ؟ وفكر فى تلاميذه ، فزاد حزنه ، كان أدرى بهم من أنفسهم ، سيدب بينهم الشقاق ، ويحل الخصام ، وتضيع بينهم تعاليمه ، لو مد الله فى أجله لثبت أركان دعوته ، ولتركها واضحة لا يكتنفها غموض ، كانت مدة رسالته قصيرة ، لم تكن كافية ليغرس فى الناس أصول ما يدعو اليه ، حتى حواريوه لم يتمكنوا من أن يعوا كل ما يقول ٠

وفاض ضوء النهار على جبـل الزيتون ، وعيسى فى اطراقه لحزين ، وجاء اليه فيليبس وأندراوس وبعض حوارييه ، وقالوا له

ـ يطلب الحجاج اليونانيون أن يروك ٠

فقال عيسى فى أسى :

ـ أتت الساعة التى يتمجد فيها ابن الانســان ، الحق الحق أقول لكم : ان لم تقع حبة فى الأرض وتمت ، فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمـر كثير ، اضطربت نفسى ، ماذا أقول ؟ الهى نجنى من هذه الساعة ٠

وصمت قليلا ثم قال :

ـ ان ارتفعت عن الأرض أجذب الى الجميع ٠

فطن تلاميذه الى أنه ينعى اليهم نفسه ، فاضطربوا وقالوا :

ـ سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى الى الأبد ، فكيف تقول : ينبغى أن يرفع ابن الانسان ؟ من هو ابن الانسان هذا ؟

لم يجبهم ، بل قال :

ـ النور معكم زمانا يســيرا ، فسيروا ما دام لكم نور ، لئلا يدرككم الظلام ٠ من يسير فى الظلام لا يدرى الى أين يذهب ، ما دام لكم النور آمنوا بالنور ، لتصيروا أبناء النور ٠

وذهبوا الى أورشليم ، وكانت تموج بالحجاج ، ودخلوا الهيكل وقام عيسى يعظ الناس :

ـ كان لرجل ابنان ، فجاء الى الأول وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : لا أريد أن أذهب ، ولكنه ندم وذهب ، وجاء الى الثانى وقال له : يا بنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فقال : هأنذا ذاهب ، ولم يذهب ، فأى الاثنين نفذ ارادة الأب ؟

ـ الأول ٠

ـ الحق أقول لكم ان الخطائين والزوانى يسبقونكم الى ملكوت

الله ، لأن يحيى جاءكم بالحق فلم تؤمنوا به ، وأما الخطاءون والزوانى فقد آمنوا به ، وأنتم بعد أن رأيتم الحق لم تؤمنوا به .

وساد صمت قليل ، ثم قال :

ـ اسمعوا مثلا آخر ، غرس رب بيت كرما ، وأحاطه بسياج ، وحفر فيه معصرة ، وبنى برجا ، وسلمه الى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الحصاد أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ ثماره ، فأخذ الكرامون عبيده ، جلدوا بعضا ، وقتلوا بعضا ، ورجموا بعضا ، ، فأرسل عبيدا آخرين ، ففعلوا بهم كذلك ، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟

ـ يهلكهم ويسلم الكرم الى كرامين آخرين ، يعطونه الحصاد فى أوقاته .

فاستشهد بما جاء فى المزامير :

ـ أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية ؛ لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل ثماره (١) .

وضاق الفريسيون به ذرعا ، فالجموع تتكاثف حوله ، وتهتم بأمره ، وهم يبغون أن يقبضوا عليه ، ويتخلصوا منه ، ولكنهم يخشون الجماهير التى تنظر اليه نظرتهم الى نبى .

واستمر عيسى فى وعظه وضربه الأمثال .

ـ مثل ملكوت السموات كمثل ملك أقام عرسا لابنه ، وأرسل عبيده يدعون المدعوين الى العرس ، فأبوا أن يأتوا ، فبعث اليهم

---

(١) جاء فى القرآن : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . و « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

عبيدا آخرين ، وقال لهم : قولوا للمدعوين انى أعددت غذائى . وذبحت العجول الحنيذة ، وجهزت كل شىء ، تعالوا الى العرس ، فأبوا وذهب واحد الى حقله ، وآخر الى تجارته ، وسب الباقون عبيده وقتلوهم ؛ فلما سمع الملك بذلك غضب ، وأرسل جنوده وقتل أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : العــرس قائم . وليس هناك مدعوون ، اذهبوا الى مفارق الطرق ، وادعوا كل من تجدونه . فخرج العبيد وجمعوا الأشرار والصالحين ، فلمــا دخل الملك لينظر ، رأى رجلا فى غير لباس العرس ، فقال له : يا صاحب ، كيف دخلت الى هنا ؟ فسكت ، فقال الملك للخدام : شدوا وثاقه ، واطرحوه فى الظلمة . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، كثيرون يدعون ، وقليلون هم الفائزون .

كان يذكر لهم أن من يأتى ملكوت الله دون أن يرتدى ثيـــاب التقى ، يلقى فى نار جهنم ، وظل الناس يتطلعون اليه ينتظرون منه المزيد . فضاق صدر الفريسيين ، فابتعدوا يتناجون ويتشاورون ، يفكرون فى أن يحرجوه . وبعد تفكير وتدبير ، أرسلوا اليــه أحد أعوان هيرودس ، فقال له :

ـ نعلم أنك صادق ، وأنك تهدى الى طريق الله بالحق ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، فقل لنا : أيجوز أن نعطى جزية لقيصر ؟

ساد المكان صمت كصمت الرموس ، وأرهفت الآذان ، ألقى أعداؤه حبائلهم ينتظرون أن يسقط فيها ، قال :

ـ لماذا تختبروننى يا مراءون ؟ !

والتفت الى الملأ وقال :

ـ أرونى دينارا .

فقدموه له ، فتناوله وقال :

ـ لمن هذه الصورة والكتابة ؟

ـ لقيصر ·

ـ أعطوا اذاً ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ·

أصابهم غم . كانوا يعلقون آمالا على هـذا السؤال ، فجميع اليهـود يكرهون أن يؤدوا جزية الوثنيين ، فذلك دليـل على أنهم أصبحوا اذلة ، ولم يعودوا شعب الله المختار ، كان أعداؤه يحسبون أنه سيحرمهم دفع الجزية للرومان . تملقا للجمـاهير ، فيرفعون الى الحكام الاقوياء نبأ ثورته على السلطان ، ويوقعون بينه وبين هيرودس العداوة والبغضاء ، وهيرودس سـفاك للدماء ، لا يغفر لمن يهين صـديقه قيصر العظيم ، ولكن اقراره بدفع الجزية نقض غزلهم ، وما أقرها التماسا للعافية ، فما اقصر أيامه على الأرض ، ولكن لأنه لم يرسل مشرعا . ينظم قوانين التوريث ، ويحدد العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، ويسن القوانين ، بل أرسـل بشـيرا باقتراب ملكوت الله ، الذى سـتكون فيه شريعـة الله هى القانون السماوى السائد فى دنيا الناس ·

٤٣

« فان تولوا فاعلم أنمــا يريد الله أن يصــيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون » .

(قرآن كريم)

الهيكل فى فحمة الليل يتلألأ بالأنوار ، فيبدو كعمــود من نور هابط من السماء ، وعيسى وحواريوه على ســفح جبــل الزيتون يتمددون ، حتى اذا غفلت أعين المدينة ، ومشى الكرى الى جفونها ، انسلوا فى خفــة الى بيت نيقوديموس ، فهو يعــد لهم وليمة قبل حلول العيد .

كان نيقوديموس ثالث أعضاء السنهدرين ، سمع عيسى لما وعظ فى الهيكل أول مرة ، فتفتح له قلبه ، فذهب اليــه متسترا بالليل وقابله ، وأصغى اليه ، ولم ينصرف من عنده حتى صدقه وآمن به ، ولكنه لم يعلن ايمانه على الملأ ، بل كتمه فى صدره خشية الناس .

وكان عيسى ، كلما وفد الى أورشليم ، يذهب لمقابلته فى سواد الليل ، يتناجيان ويتحدثان فى الدين ، حتى اذا رق النقاب الأسود ، وفضحت الشمس أنوار السرج ، جلس نيقوديموس الى أعضــاء السنهدرين يتشاورون فيما يفعلون ، ليتخلصوا من ذلك الذى جاء يستل منهم النفوذ ، فاذا ما أحكموا خطتهم أشــار عليهم بما يدع للرسول فرصة الافلات مما يدبرون .

أنار الضــوء المنبعث من الهيكل سفح الجبــل ، كان عيسى وسمعان ويوحنا ويعقوب ــ أحب تلاميذه الى قلبه ــ يتسامرون ،

وكان الباقون يستلقون على العشب ، يتطلعون الى السماء ، واستلقى يهوذا الأسخريوطى وحده ، بعيداً عن الجميع ·

انعكس على وجهه ما كان يجرى فى صدره ، بان فيه قلق وحيرة واضطراب ، انه غريق لا يدرى ما يفعل ، تتجاذبه تيارات ، تطفو به الى السطح حينا ، ثم تغوص به الى القرار السحيق ·

الأفكار تتزاحم فى رأسه ، والاحساسات تتدفق فوارة فى جوفه ، والشك يعذبه ويضنيه حتى ليكاد يقف مفزوعا يصرخ فى الفضاء ، معلنا الآراء العنيفة التى تأكل صدره وتطحنه وتقسو عليه ، فيئن أنينا مكتوماً يزيد ثورة نفسه ، ويمزق قلبه كسكين ·

راح يفكر فى ذلك الجالس بين تلاميذه فى هدوء ، واخذ يسأل نفسه : من هو ؟ أجاء لسعادتنا ، ليخلص أنفسنا من آلامها ، ام ليعذبنا ويضنى أرواحنا ، ويلقى فى صدورنا بذور الشك القاسية ؟ أجاء يخرج بنى اسرائيل من الظلام الى النور ، ثم يقودنا نحن ـ تلاميذه الذين ضحينا بكل شىء فى سبيله ـ من النور الى الظلام البغيض ؟ من هو ؟ لست أدرى ، فالقلق يحيرنى ، والشك يكاد يقتلنى ، أهو المسيح ؟ فان كان المسيح فأين ذلك الملك الدائم الى الأبد الذى يأتى به المسيح ؛ ها هى ذى الأيام تمر ولا أمل ولا بصيص من نور ، انه يلقى المواعظ ويضرب الأمثال ، والجموع تحشر زمرا ، ثم لا شىء غير الاصغاء ثم الانصراف ، دون أن ينفذ الى القلوب الايمان والتصديق ! اذا كان هو المسيح فأين ملكه ؟ سألوه عن دفع الجزية لقيصر فاقر دفعها ، فمتى يبدأ مناوأة السلطان ، ويسود سلطانه على الجميع ؟ انتظر ·· انتظر ·· عيل صبرى ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، تبددت آلامنا سدى ، وذهبت آمالنا شعاعا ·

انتظر ·· انتظر ·· انتظر ، أما لهذا الانتظار من آخر ؟

الوثنيون يسخرون بالله وهو صـامت ، لماذا لا ينزل عليهم كسفا من السماء ؟ لماذا لا يقسو فى مهاجمته الا على الكتبة والفريسيين ، لماذا يدعنا فى حيرة ؟ يقول انه ما جاء لينقض الناموس ، بل جاء ليكمله ، ثم يقول مرة أخرى ان الخمر الجديدة لا توضع فى زقاق عتيقة . لست أدرى ماذا يبغى بنا ، انى حائر .. قلق .

اذا اتفقت مواعظه مع الكتبة والفريسيين اطمأن قلبى ، واذا عارضت آراؤه آراءهم فيأ للقلق الذى يساورنى ، ماذا دهانى ؟ تقوض عش الامل الذى بنيته فى صـدرى ، فصـار جوفى خرابا ينعق فيه البوم .

واراد أن يتخلص من ذلك الكابوس ، فرفع رأسه ونظر ، فخيل اليه أن الأضواء تخفت ، وأن الظلام يمد رداءه ، فيحجب كل شىء ، حتى الهيكل السابح فى النور ، بدا لعينيه سـوادا ، ففزع ، فقد رانت على عينيه دكنة قلبه .

وحاول أن يطرد الأفكار التى كانت تلح عليه فى عناد ، يريد ان يركن الى الهدوء ، ولكن هيهات ، نجوم السماء توحى اليه بأفكار ، وزئير الرياح ينقلب فى أذنيه اعتراضات . تآمر الكون عليه ، وراح يشد أزر نفسه الساخطة ، خيـل اليـه أن الريح تصرخ : فليأت ملكوتك ؟ فليأت ملكوتك ، فأخذ يفكر فى ذلك الملكوت برغمه ، اين ذلك الملكوت ؟ ومتى يأتى ؟ نبتهل الى الله فى كل صلاة أن يبعثه . ولم يستجب الله الدعاء ، لماذا لا يحدثنا عن ذلك الملكوت ؟ ان كل ما قاله عن ذلك الملكوت أنه كلام الله ، لماذا يتركنا فى حيرة ؟ اننى قلق .. اننى حائر ، الشك يخزنى وخزا ما أقساه !

ورنت فى أذنه أصوات : ينبغى أن يرفع ابن الانسان ، من هو ابن الانسان هذا ؟ لم يحر جوابا ، بل تحدث عن النور والظلام ، والسـائرون فى النور والظـلام ، وتركنا حيـارى ، من هو ابن

الانسان ؟ من هو ابن الانســان ؟ لا أدرى ، لا أدرى الا أن القلق يقتلنى ، والشك يخز قلبى بأصابعه الباردة ٠

اننى غريق أستسلم لليأس ، ولكن لماذا ذلك الاستسلام ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت أنا يهوذا الأسخريوطى حوارى الرسول ، الذى أوحى الله اليه أن آمن بى وبرسولى ؟ فعلت فعــلة منكرة ، اتفقت مع أعدائه على أن أسلمه ، أنا يهوذا الأسخريوطى يسلم نبيه ؟ لا ٠ لن يكون ذلك ، لن يسلم يهوذا الأسخريوطى نبيه ٠

ما هذا القلق ؟ ما هذه الحيرة ؟ يا للشك القاسى المرير ، أريد أن أهدأ ٠٠ أن أستريح ، رأسى يكاد أن ينفجر ، قلبى يتمزق ، أنفاسى تضيق ، ليتنى أموت ، أموت وأستريح ٠

وقام وركع ورفع وجهــه الى السـماء ، وانهمـرت دموعه ، واحس أنها تنبع من فؤاده ، وقال فى حرارة صادقة :

ـ أبانا الذى فى السماء ، لماذا اخترتنى لهذه التجربة ، ابتهل اليك أن تنير طريقى ، انى أخبط فى الظلام ، لا أدرى أين أسير ، انى قلق ٠ معذب ٠ مضنى ، فأعد يا رب الهدوء الى قلبى ، والصفاء الى نفسى ، واهدنى سواء السبيل ٠

يا رب رحمتك ، فلئن لم ترحمنى لأكونن من الهالكين ٠

وخر ساجدا تمتزج دموعه بالتراب ٠

٤٤

« يأيهـا النـاس ان كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقـة ، لنبين لكم ، ونقـر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى » .

(قرآن كريم)

الهيكل يموج بالجموع ، ووقف النـاس حلقات يتحدثون ، الصدوقيون فى ثيابهم الغالية ، وفى أصـابعهم الخواتم ، وعلى رءوسهم العمـائم على هيئـة أهرام ، وعلى شـفاههم ابتسامات ساخرة ، كانوا يتحدثون عن هزيمة الفريسيين أمام معلم الناصرة ، قال لهم : ادفعـوا الجزية : ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فـلم يعترضوا ، لأنهم لو اعترضوا عليه لفضحوا أنفسهم ، وأعلنوا على الملأ عدم ولائهم للامبراطور ، ولم يعترضوا لأن علماءهم يقولون : « قانون الدولة شريعـة » ، فلم يكن أمامهم الا تجـرع الهـزيمة صامتين .

وراح الفريسيون يتحدثون ، فيبـدون حيرتهم ، فهم لا يدرون من هو ، ولا من أين جاء ؟ كلما سألوه سؤالا ليحرجوه ، رد كيدهم الى نحورهم ، وأجابهم جوابا مفحمـا ، فلا يملكون الا الصـمت والحيرة ، انه يحفظ الناموس ، ويستشهد به ، وما تعلم فى مدارس الربيين ، فعلمه عجيب يحيرهم ، ولولا الكبرياء لاعترفوا أن ذلك العلم من عند الله رب العالمين .

وتحدث الناس عنه فى خيبـة أمل . جاءت الفرصـة ليكسب قلوبهم ، ولكنه تركهـا تفوت ، لو قال : لا يجوز أن تدفـع جزية لقيصر ، لدوت حنـاجرهم فى الهيكل تهتف له ، ولأقروا جميعـا بزعامته ، انهم أبناء الله ، شعبه المختار ، فلا يليق أن يأتوا الجزية عن يد وهم صاغرون . لو أنه شـق عصــا الطاعة لأيدوه ، فهم يريدون من يخلصهم من قوانين الرومان . ويعيـدهم الى ناموس الله ، ولكنه لم يفعل ، بل ثبت الخزى والعار : أعطـوا ما لقيصر لقيصر ؛ أهذا قول يقوله رسول ؟ أكان موسى يقول ذلك لو وجه اليه نفس السؤال ؟ أين يهوذا الجليلى ، الذى أنزل النسر الرومانى عن الهيكل ، ليقود ثورتهم ، بدل ذلك النبى الجليلى ، الذى يهـادن أعداء اليهود ؟

تلفت الصدوقيون ارصادا لمقدمه ، كانوا يترقبون حضـوره ، ليسخروا منه ومن الفريسيين ، انه يؤمن بالبعث بعـــد الموت ، ويشاركه فى ذلك الايمان الفريسيون ، ولكنهم ما كانوا يصـدقون أن الأموات يحيون ، فما أشـار الناموس الى ذلك الموضـوع . أعدوا سؤالا يوجهونه اليـه عن البعث ، سـؤالا يقطـر سخرية وزراية . سيجعلونه ومن لف لفه من الفريسيين أضحوكة الجميع .

وأقبل عيسى ، فارتسمت الابتسامات فى وجوه الصـدوقيين ، وتريثوا ، حتى اذا قام يدعو الناس ، وخفت الجموع اليه ، اقتربوا منه فى خيلاء ، وقالوا :

– قال موسى : ان مات امرؤ ولم يعقب ، تزوج أخوه امراته ، لينجب لأخيه نسلا ، فاذا كان هناك سـبعة أخوة ، وتزوج الأول امرأة ومات عنها دون أن يعقب ، فتزوجها الثـانى فمات دون أن يعقب ، فتزوجهـا الثالث فالرابع حتى تزوجت جميع الأخوة ثم ماتت ، فاذا قامت القيامة ، فمن من أزواجها السبعة تتزوج ؟

لمعت عيون الصدوقيين سخرية ، وترقب الفريسـيون قوله ، فيما طالما افحمهم الصدوقيون بمثل هذه الأسئلة المعقدة ، فهي وان كانت تبدو سخيفة تافهة ، الا انها اسئلة قائمة تنتظر ردا ، وأرهفت الجماهير آذانها في شغف ، وتطلعت اليه تنتظر قوله ·

لم يطرق ليفكر ، ولم تظهر في وجهه الحيرة ، بل قال في هدوء :

ــ تضلون ، لأنكم لا تعرفون الكتب ولا قوة الله · في الآخرة لا يزوجون ولا يتزوجون ، بل يهيمون كملائكة الله في السماء ·

أما البعث ، افما قرأتم ما قيل لكم على لسان الله القائل : انا اله ابراهيم ، واله اسحاق ، واله يعقوب ، ليس الله اله اموات بل اله أحياء ·

تذكر الناس ما قاله الله لموسى على الجبل : انا اله ابراهيم ، واله اسحاق ، واله يعقوب ، انه اله هؤلاء الأنبياء الأحياء عنده ، هذا مكتوب في الناموس ، وهذا دليل على الآخرة ، فاذا كانوا لم يفطنوا اليه ، فليس الذنب ذنب الناموس ، بل عيب عيونهم المغلقة ·

وفرح الفريسيون ، فها هو ذا يسوق الدليل الذي يؤيدهم من الناموس ، وارتفعت اصـواتهم بالتهليل ، حتى غطت اصـوات الاعتراض المنبعثة من الصدوقيين الكافرين باليوم الآخر ·

ودنا فريسي منه وسأله :

ــ ما أعظم وصية في الناموس ؟

ــ ان أول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنـا رب واحد · وحب الرب الهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك · هذه هي الوصـية الأولى · والثانية هي : حب قريبك كنفسك · ليس هنـاك وصـية أخرى أعظم من هاتين ·

ــ نطقت صدقا ، لأن الله واحد لا آخر سواه ، ومحبته من كل

القلب ، ومن كل الفم ، ومن كل النفس ، وكل القدرة ، ومحبة الغير بالنفس هى أفضل من كل الذبائح والقرابين .

فرنا عيسى الى الفريسى فى عطف ، وقال له :

ـ لست بعيدا عن ملكوت الله .

ونظر الى الجميع وقال :

ـ بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء .

هاتان الوصيتان هما ركنا كل دين : الدعوة الى الله وحده لا شريك له ، فما جاء رسول الا ليدعو قومه الى الله الواحد القهار لا يشرك معه الها آخر ، والدعوة الى المحبة والخير ، الى ان يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه .

انها الدعوة الخالدة ، دعوة نوح وابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى والنبيين ، ودعوة عيسى المسيح ، ودعوة من جاء يبشر به ، ويدعو فى صلاته أن تأتى أيامه ، أيام الملكوت المرتقب .

وانصرف عيسى ، وجلس أمام خزانة الصدقات وحواريوه حوله . واقبل الناس يلقون النقود ، فراح الأغنياء يضعون فى زهو مبالغ كبيرة . وجاءت امرأة فقيرة ، ووضعت فى هدوء فلسين ، فالتفت الى تلاميذه وقال :

ـ هذه الفقيرة ألقت اكثر من جميع الذين القوا فى الخزانة ، لأن الجميع ألقوا من فضولهم . أما هذه فقد ألقت من عوزها ، ألقت كل ما عندها .

٤٥

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل انما علمها عند ربى » .

(قرآن كريم)

انطلقوا صامتين ، وان كان كل منهم مشغولا بأفكاره ، عيسى حزين لتلك العداوة وذلك العناد البادى من الفريسيين ، حاربوه فى اليهودية ، وحاربوه فى الجليل . حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه ، كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه ، لو أتاهم بآية من الله ، لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت فى السماء أبواب ، وهبطت عليهم منها الملائكة المكرمون . فقد كان كل ما يرمون اليه أن يشككوا الناس فيه .

ذهب اليهم وهو يطمع فى أن يؤمنوا به ، قبل أن يتوفاه الله ، ولكنهم لجوا فى العداوة والنكران ، رفضوه وبالغوا فى الرفض ، حتى تقطعت خيوط الأمل . فقام يصفعهم برأيه فيهم . ويغلق خلفه الباب . كان ثائرا كبركان ، حتى ان الجماهير حدقوا فيه مذهولين . فما كان ينفث تلك الحمم عيسى الوديع ، بل يحيى الثائر قام من الأموات .

وسار حواريوه ترن فى آذانهم كلماته فيأخذون فى التفكير . فما حدث اليوم فى الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريعه للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج ، لهجموا عليه وقتلوه ، راح يصرخ فيهم : « ويل لكم ايها

الكتبة والفريسيون المراءون » · « ويل لكم أيها القادة العميان » هتك رياءهم أمام الناس ، وتركهم فى الهيكل عظاما نخرة ·

وخرجوا مطرقين . والتفت أحد تلاميذه الى الهيكل ، والشمس ترسل أشعتها اليه ، فتنعكس ذهبا وهاجا ، كان منظرا يملأ النفس روعة . فأراد أن يسرى عن نبيه ، فقال له :

ـ انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

ـ أترى هذه الأبنية العظيمة ! ستنقض ، ولن يبقى حجر على حجر ·

وعض يهوذا على نواجذه ، ورفع يده الى شعره يجذبه فى حنق ، فما بال كلمات عيسى تقطر فى هذه الأيام مرارة ؟ أجاء الى بنى اسرائيل بالأمل ، أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ اذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه ، فقد ثار فى وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والقلق والحيرة ·

وراحوا يرقون جبل الزيتون . وعلى سفحه جلسوا ، عيسى فى اطراقه الحزين والشمس فى الغروب ، والشفق أحمر ، ولكن كل شىء فى عينيه ليل سرمد ، انقضت أيام رسالته ، وما أقل الذين آمنوا به . وما أندر من فهموه ·

ودنا منه بطرس ويعقوب ويوحنا وأندراوس ، وسألوه عن القيامة . ومتى هى ؟ فقال لهم :

ـ اذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب ، فلا ترتاعوا ، فهذا لا بد أن يكون . ولكن ذلك ليس المنتهى ، فستقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتقع زلازل ومجاعات واضطرابات · هذه هى مبدأ الأوجاع ·

انظروا الى نفوسكم ، سيسلمونكم الى المجالس ، وتجلدون فى الجامع ، وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجل شهادة لهم ، وينبغى أن يكرز (يعظ) ببشارة الملكوت فى جميع الأمم ، فمتى سياقوكم ليسلموكم فلا تهتموا من قبل بما تتكلمون به ، بل تكلموا بما يوحى اليكم ، لأنكم لستم المتكلمين بل الروح القدس .

فمتى نظرتم رجفة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ، فليهرب الذين فى اليهودية الى الجبال ، ولا ينزل من على السطح لياخذ من بيته شيئا ، ولا يرجع من فى الحقل ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام .

ان قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا ، او هو ذا هناك فلا تصدقوه ، فسيقوم مسيحيون كذابون ، وانبياء كذابون ، يأتون بآيات وعجائب ليضلوا المختارين أيضا ، لو أمكن ، فانتظروا . هأنا قد سبقت وأخبرتكم بكل شيء .

تظلم الشمس بعد ذلك الضيق ، وتمحى آية القمر ، وتهوى النجوم ، وتتزعزع قوات السماء (١) أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، علمها عند الله .

انظروا واسهروا وصلوا ، لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت .

---

(١) ذكر بعد ذلك فى الأناجيل : « لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله ، ولما كان ذلك الجيل قد مضى ولم تتحقق النبوءة ، ولما كنت لا أعتقد أن نبيا يخبر خبرا ثم لا يصدق ، حذفت النبوءة ، واعتبرتها زائدة ، وقد فعل مثل ذلك تولستوى فى انجيله الذى نسقه من الأناجيل ، فقد حذف كل ما ظنه زائدا .

ألفت كتب كثيرة لازالة الاعتراضات التى قامت حول هذه النبوءة ، ولم تصل هذه الكتب الى شيء ، بل زادت الأمر تعقيدا .

اسهروا لأنكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت ، أمساء أم صباحا ؟ أم يأتى بغتة فيجدكم نياما • ما اقوله لكم أقوله للجميع : اسهروا •

انفعلوا جميعا للحديث ، أهو حديث وداع ، أهو انذاره الأخير، وراحوا جميعا يفكرون ، فما كان لهم الا التفكير ، وهاجت وساوس يهوذا ، وثارت نفسه ، ما بال عيسى يتحدث عن قيام الأبناء على الآباء ، وجلد حوارييه فى المجامع ، ما بال بشاراته انقلبت حزنا ورعبا ؟ أين ملك المسيح الذى سيدوم الى الأبد ، ومتى هو ذلك اليوم الذى تظلم فيه الشمس ، وتتساقط من السماء النجوم ؟ انه يحس كأنما صار ريشة تعابثها الرياح ، لماذا يعذبهم بأحاديثه المغلفة بالغموض ؟ لماذا لا ينير لهم الطريق ، انه يخبط فى الظلام ، لا يجد من يهديه •

يا رب ، قليل من النور ؛ انتشر فى كهف صدره ظلام ثقيل ، ران على البقية الباقية فى قلبه من الايمان والتصديق ، الشك يخزه ويعذبه ، أقلعت الطمأنينة ، وتركته للقلق والاضطراب ، ليته يستطيع أن يكفر به ويستريح •

٤٦

« ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » ٠

(قرآن كريم)

قاعة واسـعة مدت فيها الموائد ، وجلس حولها الكتبة والفريسيون : أعداء الأمس ، وحلفاء اليوم ، ألفت بينهم المشاركة فى بغض عيسى ، ذلك الخطر المترجح فوق رءوسهم ، سخر منهم فى المجمع أمام الوفود ، وسخريته قاسية مريرة ، أمضى من السيف ٠

كلماته التى ألقاها فى وجههم ترن فى آذانهم ، فتفجر المقت فى أجوافهم ، وجعـل دماء الحقد تتـدفق فوارة فى عروقهم ، كانت كلماته كجمرات من نار أحرقت نفوسهم ، وتركت كبرياءهم رمادا ٠

تقريعه لهم لا يزال يرن فى جنبات الهيكل ، وقد حفر فى أذهان الملأ ، وسيصبح قصة اذا ما انقضى العيد وعاد الناس الى ولاياتهم ، فى الجليل وفى اليهودية وفى الأردن وفى مصر وفى سورية وفى بابل وفى اليـونان ، سيرددون سـخريته بهم « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ٠ فاحفظوا كل ما يقولون لكم وافعلوه ، ولكن لا تعملوا حسب ما يفعلون ، فهم يقولون ولا يفعـلون ٠٠٠ يعملون كل أعمالهم لوجه الناس ، يعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ٠٠ ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تطوفون البر والبحر لتهدوا واحدا ، ومتى هديتموه قدتموه الى الجحيم » ٠

كانت سهام تهكمه فتاكة ، كفيلة بأن تهدم أمة ، فلو أنهم صبروا عليه حتى يوم العيد ، لقام بين الجموع يرشقهم بسهام نقده ، ويركبهم بسخريته ، فتضيع هيبتهم ، ويهون على الناس أمرهم · الأرض تميد تحت أقدامهم ، فاذا لم يثبتوها بدمائه ، انشقت وبلعتهم ، وانه لأيسر عليهم أن يقتلوه من أن يزول سلطانهم ·

لما التأم جمعهم ، راحوا يتباحثون ، كان قتله رأى الجميع ، ولكنهم اختلفوا فى التنفيذ ، اذا تركوه حتى انقضاء العيد افسد عليهم الناس ، واذا قتلوه فى العيد ، فقد تثور الجموع · فالجماهير متقلبة ، ترضى اليوم وتغضب غدا ، وتبرم أمرا وسرعان ما تنقضه ، وتزهق روحا ثم تبكى على الشهيد ، فمن يدرى اذا ما قتلوه أن يعلن الثورة من لم يؤمنوا به !

كان الكتبة والفريسيون يتدبرون ، وكان يهوذا الاسخريوطى منطلقا بقامته الطويلة وشعره الأسود ، وعينيه القلقتين فى شوارع أورشليم ، يكاد ينفجر من الحنق ، فقد حدث اليوم ما أشعل فى نفسه الثورة ، فتأججت قوية عاتية ، حتى فاقت كل ما سبقتها من ثورات ·

ثار يوم سكبت مريم المجدلية قارورة نادرة من الطيب لتدهن بها قدميه ، ولم يرشدها — وهو الرسول المتقشف — الى طريق الخير ، الى أنها لو تصدقت بثمنها لكان ذلك أذكى وأطيب ·

وحنق لما رآه يتوعد — وهو رسول الرحمة — الهيكل المقدس ، كان يهوذا يحب الهيكل ، فهو أمل بنى اسرائيل ، فحرك غضبه أن يرى سيده يصب عليه اللعنة ·

ولكن ما حدث اليوم فجر مرجل غضبه ، وأجج نار قلقه ، فعيسى استقر فى بيت عنيا ، وراح يمضى يومه فى بيت مريم ، ركن

الى الهدوء ولن يخرج الى الهيكل ، يدعو النـاس الى ربه ، كأنما غسل يديه من رسالته .

ليته يخرج ويثور فى وجوه الجموع الجاحدة الكافرة . ليتـه يأتى هنا بآية ، كتلك الآيات التى أتى بها فى الجليل ، ليتـه يفعل شيئا بدل ذلك الهدوء البغيض ، فيهوذا من كل قلبه يتمنى ان يقوم عيسى بعمل يدعم رسالته . يمحو طبقـات الشك التى تراكمت فى جوفه ، حتى كادت تخنق ما فى فؤاده من ايمان وتصديق .

ولحمه اترابه ، فيهوذا من اليهود . وليس كباقى الحواريين من الجليل . فخفوا اليه ، وراحوا يسخرون من معلمه ، ومن تعاليمه ، ومن الملكوت الذى يبشر به ، فأحس كان سخريتهم خنـاجر تمزق قلبه ، وتزيد نار غضبه اندلاعا .

وقفزت الى رأسـه فكرة ، اذا كان عيسى قد ركن الى الدعة ، أو اذا كان قد استسلم لليأس ، فسيضطره الى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشـدهم الى مقره حتى يعـود الى الكفـاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيل باذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم اليـه ليخرجه من عزلته ، فقـد ينتصر عليهم فى العيد ، وتؤمن به الوفود ، فيكون ذلك قبس النور الذى يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق الى ملك المسـيح الدائم ما دامت الأرض والسماء .

لو آمن النـاس به فى العيـد ، لانقشعت عن عينى يهوذا الغشـاوة ، وتبخر الشك القـلق الحائر الجوال فى نفسه ، فذلك الايمان يحيى الأمل فى امكان تأسيس مملكة المسيح ، التى جاءت بها البشارات .

وقام فى نفسـه اعتراض : انه يسلم سـيده الى أعدائه اذا

أرشدهم اليه ، وما كان يحب أن يمسوه بسوء ، انه شــك فيــه ، وانتابه قلق ، ولكن ذلك ما كان ليدفعه الى تسليمه •

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ، ولكن ذهنه أمدد بما يؤيده فيمــا ذهب اليه ، انه لو أرشدهم الى عيسى لجدد شباب الدعوة ، فلا خوف عليه منهم ، فيا طالما حاولوا أن يمسكوه ، ولكنه كان يجتاز فى وسطهم كالطيف ، فلن يستطيعوا أن يمسوه بسوء •

كان يهوذا يتخبط ، لا يدرى حقيقة عواطفه ، كان يشك فيقلق ويثور ، وكانت تهب عليه نسائم من الايمــان فيثور على ثورته ، فكان قلقــا مضطربا ، كل ما يبغيــه أن يعيد الى نفســه الطمأنينة والهدوء •

وانســل يهوذا الى حيث كان الكتبة والفريسيون مجتمعين ، وقعــد بينهم يصــغى الى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعــود الحجاج الى دورهم ، ثم ينقضــون عليــه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم ان خير ما يفعلونه أن يقبضوا عليه قبل العيد ، فى مكان خلاء ، بعيــدا عن محبيه ، وأعجبتهم الفكرة ، ووافقوا عليها ، وخرج يهوذا ، وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح الدائمة ، بداية النور الذى يفضح ظلام قلبه •

٤٧

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » ·

(قرآن كريم)

جلس عيسى صامتا مطرقا ، ولاح فى وجهه حزن ، وراحت مريم المجدلية ترنو اليه ، فتستشعر أسى ، ولكنها ما كانت قادرة على أن تكلمه ، كانت تحترم صمته ، ولا تجرؤ أن تخرجه من أفكاره ، وان كانت فى قرارة نفسها تحس انها أفكار حزينة ، مغرقة فى الحزن ·

وجلس لعازر والحواريون صامتين ، يترقبون أن يقول عيسى شيئا ، فشمس عيد الفصح تدرج لتحتل كبد السماء ، وأحس عيسى أن عيونهم مصوبة اليه ، فرفع رأسه وقال لبطرس ويوحنا :

ـ اذهبا وأعدا لنا الفصح (١) لنأكل ·

ـ أين تريد أن نعده ؟

ـ اذا دخلتما المدينة يستقبلكما انسان حامل جرة ماء ، اتبعاه الى البيت حيث يدخل ، وقولا لرب البيت : يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذى ؟ سيريكما علية كبيرة مفروشة ، فأعداه هناك ·

وخرج بطرس ويعقوب ، وغادرا بيت عنيا ، ودرجا فى طرقات

---

(١) فى الأناجيل اضطراب حول هذا اليوم ، حتى انه لا يمكن الجزم أكان هذا العشاء فصحا حقيقيا أم ما يشبه الفصح !

جبل الزيتون فلاح لهما الهيكل يتألق فى الشمس كالذهب ، وانطلقا الى أورشليم ، والشمس عالية فى السماء . ولا ظل لشىء على الأرض ، فقد كان الوقت ظهرا ·

ولمحا رجلا يحمل جرة ماء ، وما أندر أن يحمل رجل جرة ، فذلك عمل النساء ، فانطلقا فى أثره حتى اذا دخل بيتا دخلاه ، وحدثا صاحبه ، فاذا به صديق من أصدقاء المسيح ، وعرفا مكان الاجتماع ، ثم ذهبا الى الهيكل ليقدما النحائر ·

أخذت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وقرعت طبول الهيكل الفضية ايذانا ببدء النحر ، فتدفق اليهود يسوقون ذبائحهم أمامهم ، وغص الرواق بالاسرائيليين ، ووقف على الدرج الكهنة اللاويون يقرعون الطبول ، اعلانا للمدينة المقدسة أن ذبائح الفصح تذبح ، وراح الحجاج يصعدون الدرج اثنين اثنين ، ويقدمون قرابينهم لتنحر ، ويتلقى كاهن دماءها فى فلجانة ذهبية ، وتنتقل الفلجانة من كاهن لكاهن حتى تصل الى الكاهن الأكبر ، الواقف أمام المذبح المقدس ، فيلقى بالدم فيه ·

وذبح بطرس ويوحنا الذبائح ، وعادا الى مكان الاجتماع يعدان الفطير ، وحمل الفصح ، وانتظرا وفود المسيح واخوانهم ·

وغابت الشمس وراء جبل الزيتون ، وخرج عيسى وحواريوه من بيت عنيا ، وذهبوا الى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بالجماهير ، فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون اليه اذا قام فى الهيكل يدعوهم الى الله ، أما اذا سار بينهم فما كانوا يميزونه من آلاف الجليليين الغادين والرائحين فى المدينة ·

دلفوا الى مكان الاجتماع ، فاذا موائد الفصح مدت ، واذا الأرائك صفت ، فذهبوا يتكئون ، فحاول كل من الحواريين أن يجلس

الى جوار المسيح . وارتفعت بينهم المشادات ، كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من زميله ، فزاد تلك الشقاق فى حزنه ، فحواريوه لم يفهموه ، ولم تؤثر فيهم تعاليمه ·

جاءته يوما سالومى أم يعقوب ويوحنا ، تلتمس منه ان يسمح لابنيها ان يجلسا معه فى ملكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملكوته عالما كائنا فوق السحاب ، فأرادت لابنيها السلطان ، وما جاءته من تلقاء نفسها ، بل دفعها الى ذلك أحب حوارييه اليه ، وها هم أولاء فى ساعاته الأخيرة يتنافسون ، كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان ·

وأراد أن يضع حدا لنزاعهم ، فقال لهم :

ـ اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أمضى ·

فصمتوا ، وأخذوا يأكلون ، ثم تناول كأسا وقال :

ـ خذوا هذه واقتسموها بينكم ، لأنى أقول لكم انى لا اشرب من نتاج الكرمة حتى يأتى ملكوت الله ·

وفرغوا من الطعام ، وقام عيسى يغسل أيديهم (١) ، فتعاظموا ذلك ، وتكارهوه ، وقال بطرس فى انكار :

ـ أنت تغسل يدى ؟ ! أبدا ·

ـ لا تعلم الآن ماذا أصنع ، ولكن ستفهم فيما بعد ·

ـ لن تغسل يدى أبدا ·

ـ الا من رد على شيئا الليلة مما أصنع فليس منى ، ولا انا منه ·

فقال بطرس :

ـ هاك يدى ورجلى ورأسى ·

فلما فرغ من ذلك ، قال لهم :

ـ أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام ، وغسلت

أيديكم بيدي قليكن لكم بى أسـوة . فانكم ترون أني خيركم ، فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسي لكم ٠

الحق الحق اقـول لكم : انه ليس عبد اعظم من سـيده ، ولا رسول أعظم من مرسله ٠

الحق الحق أقول لكم : الذى يقبل من أرسله يقبلنى ، والذى يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ٠

وصمت عيسى قليلا ، ثم قال :

ـ انتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى ، ستكونون معى فى ملكوت الله . تاكلون وتشربون على مائدتى ، وتجلسون على كراسى تدينون اسباط اسرائيل الاثنى عشر ٠

اطمأن يهوذا الى افكاره التى احتلت راسه ، فها هو ذا المسيح يضمن له الجنة ، ويعده بكرسى يدين سبطا من اسباط بنى اسرائيل ، فلو كانت تلك الأفكار فاجرة شريرة ، لحرمه من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه ، فاستاذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجة ، فقال له عيسى :

ـ ما انت فاعله فافعله سريعا ٠

فخرج يهـوذا وانطلق الى الهيكل ، ليخبر أعداء المسـيح عن مكانه ، ليخرجه من عزلته ، لينفث فيـه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة . انطلق وهو يحس فى أعمـاقه أن المسـيح يبارك خطواته ٠

٤٨

« واذ قال عيسى ابن مريم ، يا بنى اسرائيل ، انى رسول الله اليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » .

(قرآن كريم)

كان الحزن مخيما على جو الاجتماع الأخير ، عيسى يعظهم ويحدثهم عن موته ، وعن القادم بعده ، وهم فى حيرة لا يفهمون ، راح يقول لهم :

ـ لا تضطرب قلوبكم ، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى ، فى بيت الله منازل كثيرة ، قلت لكم : انى ذاهب لأعد لكم مكانا ، فان مضيت وأعددت لكم مكانا ، آتى وآخذكم الى ، فحيث أكون تكونون ، وحيث أذهب تعلمون الطريق .

فقال له توما :

ـ يا سيد ، لا نعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

ـ أنا هو الطريق والحق والحياة ، لا يأتى أحد الى الله الا بى . لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضا .

قال له فيلبس :

ـ يا سيد أرنا الله وكفانا .

ـ الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلم به من نفسى ، ولكن يوحيه الله الى .

انى ذاهب الى الله ، فان كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى .

وأنا أطلب من الله فيعطيكم (فراقليط) (١) آخر يمكث معكم الى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه ، لأنه ماكث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله الله ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم : أنا ذاهب ثم أعـود اليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون ، لأنى ذاهب الى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

ـ يا معلم ، انى مستعد أن أمضى معك الى الموت (٢) .

فنظر عيسى اليه فى اشفاق ، وقال له :

ـ أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليـوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفنى .

وحدث هـرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون ، فقال لهم :

ـ قوموا ننطلق من ههنا .

فقاموا وخرجوا الى المدينة المحتفلة بالعيد ، كان القمر يرسل

---

(١) فراقليط لفظة يونانية ترجمتها جمعيـة التوراة الأمريكية (بالمعزى) ، وترجمها الكتاب المسـلمون (بأحمد) ووضع الأب عبد الواحد داود الأشورى العراقى فى كتابه (الانجيل والصليب) ، الكلمات اليونانية التى فى التوراة والانجيل بمعنى أحمد واسلام .

(٢) ذكر فى انجيل لوقا : انى مستعد أن أمضى معك حتى الى السجن ، وقد حذفت « السجن » لأن الحديث حديث وداع ، ويدور حول الموت .

أشعته الفضية ، فيكسى المدينة العتيقة ثوبا قشيبيا ، وتلألأ الهيكل في الفضاء مزهوا . وساروا حتى اذا بلغوا جبل الزيتون ، راحوا يصلون خاشعين ، ويبتهلون الى الله :

أحببت ، لأن الله يسمع تضرعاتى ،
لأنه أمال اذنه الى ،
فأدعوه مدة حياتى ،
اكتنفتنى حبال الموت ،
أصابتنى شدائد الهاوية .
كابدت ضيقا وحزنا .
وباسم الرب دعوت .
آه يا رب . نج نفسى .

وجلسوا على سفح الجبل ، وراح يوصيهم :

ـ هذه وصيتى ، أن يحب بعضكم بعضا ، كما أحببتكم . ليس هناك حب أعظم من أن يضع المرء نفسه لأجل أحبائه ، أنتم أحبائى ان فعلتم ما أوصيكم به . بلغتكم كل ما أوحى الله الى ، أوصيكم أن يحب بعضكم بعضا .

اذكروا الكلام الذى قلته لكم ، ليس عبد أعظم من سيده . ان كانوا قد اضطهدوا فسيضطهدونكم ، وان كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم ، ولكنهم يضطهدونكم من أجلى ، لأنهم لا يعرفون الذى أرسلنى .

لو لم أكن قد جئت ودعوتكم الى الله ، ما كانت لهم خطية ، أما الآن فلا عذر لهم . الذى يبغضنى يبغض الله ، لو لم أكن قد أتيت لهم بآيات من الله ما كانت لهم خطية ، أما الآن فقد رأوا آيات ربى ، وكفروا بالله ورسوله .

ومتى جاء (الفراقليط) الذى سيرسله الله ، روح الحق الذى

من عند الله ينبثق ، فهو يشهد لى . وتشهدون أنتم أيضا ، لأنكم معى من الابتداء (١) .

قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا ، سيخرجونكم من الجامع ، بل تأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله (٢) ، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الله ولا عرفونى : كلمتكم بهذا حتى اذا جاءت الساعة تذكرون انى قلت لكم . ولم اقل لكم من البداية لأنى كنت معكم .

أما الآن . فانى ماض الى الذى ارسلنى ، ولا يسألنى أحد منكم اين تمضى . ملأ الحزن قلوبكم ، لأنى قلت لكم هذا ولكن اقول لكم : انه خير لكم أن أنطلق ، لأنى ان لم انطلق لا يأتيكم (الفراقليط) ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم . لى امور كثيرة لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمعه يتكلم به (٣) .

---

(١) لم يشهد أن عيسى رسول الله الا القرآن والحواريون والموحدون الأوائل .

(٢) فى سنة ٣٢٥ بعد الميلاد اجتمع مؤتمر نيقية ، وكان مكونا من ألف راهب ، لحل مشكلات الدين ، والفصل فيها . حاول « آريوس » رئيس الموحدين البرهنة على أن المسيح « عبد الله » وحاول « اناتاثيوس » الشماس السكندرى أن يبرهن (التثليث) وكان متأثرا بالديانة المصرية القديمة . اعترف بعبودية المسيح ثلثا المؤتمرين . ولكن قسطنطين ، وكان قد تنصر وكان حديث عهد بالوثنية انضم الى الأقلية الداعية الى التثليث ، وقتل الموحدين ، وهو يحسب أنه يؤدى خدمة لله . وأحرقت جميع الكتب الداعية الى التوحيد ، ولم تبق الا الكتب التى أقرها مؤتمر نيقية .

(٣) قال الله تعالى فى القرآن مخاطبا النبى محمدا (ص) : « واتبع ما يوحى اليك من ربك ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » .

بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى ، لأنى ذاهب الى الله .

فراح تلاميذه يتهامسون :

ــ ما هو هذا الذى يقول لنا ، بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى ، لأننى ذاهب الى الله ؟ ما هو هذا القليل الذى يقول عنه . لسنا نعلم بماذا يتكلم ؟

وفطن المسيح الى حيرتهم ، فقال لهم :

ــ أعن هذا تتساءلون فيما بينكم ، لأنى قلت : بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضا تروننى ؟ الحق الحق أقول لكم ستبكون وتنوحون ، والعالم يفرح . ثم أنتم ستفرحون ؛ سيتحول حزنكم الى فرح .

لم يفهموا مرمى حديثه ، سيفرح الناس لما يرون على الصليب رجلا يحسبونه المسيح ، وسيحزنون هم ويبكون ، ولكن حينما يعرفون أن الذى صلب كان غيره ، سيتحول حزنهم الى فرح شديد .

واستأنف حديثه ، وقال لهم فيما قال :

ــ هو ذا تأتى ساعة ، وقد أتت ، الآن تتفرقون فيها ، كل واحد الى خاصته وتتركوننى وحدى ، وأنا لست وحدى لأن الله معى ، قد كلمتكم بهذا ليكون لكم سلام ، سيكون لكم ضيق فى العالم ، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

رفع عيسى عينيه الى السماء وقال :

ــ يا رب ، قد أتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

يا رب ! هذه هى الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ، وعيسى المسيح الذى أرسلته (١) .

الآ علموا أن كل ما أعطيتنى هو من عنـدك ، لأن الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت الذى أرسلتنى . يا رب ، لم يعرفك العالم أما انا فقد عرفتك ، وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتنى .

ولف الحزن جبل الزيتون بغلالة سوداء ، لم يقو ضوء القمر أن يفضحها ، فقام عيسى وسار صوب وادى قدرون ، وسار تلاميذه مطرقين صامتين وصوته يرن فى آذانهم :

ـ أنا قد غلبت العالم .

---

(١) هذا النص جاء فى انجيل يوحنا ويشبه قول المسلمين : اشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن عيسى رسول الله .

٤٩

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » ·

(قرآن كريم)

« تآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما · الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم » ·

مزامير (٢ : ٢ ـ ٤)

أشجار الزيتون الضخمة تحجب ضوء القمر عن وادى قدرون ، فيلف المكان ظلام دامس ، والسكون عميق يبعث فى النفوس رهبة ، وعيسى وحواريوه ينسابون كأطياف ، وان كانت خطواتهم ثقيلة حزينة ، فعيسى يحس أن أيامه على الأرض انقضت ، بعد أن أوحى الله اليه أنه متوفيه ورافعه اليه ، والحواريون يستعيدون أقواله ويفكرون فيها ، ويمعنون فى الفكر ، فلا يهتدون الى شىء · « خرجت من عند الله ، وأيضا أترك العالم وأذهب الى الله » ، « أنا معكم زمانا يسيرا ، ثم أمضى الى الذى أرسلنى · ستطلبوننى ولا تجدوننى ، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا » ماذا يقصد بهذا ؟ وكيف لا يستطيعون أن يذهبوا حيث يكون هو ؟ وكيف يذهب الى الله ؟ أقوال غامضة لم تقدر عقولهم على كشفها ·

وابتعدوا عن أسوار المدينة العتيقة ، وهم يفكرون فى أقواله : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » كيف يشكون فيه وقد آمنوا به وصدقوه ، ان ايمانهم به عميق ، فهم يؤمنون أنه رسول الله ، فلن يشكوا فيه أبدا ·

ودخلوا ضيعة جشيمانى ، وكانت ليوسف الرامى ، وهو صديق من أصدقائه . وكان ينفرد فيها بحوارييه كلما جاءوا الى أورشليم . كان القمر يرسل أشعته . فيبدو العشب أخضر زاهيا ، والضوء يتخلل أشجار الزيتون ، فتتبعثر فى ظلها دنانير فضية ، كانت ليلة رائعة ولولا الحزن المنبعث فى أجوافهم ، والرهبة المسيطرة عليهم ، لكانت ليلة موحية بالأفكار والأمثال .

والتفت الى حوارييه ، وقال بصوت حزين :

ـ اجلسوا ههنا حتى أمضى واصلى هناك .

وانطلق وأخذ معه بطرس وابنى زبدى يعقوب ويوحنا ، حتى اذا ابتعد عن باقى حوارييه ، ظهر فى وجهه الأسى ، وجزع من الموت ، فالتفت الى أحب تلاميذه اليه وقال :

ـ نفسى حزينة حتى الموت . امكثوا ههنا واسهروا معى .

وجلس بطرس ويعقوب ويوحنا ، وتقدم خطوات ليصلى لله ، وما مست أجسام أحب حوارييه اليه الأرض حتى راحوا فى سبات .

وخر عيسى ساجدا ، وراح يدعو الله :

ـ الهى ، ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما اريد انا بل كما تريد أنت .

وظل فى صلاته وابتهالاته ودمعه سروب ، ثم قام وذهب الى تلاميذه الذين دعاهم ليسهروا معه ، فالفاهم نياما ، فجعل يوقظهم ويقول :

ـ سبحان الله ، أما تصبرون لى ليلة واحدة ، اسهروا وصلوا ، وصلوا ، اما الروح فنشيط ، وأما الجسد فضعيف .

وجلس معهم قليلا ، فأحس رغبة فى الصلاة ، فقام وتركهم ، وما خلا بنفسه يدعو الله حتى عادوا للنوم .

وخر ساجدا ، وراح يدعو الله :

ـ الهى : كتب على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .

واستمر فى دعائه ، ثم جاءهم فوجدهم نياما ، فأيقظهم ، فقالوا له :

ـ والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر ، وما نطيق الليلة سمرا ، وما نريد دعاء الا حيل بيننا وبينه .

فقال فى أسى :

ـ يذهب الراعى ، وتتفرق الغنم .

وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعاءه حتى ثقلت جفونهم فناموا ، وظل فى خشوعه ، فأرهفت حواسه ، ومس أذنيه صوت خافت أخذ يتضح ، انه وقع أقدام مقتربة ، فقام ينظر فاذا أضواء ومصابيح ومشاعل ، وغمر الضوء المكان ، فهب الحواريون مرعوبين .

وتقدم الجنود الرومانيون ، يحملون سيوفهم ، وحولهم خدام من عند رؤساء الكهنة والفريسيين ، فتقدم المسيح منهم ، وقال لهم :

ـ من تطلبون ؟

ـ عيسى الناصرى (١) .

لم يكونوا يعرفونه ، أرسلوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم ، فقال لهم عيسى :

ـ انى أنا هو .

فخفق قلب يهوذا فى جوفه ، ترى أيقبضون عليه ؟ وينقضى ملك المسيح ، ويظل هو فى شكه وقلقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادى ، ويخرج من استسلامه ويأسه ، ويستأنف

---

(١) اعتمدت رواية يوحنا ـ وان كانت تختلف عن روايات متى ولوقا ومرقص ـ لأنه كان فى مكان قريب من عيسى .

جهاده وكفاحه . وفى ذلك تجديد شباب الدعـوة ، التى لم تتفتح براعمها ؟ !

رجع الجنـود الى الوراء ، وسـقطوا على الارض . فانشرح صدر يهوذا ، انه يحس فى تلك اللحظة ذلك الظلام الذى تجمع فى صدره ينقشع . وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

نظر عيسى الى الجنود وهم ينهضون ، وقال لهم فى تحد :

ـ من تطلبون ؟

ـ عيسى الناصرى .

ـ قلت لكم انى أنا هو . فان كنتم تطلبوننى ، فدعـوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفا ، وضرب عبد رئيس الكهنة ، فقطع اذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره اهون من أن يحموه ، فقال لبطرس :

ـ اجعل سيفك فى غمده .

فوضع بطرس السيف فى قرابه . واتسعت عيـون التـلاميذ رعبا ، فقال لهم عيسى :

ـ اذهبوا .

فانطلقوا فرارا لا يلوون على شىء . وتركوا رسـولهم الذى اخرجهم من الظلمات الى النـور ، تحت اشجار الزيتون يحيط به جنود رومانيون غلاظ ، مدججون بالسلاح ، وبقى يهوذا يترقب ، خافق القلب مرعوبا ، فلو ان الرومانيين القوا القبض على عيسى ، لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات ، فرجع الجنود الى الخلف وسقطوا على الأرض . وانطلق عيسى من بينهم دون أن يروه ، وذهب ليختفى ، ويتحقق قوله لتلاميذه : « بعـد قليل لا تبصروننى . ثم بعد قليـل ايضا تروننى » .

أحس يهوذا نورا ينسكب فى جوفه ، وهزته موجة من الفرح ، عاد الى الحوارى الذى أوحى الله اليه أن آمن بى وبرسولى ايمانه الكامل ، وغسلت روحه ، وتخلصت من شوائب الشك ، كما يتخلص الثوب من أدرانه اذا غسل بالماء •

وقام الجنود الرومانيون الغلاظ حانقين ، ونظروا فلم يجدوا الا يهوذا واقفا فى الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه يحسبونه عيسى • وأراد يهـوذا أن يقـاومهم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ، ولكنهم انهالوا عليه بالسباب ، وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه . فتيقن أن الله أنزل به ذلك البلاء ، ليجازيه على شكه الذى نبت فى جوفه ، بعد أن أوحى اليه الايمان ، فلزم الصمت ، وعزم على ألا ينبس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهـر ، ويستحق أن يجلس مع المسيح فى ممـلكة الله ، ويدين أسـباط اسرائيل الاثنى عشر ، كما قال المسيح •

٥٠

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون » .

(قرآن كريم)

اضواء المشاعل تتراقص ، فالهواء يعبث بها ، فتضطرب الأنوار الساقطة على الوجوه ، فتبدو السحن غريبة ، واصدر قائد الجنود أوامره بالسير ، فساروا ويهوذا فى وسطهم بقامته الطويلة ، مطرقا ، كل من يراه يحسبه عيسى ، وسار على البعد بطرس يرصد ما يفعلونه بمن حسبه سيده ، الذى تركه أحب الناس اليه فى أيدى أعدائه ، وولوا فرارا .

غادروا الضيعة ، وانطلقوا فى وادى قدرون ، لا يسمع الا وقع أقدامهم ، وقد استسلم يهوذا لقضاء الله ، ولم يرتجف ولم يحزن ، بل لفته طمأنينة ، بعد انقشاع ضباب الشك الذى تلبد حول ايمانه وتصديقه .

سيصبر يهوذا (١) حتى الموت ، ليكفر عن الوساوس التى نبتت حينا فى جوفه ، فما كان له ان يتزعزع ، وقد شرح الله صدره للايمان ، استكان لضعفه ، وترك الشيطان يمسه ، فحق عليه أن

---

(١) كتب نقاد الغرب ينقدون الاختلافات الكبيرة فى « محاكمة المسيح وموته وقيامته » الواردة فى الأناجيل ، وترجع الاختلافات الى أن متى ولوقا ومرقس ويوحنا لم يعاينوا شيئا منها بل تلقفوا أخبارها من أفواه العامة واستمدوا بعض المعلومات من مخيلاتهم .

يتحمل العذاب ليتطهر ، ويستحق ان يجلس مع المسيح في مملكة الله . ورد في انجيله قول المسيح : « الحق اقول لكم : انتم الذين تبعتموني في التجديد ، متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون انتم ايضا على اثني عشر كرسيا ، تدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر » فاحس يهوذا كأن قوة علوية تثبته . فهو احد الاثني عشر الموعودين المبشرين بالمجد والعظمة . وما كان لمثله ان يتردى في الظلام .

ـ ـ طائف من الشيطان . ولما كان من المؤمنين تذكر ، فانجابت الغشاوة عن عينيه . فاذا هو مبصر . فقرر ان يتحمل عن سيده العذاب والاضطهاد .

كان الليل قد انتصف ، وكانت المدينة المقدسة غارقة في ضوء القمر . وانوار الهيكل تتقد من الكوات كأشعاعات قطعة من الماس . والجنود الرومانيون ويهوذا يدرجون في طرقات اورشليم التي سادها الصمت العميق .

ودلفوا الى الهيكل ، وساروا الى بيت رئيس الكهنة . وسمحت لهم المراة الواقفة عند الباب بالدخول ، واقبل بطرس الذي كان على البعد يقتفي آثارهم ، واراد ان يدخل ، فرمقته المراة بنظرة فاحصة ، ثم قالت :

ـ الست انت ايضا من تلاميذ هذا الانسان ؟

فاضطرب بطرس وقال :

ـ لا لست من تلاميذه .

ساق الجنود الرومانيون يهوذا الى غرفة واسعة ، تضيئها المشاعل ، وقد جلس في نصف دائرة فريسيون وكتبة ، ورأس الاجتماع شيخ كبير ، ابيض الشعر ، هو حنان ، صهر رئيس الكهنة قيافا ، وساد الاجتماع قلق ! كانوا يخشون في اعماقهم ان

ينزل عليهم غضب من السماء ، وان اخفوا ذلك وتظاهروا بالعبوس والتقطيب ·

ارادوا ان ينتهوا من محاكمته سريعا ، وان يصدروا حكمهم بموته ، ثم يفروا من ذلك القلق الساري في المكان ، فقال له حنان :

— من هم تلاميذك ؟ وما هي تعاليمك ؟

فصمت يهوذا ولم يحر جوابا ، فصاح به حنان :

— تكلم ·

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم احد الخدام ، ولطم يهوذا لطمة قوية ، وقال له :

— جاوب رئيس الكهنة ·

وبقى يهوذا ساكنا لا ينبس بكلمة ، وراح حنان يلقى عليه اسئلته ، ويهوذا غارق في الصمت ·

ودخل بطرس الى الردهة الطويلة ، كانت الليلة شديدة البرودة ، فأوقد الجنود الرومانيون نارا يصطلونها ، فاقترب بطرس من النار ، ووقف ينعم بالدفء ، اذ وقف هناك في القاعة القريبة من يحسبه سيده ، يحاكم امام اعدائه ، ويحاسب حسابا عسيرا ·

ورنا احد الجنود الى بطرس مليا ، انه هو ذلك التلميذ الذي رفع سيفه ، وقطع اذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه ، وقال له :

— الست انت ايضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال

— لا لست من تلاميذه ·

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة ، وقال له :

— لا · انى لا اعرفه ·

— الم ارك معه في البستان ؟

وانتهز بطرس فرصة تشاغلهم عنه بالنار التى كانوا يذكونها ، فانسل هاربا ، مغادرا الهيكل ، لينجو بنفسه .

لم يتكلم يهوذا ، فضاق به حنان ذرعا ، وأمر أن يقودوه الى قيافا رئيس الكهنـوت ، ليرى رأيه فيـه ، فانطلقوا به فى جوف الليل ، حتى اذا وقف أمام قيافا ، ظل فى صمته العميق .

كان قيافا يرى أنه خير للأمة أن يموت واحد من أن تقوم بسببه حرب أهلية بين بنى اسرائيل ، كانت غايته أن يقتله ويستـريح ، فراح يسأله وهو مطرق ، مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا ، وأراد أن ينتهى منه ، فأرسـل يستدعى — وهو رئيس الكهنوت — شهود زور يشهدون عليه ، فلم يجد ، وأخيرا أقبل شاهدان وقالا :

— هذا قال انى أقدر أن أنقض هيكل الله ، وفى ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما تجيب بشىء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك .

لو كان المقبوض عليه عيسى ، لقال انه قال ذلك ، فما كان لنبى أن يكفر بأقواله ، ولكنه كان يهوذا ! لم يشأ أن يكذب فى لحظاته الأخيرة ، فظل ساكتا لا ينطق بكلمة ، نفد صـبر رئيس الكهنـة ، فقال له :

— أستحلفك بالله أن تقول لنا : هل أنت المسيح ؟

لم يشأ يهوذا أن يكذب ، فقال له :

— أنت تقول ذلك .

ثم صمت قليلا وقال فى حماسة من يؤمن بكل كلمة ينطق بها :

— من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا على يمين القـوة ، وآتيا على سحاب السماء .

فمزق رئيس الكهنة ثيابه ، فما أضاء ذلك القول شـيئا ، انه

قول يقوله أى مؤمن بالمسيح ، وأراد قيافا أن ينهى هذه المحاكمة ، فقال :

ـ لقد كفر فما حاجتنا الى شهود ، ها قد سمعتم كفره ٠

والتفت الى الفريسيين والكتبة والصدوقيين ، وقال لهم :

ـ ماذا ترون فيه ؟

وهل كان يرى أعداء المسيح غير موته ، فقالوا :

ـ انه مستوجب الموت ٠

حكموا على يهوذا بالقتل ، وهم يحسبون أنه المسيح ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، وابتسموا فى راحة ، ولكن « الساكن فى السماء يضحك ، الرب يستهزىء بهم » ٠

وانقضى الليل ، وصاح الديك ، فتذاكر بطرس قول عيسى له : انه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك ، فهام على وجهه يبكى وينتحب . حتى كادت كبده تتصدع من البكاء ٠

٥١

« فويل للذين يكتبـون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (١) ٠

(قرآن كريم)

خرج الى الردهة بعد أن قرر المجتمعون استحقاقه للقتل ، فقام اليه الخدم والجنود يبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصـفعونه ، ويركلونه ، ويسددون اللكمات الى وجهه ، ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل اهاناتهم فى صبر عجيب ، كان يخفف من آلامه انه يتلقى الاضطهاد عن سيده الذى هداه الى النور ٠

وساقوه الى غرفة يحبسـونه حتى طلوع النهـار ، وانعقـاد السنهدرين ، فما كانت تجرى المحاكمات القانونية الا فى وضـح النهـار ، وأدخلوه ودخلوا وأغلقـوا البـاب خلفهم ، وأخذوا يصفعونه ساخرين ، ثم قفزت الى أذهانهم فكرة يقطعون بها الوقت حتى طلوع النهـار ، فحجبوا عينيـه ، وتقدم اليـه واحد منهم ، ولطمه ، وقالوا هازئين :

ـ تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

---

(١) قال سلسوس من علماء القرن الثانى للميلاد ، ونقل عنه أكهارن من علماء ألمانيا « بدل النصـارى أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات ، بل أكثر من هذا تبديلا ، كأنما مضامينها بدلت » ٠

وجلجلت ضحكاتهم المقيتة تمزق السكون ، واستمروا فى عبثهم وقسوتهم . ويهوذا صابر . فمهما اشتدت آلام الجسد ، فهى اهون من عذاب الروح ·

وانقضى الليل ، وأشرقت الشمس ، وانعقد السنهدرين ، من الفريسيين الذين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس المجتمعين قيافا ، رئيس الكهنة المتظاهر بالتقوى ، الضالع مع الهيروديين فى الفسق والفساد . وكان بينهم نيقوديموس ، ثالث أعضاء المجلس ، الذى آمن بعيسى وأخفى ايمانه ·

كان نيقوديموس مضطربا لا يقوى على أن يرفع عينه ، كان يفكر فى انقاذ من آمن به ، وكان يخشى أن تفضحه خفقات قلبه ، لذلك راح يعبث بأصابعه ، يحاول أن يوارى ما به ·

وجىء بيهوذا ، ومثل أمام أعضاء السنهدرين ، وقد غير الاضطهاد هيئته ، وما وقعت عينا نيقوديموس عليه حتى أحس يدا تعصر قلبه ، وانقبض ، كانت آثار التعذيب قاسية . فاستشعر كأنخنجرا يخز فؤاده ، وطأطأ بصره حتى لا تظهر على وجهه انفعالات نفسه ·

وقال له قيافا :

ـ ان كنت المسيح فقل لنا ·

ماذا يقول لهم يهوذا ؟ اذا قال لهم انه المسيح كذب ، وان قال لهم انه يهوذا لم يصدقوه ، فقال لهم فى سخرية :

ـ ان قلت لكم لا تصدقون ، وان سألت لا تجيبونى ولا تطلقونى ·

وصمت قليلا ، وحسب أن الله رفع عيسى ، فقال :

ـ منذ الآن يكون ابن الانسان جالسا عن يمين قوة الله ·

فصاح قيافا :

ـ ما حاجتنا الى شهود ، سمعنا اعترافه ·

وأمر باخراجه ، وراح أعضاء السنهدرين يتشـاورون . ولم يقل شيئا يستحق عليه القتل ، لم يدع الالوهيـة ، فلو أنه ادعاها لما كانوا في حاجة الى التفكير في تهمة تغير صدر بيلاطس عليه . انهم يريدون أن يتخلصوا منه ومن تأليب الشعب عليهم · هذه هي المسألة ·

وفكروا فيما يتهمونه به ، انه عمل فى السبت وخرق الناموس وهذا يستوجب القتل ، ولكنه أثبت فى كل مرة أنه كان يعمل الخير في السبت ، وأفحمهم وألقمهم أكثر من حجر ، واتهموه انه ادعى أنه اله ، فاثبت لهم أنه استعار التشبيه من مزامير داود ، وانه لم يقصد به الالوهية ، بل الاختيار والاصطفاء ، كان هدفهم قتـله ، فليقولوا لبيلاطس انه يدعو الناس الى الثورة ، والى الامتناع عن دفع الجزية . فلو أنهم رفعوا اليه ذلك لوافق على قتله ·

خرج يهوذا الى الجنود الغلاظ ، فعادوا يبصقون فى وجهه ، ويسبونه ، ويصفعونه ويلطمونه ، وانضـم اليهم بعض الفريسيين والصدوقيين ينقمون لسهام السخرية المريرة التى رشقها عيسى فى أبدانهم ·

وقام رؤساء السنهدرين ، وانطلقوا الى قصر بيلاطس الهائل . وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشـدود وثاقه ، وحوله الجنـود الرومانيون ، ودلفوا الى القصر العظيم ، واستأذن قيـافا رئيس الكهنوت فى الدخول على الحاكم ، فلما أذن له ، قال :

ـ جئنا بعيسى ، ذلك الذى أضل كل اسرائيـل بتعاليمه وآياته الكاذبة ، من الجليل حتى أورشليم ، ولم يكتف بدعواه ، بل راح يفسد الامة ، ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية لقيصر .

زاعما انه المسيح ملك اليهــود ، كان بيلاطس يحب عيسى ، ســمع باياته وتعاليمه ، فمال اليه قلبه ، وان كتم ذلك عمن حوله : فطلب ان يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به ، وقال له :

ـ سلمك الكهنة وشيوخ الشعب الى يدى ، فقــل الحق لاقيم العدل ، لأنى قادر على أن أطلقك ، وقادر على الأمر بقتلك ٠

فقال يهوذا :

ـ اذا امرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا ، لأنك تقتل بريئا ٠

واستمر بيلاطس يحاور يهــوذا وهو يحســبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ، وقال :

ـ اية شكاية تقدمونها على هذا الانسان ؟

ـ لو لم يكن خطيرا ما دفعنا به اليك ٠

وراحوا يكيلون اليــه التهم ، ويهوذا صــامت لا ينبس بكلمة حتى تعجب ٠ كانت اتهاماتهم تقطر عداوة ، وان كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى ، ما يستوجب القتل ٠

لم يطمئن ضمير بيلاطس الى تأييد حكم السنهدرين ، فطن الى انهم يريدون قتله غيرة منه ، كانوا مرائين ، ففضحهم أمام الشعب الغافل ، ولو تركوه يسعى فى الأرض لفض الناس من حولهم ٠

وفطن رؤساء الكهنة أن بيلاطس يفكر فى اطلاقه ، فقالوا له :

ـ اذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر ، كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر ٠

فلما سمع بيلاطس لفظة الجليلى ، قفــزت الى رأسه فكرة ، فقال :

ـ هل الرجل جليلى ؟

ـ نعم ٠

ـ أرسلوه الى هيرودس (١) ، فهـو من رعاياه ، ليرى فيـه رأيه ٠

وخرج الكهنة وشيوخ اسرائيل ويهوذا والجنود الرومانيون ، وانطلقوا الى هيرودس ، فقد كان فى أورشليم فى العيـد ، وتنفس بيلاطس الصعداء ، حسب أنه استراح من الحكم فى هذه القضية ، التى لا يستريح ضميره اذا بت فيها بما يرضى أعضاء السنهدرين وشيوخ اسرائيل ، الواغلين فى العداوة والبغضاء ٠

---

(١) ذكر خبر ارساله الى هيرودس فى انجيل يوحنا فقط ، ولم تتفق رواية مع أخرى فى الأناجيل الأربعة بشأن هـذه المحاكمات وهذا دليل ظاهر على أنهم تلقفوا أخبارها من أفواه العامة ٠

٥٢

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ٠

(قرآن كريم)

خرجت الشمس من أكمامها ، وأرسلت أشعتها الى أورشليم التى لم تغمض لها عين طوال الليل ، كان أهلها يحتفلون بالعيد ، ورجال الدين فيها من فريسيين وصدوقيين وناموسيين يحيكون مؤامرتهم ، ليقتلوا عدوهم ، مكروا ومكر الله ، ففر عيسى من أعدائه ، وسقط يهوذا فى أيديهم ، ليطهر الاضطهاد نفسه من أدران الشك التى رسبت فى جوفه ، فما كان له أن يشك بعد أن شرح الله صدره للايمان ، وليتحقق قول المسيح : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » ٠

شبه (١) لهم ، فلم يعرفوه ، وراحوا يحاكمونه وهو صامت ، اذا تكلم يكشف سيده أو ينطق كذبا ، فلاذ بالسكوت ، فما كان له أن يكذب وهو فى تطهيره ، ليتحقق وعد المسيح له بأنه من تلاميذه الذين سيجلسون معه فى ملك الله ٠

---

(١) ذكر « جاى وفرير » مؤلفا كتاب « أصول الطب الشرعى » حادثة استحضرا فيها ١٥٠ شاهدا لمعرفة شخص يدعى « مارتن جير » فجزم أربعون منهم أنه هو هو ، وقال خمسون غيره ، والباقون ترددوا جدا ، ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ، واتضح أن هذا الشخص غير مارتن ، بعد أن عاش مع زوجة مارتن وأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات ٠

سار رجال السنهدرين وجنود الرومانيين ويهوذا بينهم ولحته الجماهير التى كانت تخف اليه . فاسرع الرجال والنساء يسبونه ، ويبصقون فى وجهه ، ويؤذونه وهو مطرق ساكن . وارتفع صوت يقول :

ـ انه رجل صالح . لا يستحق هذا .

فزمجرت الاصوات ، وارتفعت الاعتراضات :

ـ انه أضلنا . لو كان نبيا لأيد رسالته بالآيات .

ـ وافق على أن تدفع الجزية لقيصر ، وما كان لنبى ان يرشد قومه الى وضع نير الرق فى أعناقهم .

ـ أين هذا الذى يدعى النبوة من يهوذا الجليلى . الذى ثار ليحررنا من الرومانيين . فما كان لابناء الله أن يكونوا تحت حكم الوثنيين عبدة الأوثان .

ـ يا قوم انه رجل صالح يدعو الى الله .

وثار فى وجهه الناس ، فصمت وانسل بعيدا ، قبل أن يبطشوا به .

وبلغ رجال السنهدرين قصر هيرودس أنتيباس ، كان الجنود الرومانيون يغدون ويروحون أمامه وفى أيديهم الرماح ، كانوا يقومون بالحراسة ، فوالى الجليل وفد الى أورشليم فى العيد ، يقدم القرابين الى الهيكل ارضاء لرعاياه اليهود . فهو حريص على ان يظهر أمامهم فى مسوح الرهبان ، وان كانوا يتهامسون بأحاديث الليالى الصاخبة التى يقضيها فى قلعة ماكيروس .

جلس هيرودس يستقبل الصباح ، وأرخى لخياله العنان : سمع وهو فى أورشليم بالعداوة القائمة بين بنى الناصرة ورجال الدين . فتحركت مخاوفه . فأوهامه تلح عليه أن ذلك النبى ما هو الا يحيى ، قام من الأموات يثأر لقومه ، ان شبح يحيى يطارده ويؤرقه ويصرخ به فى سكون الليل ، فيطير من عينيه الرقاد . بلغ

سمعه همس الناس أن الله نصر جيوش الحارث والد زوجته التى فرت منه لما تزوج من هيروديا ، على جيوشه ، انتقاما لدماء نبيه الزكية . فزاد ذلك فى مخاوفه ، وبات فى قلقه يترقب ساعة الانتقام .

ودخل عليه حاجبه ، وقال له ان رؤساء السنهدرين يلتمسون مقابلته ، فأذن لهم بالدخول ، وهو يعجب ، فما كانوا يفدون اليه فى العيد ، فلطالما جاء قبل ذلك حاجا الى أورشليم ، ولطالما ساق أمامه الهدى ، وذبحه فى المذبح قربانا الى يهوه اله اسرائيل ، ولم يخفوا لاستقباله ، وان كانوا يسارعون الى بيلاطس ممثل الرومانيين .

أقبل قيافا ورئيس الصدوقيين ورئيس الفريسيين ، وقالوا :

– جاء من الجليل من يزعم أنه نبى ، وراح يفسد الناس ، ويغريهم بعدم دفع الضرائب الى قيصر ، وقد حاكمه السنهدرين ، وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم ، فقد أرسلنا الوالى اليكم .

خفق قلب هيرودس ، كان يطمع فىأن يرى عيسى ، ليقضى على وساوسه التى تقلقه ، ولكن عيسى رفض أن يذهب الى ذلك الثعلب فى قصره ، وها هى ذى الفرصة قد سنحت ليراه ويحدثه ، ويطلب منه أن يأتى بآية من آياته ، وانها لتسلية فى العيد ، أن يشاهد هيرودس الآيات !

وجىء بيهوذا مشدودا وثاقه ، فرماه هيرودس بنظرة سريعة فاحصة ، فسكنت الطمأنينة قلبه ، لم تكن فى وجهه صرامة يحيى ، فملامحه لا توحى بما كانت توحى به ملامح النبى الخشن من رهبة ، كانت نظرة من يحيى تزلزل هيرودس ، وتذيب جبروته .

وقف يهوذا خافض الرأس ، وان كانت السكينة تعشش فى فؤاده ، وهيرودس يديم اليه النظر ، ويصغى الى الفريسيين

والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تتدفق من أفواههم تقطر عداوة ومقتا .

وقال هيرودس للماثل أمامه :

ـ ما تقول أنت ؟

لم يحر يهوذا جوابا ، وسلم أمره لله ، وترقب قضــاء الله فى صبر عجيب ، فقد أضيء أمامه الطريق ، ووضح السبيل .

قال له هيرودس :

ـ زعمت أنك رسول الله ، فان أردت أن يصدقوك فأت بآية أنا منتظرون ، لم يفتح يهوذا فمه ، ولم ينطق حرفا ، وانقشعت مخاوف هيرودس ، وعاد الى طبعه ، فراح يسخر من يهــوذا ، وبعث الى رجال بلاطه يشاركونه فى الزراية بالرجل ، والتهكم عليه ، فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيض .

وصاح صائح :

ـ انه مجنون .

وجلجلت ضحكات الزراية والاستخفاف ، وأراد هيرودس أن يرفه عن بلاطه فى العيد ، فأمر بالباس الرجل ثياب المجانين !

أخذ الجنود يهــوذا ، يصفعونه ويلطمــونه ويخزونه بأطراف حرابهم ، وهيرودس ورجاله يقهقهون ، كأنما سلب منهم كل شعور ، حتى رجال الدين ، أعضاء السنهدرين شاركوهم فى الهذر المقيت .

وجيء بيهــوذا وقد ألبس ثوبا أبيض لامعــا ، فرنت قهقهات العــابثين ، وتطــايرت فى القصر ألفـــاظ الاستخفاف والمجون ، وارتسمت ابتسامات عريضة فى وجوه الفريسيين المتزمتين ، ولم يروا فيما يجرى أمامهم فى العيد خرقا لناموس ، يستأهل العبوس والتقطيب .

أين عيسى ليسخر من ريائهم ، ويمــرغ كبريائهم فى الأوحال

أمام ذلك الوالى الغليظ القلب ؟ أين عيسى ليصفعهم بقـوارعه ، ويجعلهم ينكمشون فى الأركان ؟ أين ذلك الذى دمغهم بالعار على مر الزمان ؟ انه لم يكن هناك فى ذلك القصر العابث ، بل كان هناك يهوذا الغارق فى صمته ، التائب من ذنبه ، يتحمل ذلك الاضطهاد ، ليتم له التطهير ٠

كانت الجفوة قائمة بين بيلاطس وهيرودس ، كان كل منهمـا ينتظر عقب أن عين حاكما على ولايته ، أن يبدأ صاحبه بزيارته ، ولكن لما لم تتم تلك الزورة تغيرت النفوس ، ولكن بدا اليوم انجياب تلك السحابة ، أرسل بيلاطس الى هيرودس ذلك الجليلى ، ليرى أمره فيه ، فرأى هيرودس أن يرد له مجاملته ، بأن يعيد له الرجل يتصرف فيه ، فأمر أعضاء السنهدرين أن يعـودوا الى بيلاطس ، وكتب له :

ـ أقم العدل فى بيت اسرائيل ٠

٥٣

« لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين » .

(قرآن كريم)

كانت كلوديا بروكيولا . زوجة بيلاطس الحاكم الرومانى فى أورشليم ، فى شرفة القصر تشاهد المدينة المقدسة فى عيد الفصح ، الرجال فى ثياب الصلاة ينطلقون الى الهيكل ، والنساء فى الثياب الزاهية الجديدة ، أسدلن على وجوههن نقبا كثيفة ، والأطفال ينطلقون مرحين ، فى ايديهم قطع من فطير الفصح .

نظرت كلوديا صوب القصر القريب ، النازل به هيرودس حاكم الجليل . فلمحت على البعد السنهدرين من فريسيين وصدوقيين يسوقون امامهم فريستهم . وحوله الجنود ، تحلقهم جمهرة من خدام الهيكل واللاويين والمتطفلين . فخفق قلب كلوديا فى شدة ، وأحست انقباضا ، لم يحكم هيرودس فى أمره ، بل أعاده الى زوجها ليتصرف فيه .

رأت كلوديا فى نومها حلما حول ذلك الرجل ، حلما افزعها واقلقها ، حلما أوحى اليها فيه . ان ذلك الرجل برىء لا يستحق القتل ، وقد تألمت فى نومها من تلك الرؤيا ، ولما استيقظت ظلت منقبضة ، وحاولت ان ترفه عن نفسها بالتطلع الى الناس فى العيد ، ولكن رؤيتها لذلك الجمع جددت قلقها ، فبعثت الى زوجها :

ــ اياك وهذا البار ، فقد تألمت فى الحلم كثيرا من أجله .

فكر بيلاطس فى أمر ذلك النبى الجديد ، ان تعاليمه لا تغضب

الرومانيين ، تدعو الى حب الأعداء ، ودفع الجزية ، واعطاء ما لقيصر لقيصر ، لا تثبت موح التمرد والثورة ، بل روح الاستكانة والخضوع ٠

اذا اتهم بانه ملك اليهود ، فقد أعلن أن مملكته ليست مملكة أرضية ، ان هى الا مملكة سماوية . وما كان بذلك ينافس طيبروس أو احفاده فى سلطانهم ، ما قاده رؤساء الكهنة اليه الا ليكون اداة تنفيذ لمآربهم ، يريدون أن يقتلوه ، ليتخلصوا من سخريته ٠

من أتباعه حتى يفزع بيلاطس منه ؟ حفنة من الصيادين الفقراء ، وبعض النساء المستضعفات ، أهؤلاء هم رعاياه فى مملكته ، أهؤلاء هم الذين يثيرهم على طيبروس والامبراطورية الرومانية ؟ ان هى الا عداوة محلية بينه وبين الفريسيين المتعجرفين ، والصدوقيين الرافلين فى الغرور ، ألبسوها ثوب الاعدام ، ولكن بيلاطس قد عزم على أن ينقذ الرجل ، ويخلى سبيله ٠

جرت العادة أن يطلق الشعب فى العيد سراح أحد المسجونين . وفى يد بيلاطس أسيران . ذلك الذى جاء به رجال الدين ، وباراباس الثائر سفاك الدماء ، فاذا ما خير الشعب فيمن يطلق لهم سراحه ، فلا شك أن الجماهير ستطلب الافراج عن النبى الناصرى ٠

عاد رؤساء السنهدرين اليه برسالة هيرودس ، فطلب الرجل الحائر ، فلما دخل يهوذا عليه ، أحس اشفاقا نحوه ، كان مجهدا مكدودا . وما كان وجهه ينم عن ثورة أو شر ، كان مطرقا فى استسلام ، كأنما ألقى للأقدار مقاليده ٠

وعاد بيلاطس يحاور ذلك الذى أرسلت اليه كلوديا أنها رأت فى المنام أنه برىء . فلم يقس عليه ولم يشتد . ثم خرج الى الجموع الزاخرة التى حشرت فى ساحة القصر ، وأطل عليهم ، وقال لهم :

ـ قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب ، وهاأنذا قد فحصت عنه قدامكم . ولم أجد فى هذا الانسان علة مما تشكون به عليه ، ولا هيرودس أيضا ، لأنى أرسلتكم اليـه ، انه لم يفعل ما يستحق عليه القتل ، فدعوه لى أؤدبه ، وأطلق سراحه .

ما كان هـذا ما يبغى الفريسيون والصـدوقيون والكتبة والصرافون وباعة الأغنام والحمام فى الهيكل ، فارتفعت أصواتهم :

ـ اقتله ، اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

ـ نريد قتله .. نريد قتله .

ـ لم يفعل ما يستوجب القتل .

ـ اقتله ، اقتله .

وصمت بيلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التى حركها أعضاء السنهدرين ، واستجاب لها خدام الهيكل ، والجماهير التى تنتقل اليها عدوى الثورة ، أو عدوى الرضا ، دون أن تدرى لماذا ترضى ولماذا تثور !

وخفتت الأصوات ، وبدأ بيلاطس يتكلم ، فتعلقت به العيون ، وأرهفت له الآذان ، قال :

ـ اننا نطلق لكم فى العيد أسيرا ، فمن تريدون أن نطلق لكم فى هذا العيد . باراباس أم عيسى الذى يدعى المسيح ؟

فهتف الفريسيون والصدوقيون وتجار الهيكل :

ـ باراباس .

وانطلقت العدوى الى الجماهير ، فراحت تردد :

ـ باراباس .. باراباس .

تضايق بيلاطس ، كان يطمع فى أن يؤيده الشعب ضد أعضاء السنهدرين ، كان ينتظر أن ترتفع الاصوات طالبة اطلاق سراح ذلك الذى لم يرتكب اثما ، من كان كل ذنبه أن حسده رجال الدين ، فاذا بالجماهير ببغاوات تردد ما تلقن .

وأراد أن يثير حماسة الجماهير ، أن يزيل الغشاوة التى أسدلها على العيون الفريسيون والصدوقيون ، فأتى بيهوذا مشدودا وثاقه ، وقال لهم :

– فماذا أفعل بهذا ؟

كان يحسب أن رؤيته تعيد الى الناس رشدهم ، ولكن خاب ما حسبه ، فقد ارتفعت أصوات الأعداء مجلجلة :

– ليصلب .

وتجاوبت الأصوات وراحت ترن فى القصر :

– ليصلب ، ليصلب .

فقال بيلاطس فى يأس :

– أى شىء فعل ؟

– اصلبه .. اصلبه .

– لم يفعل ما يستوجب الصلب .

– اصلبه .. اصلبه .

– أؤدبه وأطلقه .

– خذ هذا وأطلق لنا باراباس .

– باراباس .. باراباس .

– اصلبه .. اصلبه .

– نريد باراباس .. باراباس .. باراباس .. باراباس .

– اصلبه .. اصلبه .

رأى بيلاطس الفتنة تتحرك ، غلا مرجل غضب الجماهير ،

وما هي الا اشارة من رجال الســنهدرين الحانقين ، حتى يندلع لهيب الثورة ، فقال لهم :

ـ خذوه أنتم فاصلبوه ، فانى لا أجد ما آخذه به .

فصرخ رجال السنهدرين :

ـ لنا ناموس ، وحسب ناموسنا هو يستحق الموت ، لأنه جعل نفسه ابن الله .

يا للرياء ، انهم يدعون أنفسهم شعب الله المختار ، أبناء الله ، وقد حاولوا أن يتهموه بالمروق لما قال انه ابن الله ، ولكنه أثبت لهم انه استعار ذلك من كتبهم : من مزامير داود ، وأنهم جميعا « أبناء العلى يدعون » . أثبت لهم أنه لم يدع الألوهية . واثبت لهم انه ابن الله مثلهم جميعا ، وانه عبده ورسوله ومصطفاه ، فلماذا يحاولون الآن ان يلصقوا به تهمة سبق أن برءوه منها ؟ وهل كان بيلاطس الرومانى الوثنى يفهم كثيرا او قليلا فى مثل هذه الأمور ؟ أرادوا أن يوهموه أنه ارتكب اثما كبيرا فى حق ناموسهم ، ليرغموه على التصديق على صلبه ، فما كانوا قادرين على ان يصـلبوه ما لم يوافق على ذلك الحاكم الرومانى ، صاحب الكلمـة والسلطان ، قال لهم بيلاطس لعلهم يوافقون :

ـ اجلده ، ثم أطلق سراحه .

ـ اصلبه ، انه يستحق القتل حسب ناموسنا .

لم يســتطع أن يثنيهم عن عزمهم ، وبدا الشر يطل بخطمه . فجاء بيلاطس بماء وغسل يديه أمام الجميع . وقال :

ـ انى برىء من دم هذا البار .

فصـــاح الكتبة والفريسيون والصـدوقيون وتجار الأغنـــام والحمام والصرافون ، وخدام الهيكل ، والشعب المخدوع :

ـ دمه علينا وعلى أولادنا ٠

وخرج باراباس الى الجماهير ، فانطلقت هتـافات الفـرح ، وأخذ عسكر بيلاطس يهوذا ، ليعذبوه ويجلدوه قبل أن يصلبوه ، وصدق عيسى ، فالنـاس يفرحون ، وتلاميـذه يذرفون الدمع الهتون ٠

٥٤

« وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون » .

(قرآن كريم)

جنود الرومانيين يقودونه الى جوف القصر ، يسخرون منه ، ويبصقون فى وجهه ، ويلطمونه ويصفعونه ويضحكون ، كانوا فى أعماقهم يكرهون اليهود ، فأتيحت لهم فرصة التنفيس عن البغض المكتوم .

وبدأ جلد يهوذا ، فخف جميع جنود القصر ينظرون فى سرور ، كان حدثا جديدا فى حياتهم الرتيبة ، فهرعوا يتسلون منشرحين ، ترن ضحكاتهم مدوية ، كلما عابثه جندى أو لطمه ، أو استخف به أو ركبه بمجونه الطليق .

وخلعت عنه ثيابه ، وشد الى عمود ، فأصبح ظهره العارى مكشوفا ، وجاء جلاد ، وكان وجهه جامدا كأنما نحت من صخر ، وفى يده سوط ذو ثلاث شعب من الجلد ، فى نهاياتها قطع من رصاص ، ورفع الجلاد يده . وأهوى بالسوط على ظهر يهوذا يمزقه ، فلم ينقبض قلب جندى واحد ، بل انبسطت الأسارير .

وانهالت الضربات ، ويهوذا يئن كوحش جريح ، وفاضت التهليلات فى المكان ، تبلدت الاحساسات ، وطغت وحشية البشر ، حتى فاقت ضراوة الحيوان ، وتطايرت السخريات ، وانطلقت

التهكمات . فتلقفها الجنود مسرورين، كما يتلقف الأطفال هدايا العيد.

تمزق ظهــر يهوذا ، ولف سوط على وجهــه فقطعه ، وجاءته ضربة على رأسه فراح في غيبوبة . فلم يعد يحس مما حوله شيئا ، وتم جلده ، فهرع اليه بعض الجنود يقلبونه ، فألفوا انفاسه تتردد ، فأحسوا رضا ، لا لأنهم أشفقوا عليه ان يموت ، ولا لأنهم جزعوا لموته ، بل لأنهم سيجدون فيه تسـليتهم ، حتى يسـلموه الى من يصلبونه .

وصاح صائح :

ــ صمتا يا رفاق ، انكم بين يدى ملك اليهود .

وقال آخر :

ــ البسوه ثياب ملكه وتوجوه .

فأسرع الجنود اليه ، ولفوه في ثوب قرمزى ، ثم ضفروا اكليلا من الشــوك ، وتوجوه به ، ووضعوا في يده قصــبة ، رمــزا للصولجان ، واصطف الجنود ، وراحوا يمرون أمامه ، وينحنون في سخرية ، كما تنحنى الرعايا أمام الملك ، ويقولون في زراية :

ــ السلام عليكم يا ملك اليهود .

ولم يكتفوا بعبثهم القاتل ، بل كانوا يأخذون القصبة من يده ، ويضربونه بها على رأسه ، ويتصايحون فرحين ، كان بينهم كحمل برىء وقع بين براثن وحوش ، أو كفــأر صــغير تنهشه عشرات القطط .

دار رأس يهوذا ، وفاضت آلامه ، وزادت حتى غاب عن حسه ، فلم يعــد يستشعر العــذاب ، كانت تدثره غيبــوبة رحيمة تفقــده الشعور .

واقتيد يهوذا الى بيلاطس ، حيث كان قيافا وحنان وأعضــاء السنهدرين يترقبــون فريستهم ، ودخل يهــوذا والدم يجرى على

وجهه ، وينبثق من ظهره ، يجر رجليه ، يكاد يسقط من الاعياء ·

نظر بيلاطس الى رجال الدين المتنمرين ، الى حملة الشريعة الذين طمس الله قلوبهم ، وأعماهم الحقد البغيض ، الى المجرمين الحقيقيين ، الذين لو أصاخ الى صوت ضميره لدمغهم بالافتراء والكذب ، ولكنه كان يخشى منهم ، فهم القوة المحركة للشعب الأعمى ، انهم قادرون على أن يرسلوا الى قيصر فى رومية الوفود ، يلتمسون منه أن يخلعه ، وأن يأتيهم بوال جديد ، ففضل السلامة على أن يلقى سمعه لصوت الضمير ، قال :

ــ خذوا ملككم واصلبوه ·

أحسوا فى صوته رنة زراية ، فقالوا له :

ــ ليس لنا ملك الا قيصر ·

وقام رؤساء الكهنة وعيونهم تلمع بالقسوة ، وانطلقوا وجنود الرومان يدفعون أمامهم يهوذا المحطم ، كان يريد أن يموت ويستريح ، لم يعد يخشى الموت ، فبعده العز والسيادة على أسباط بنى اسرائيل ·

وارتفع صوت بيلاطس :

ــ خذوا هذه ، وضعوها على الصليب ·

فالتفت قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين ، فوقعت عيونهم على رقعة كتب فيها : « عيسى الناصرى ، ملك اليهود » · فثارت دماؤهم فى عروقهم ، ان ذلك الوالى الرومانى يسخر منهم ، ولا يكف عن سخريته ، فقالوا له :

ــ لا تكتب « ملك اليهود » ، فذاك قال : أنا ملك اليهود ·

فقال لهم بيلاطس :

ــ ما كتبت قد كتبت ·

٥٥

« وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم (١) ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه . ما لهم به من علم الا اتباع الظن . وما قتلوه يقينا » .

(قرآن كريم)

ركب الموت فى طريقه الى جلجثا : قائد رومانى يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفنة من الجنود الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس ينطلقون فى أثرهم ليشاهدوا الصلب ، تزجية للوقت فى العيد .

كانوا ثلاثة ينئون تحت ثقل الصليب . يهوذا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهوذا أكثرهم ضعفا . كان مجهدا محطما ، مزقته السياط والمحاكمات ، فى وجهه جروح ، وفى ثوبه دم جف ، فالصق الثوب بالجسم ، وساقاه تتثنيان تحته ، بحس كانما يكاد يهوى من الاعياء مغشيا عليه .

كانت أورشليم تموج بآلاف الحجاج من سورية ومصر وبابل

---

(١) ذكر جورج سايل مترجم القرآن الى الانجليزية ، فى سورة آل عمران صفحة ٣٨ أن السيرنثيين Cerinthians ، والكربوكراتيين Carpocartians وهم من أقدم فرق النصارى . قالوا ان المسيح نفسه لم يصلب ، وانما صلب واحد آخر من تلاميذه يشبهه شبها تاما .

وهناك الباسيليديون يعتقدون أن شخصا آخر صلب بدل المسيح .

وآسيا الصغرى واليونان ، فألقوا نظرة عابرة على موكب الموت ، وعادوا يستأنفون ما كانوا فيه من مرح وحبور ، فما تجشموا عناء السفر جلبا للأحزان ، بل للحج والترفيه ٠

وفى اثر الموكب الحزين ، ســـارت نســوة محجبات يذرفن الدموع . فهن أرق قلبا من الرجال الذين آمنوا به ، فلمــا أحسوا الخطر انفضوا من حوله ، وقســت القلوب ٠ ســمعوه فى الهيكل وهللوا له . فلما دنت الساعة الفاصلة بخلوا عليه حتى بالدموع ٠

دب الوهن فى جسد يهــوذا . فســقط وصــليبه فوقه ، ولولا الانفــاس الضعيفة المترددة ، لحسبوه قد مات . فصرخ به رجال قيافا وحنان أن يقوم ، وأن يحمل صليبه . ولكنــه كان عاجزا عن النهوض ٠

وأقبل سمعان القيروانى من حقله ، ورأى جمعا ينطلق خارج المدينة : جنودا رومانيين ، وصلبانا ونســاء على البعد يبكين ، فذهب يشاهد ما يجرى فى الطريق ٠ فلما رآه القائد الرومانى ، قال له ، وهو يشير الى الصليب الساقط فوق يهوذا :

ـ احمل هذا ٠

وذهب سمعان يفعل ما أمر به القــائد ، فمــا كان لامرىء أن يرفض أمرا صدر اليه من قائد رومانى ، ولكن رجال قيافا وحنان اعترضوا على ذلك الأمر ، وقالوا :

ـ لا بد أن يحمل هو صليبه حتى النهاية ٠ هذا هو الناموس ٠

كان القائد يبغى أن ينتهى من عمله ، فما كان يهمه كثيرا أو قليلا أن تطبق حرفية شريعة لا يؤمن بها ، فلم يلتفت لاعتراضهم ، وحمل سمعان الصليب ، ومال اثنــان على يهــوذا وعاوناه على النهوض . وانطلق ركب الموت فى الطريق ٠

وكان بين النسوة امرأتان ، أحســتا فى قلبيهمــا وقدة نار ،

وراحت دموعهما الحارة تجرى ، فلا تريان الا ما هما فيه من حزن عميق ، كانتا العذراء أم المسيح ، ومريم المجدلية . التى أخرجها من الظلمات الى النور ، ولولا تلك الدموع التى غامت بها العيون ، ولولا الحزن الثقيل الذى نزل بهما ، ولولا اليأس الذى ذهب بنفسيهما شعاعا ، لفطنتا الى أن ذلك المجهد المكدود ، الرازح تحت عبء الصليب غير عيسى الحبيب ٠

وبلغوا المكان ، وثبتت الصلبان فى الأرض ، وجىء بالرجال الثلاثة ، وخلعوا عنهم ثيابهم ، فأشاحت النسوة بوجوههن ، وقلوبهن منقبضة ، وأحست مريم خناجر تطعنها فى فؤادها ، وعلا النشيج والنحيب ٠

ورفع الرجال ، وفى وسط أكفهم دقت مسامير لتثبتهم فى خشب الصلبان فأحست النسوة كأن المطارق تدق قلوبهن ، فتمزق نياط أفئدتهن ، ودقت مسامير أخرى فى الأقدام ، فكادت مريم أم المسيح تنهار ، وكتمت مريم المجدلية صرخة مفزوعة كادت تفر من قلبها المطعون ٠

وصدق المسيح ٠ كان بنو اسرائيل فى العيد يمرحون ويفرحون ، اذ كانت أمه وأحبابه وأصحابه فى جلجثا فى حزن تخر من ثقله الجبال ، حزن أسدل أغشية قاتمة كثيفة على العيون ، فلم تعد ترى الا السواد ٠

وراح الوقت يمر وئيدا بغيضا ، ويهوذا على الصليب يئن من العذاب ، وقد ثبتت فوق رأسه الرقعة التى كتب فيها « عيسى ملك اليهود » ورجال قيافا وحنان يرمقونها فى غيظ شديد . كانوا يحسون فى تلك اللحظة الرهيبة أن سخرية بيلاطس بهم تلطمهم وتكدر صفو المشهد الذى عملوا له ، وترقبوه طويلا ٠

وبدأ همس الرجال الذين لم يؤمنوا بعيسى ، فراحوا يقولون :

ـ خلص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه ٠

ـ ان كان هو المسيح ملك اسرائيل ، فلينزل الآن عن الصليب ، لنرى ونؤمن به ٠

ولو تهتكت الأغشية عن عيونهم ، ولو أرهفت آذانهم ، والتقطت سخرية القدر بهم ، لتيقنوا أن ذلك المصلوب ليس هو ، وأنه خلص آخرين وخلص نفسه ، ولكن كان فى عيونهم عمى ، وفى آذانهم وقر ، وما كان الله يريد لهم الهداية وقلوبهم أعشاش للنفاق والرياء والكفر .

وراح الجنود الرومانيون يسخرون بيهوذا وهو على الصليب . التقطت آذانهم ما يهمس به أعداؤه ، فقالوا له :

ــ ان كنت أنت المسيح فخلص نفسك .

فقال له المصلوبان معه :

ــ ان كنت أنت المسيح فخلص نفسك وايانا .

ولكنه لم يكن المسيح ، كان يهوذا يتجرع الكاس المريرة ، ليشفى روحه مما علق بها من وساوس وشكوك ، فلم يخلص نفسه ولم يخلصهما .

غابت الشمس ، وزحف الظلام ، والرجال الثلاثة على الصلبان يتعذبون ، يتفصد منهم العرق ، ويلتقطون أنفاسهم فى جهد ، يئنون من الآلام القاسية المريرة ، وهتف يهوذا فى صوت واه :

ــ انا عطشان .

كان هناك اناء مملوء خلا ، فغمسوا اسفنجة فيه ، ورفعوها اليه . فلما أخذ يهوذا الخل ، ألقى راسه على صدره ، دب فيه ضعف شديد ، فلم يعد قادرا أن يرفعه . وصدق عيسى : فقد قال فى العشاء الأخير : « وأقول لكم انى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا ، الى ذلك اليوم ، حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى (١) » . فهو لم يشرب الخل على الصليب ، بل شربه يهوذا ، فالخل من نتاج الكرمة ، وما كان لرسول أن يقول كذبا .

وضج يهوذا من آلامه ، وتذكر أن الله يعذبه بشكه الذى حالط ايمانه ، فحقد على نفسه وصرخ :

---

(١) ذكرت فى انجيل متى : فى ملكوت أبى . وسبق أن قلت ان أبى يقصد بها ربى .

ـ ايلى ايلى لم شبقتنى ؟ ! (الهى الهى لماذا تركتنى) ٠

لم يقل : أبى ٠٠ أبى لم تركتنى ؟ فما كان يهوذا تعود أن يدعو الله « بأبى » ٠ ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حينا ، كانت تجربة قاسية ، دفع ثمنها غاليا صابرا ، وفى لحظاته الأخيرة زهق فصرخ معاتبا ، ولولا سكرات الموت ما نبس بكلمة ٠

افزعت تلك الصرخة المدوية فى الظلام الواقفين يترقبون النهاية ، وقال بعضهم :

ـ انه ينادى ايليا ٠

وتحركوا فى فزع ، فقال آخرون :

ـ انتظروا لنرى هل يأتى ايليا يخلصه ٠

ومزق الصوت قلوب النساء ، فارتفع فى سكون المكان نشيج ونحيب ، زاد فى قلق أعصاب الخائفين المترقبين حدوث معجزة ، ولكن المعجزة لم تأت فما كان صاحب المعجزات هناك ٠

وصرخ يهوذا صرخة أخرى ، أعقبها صمت مطبق ، فقد سلم الروح ٠ مات الموتة الأولى ، ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ، ليحيا مع المسيح الى الأبد ٠

استحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحوارييه ، يدين أسباط اسرائيل الاثنى عشر ٠ كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى الى بنى اسرائيل يبشرون باسمه ، ويدعون الناس الى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله اليهم أن آمنوا بى وبرسولى ، وكان من المبشرين بالجنة ، مسه طائف من الشيطان . فلما تذكر اذا هو مبصر ، فقدم نفسه راضيا عن سيده ليتطهر . فتاب الله عليه . نقد تاب توبة لو قسمت على أهل الأرض لوسعتهم ٠

تضايق رؤساء السنهدرين من الانتظار الطويل . أرخى الليل سدوله ، ومشى الوصب فى أبدانهم ، بعد السهر فى تدبير مؤامرتهم . فأرسلوا الى بيلاطس يستأذنونه فى كسر سيقان المصلوبين والتخلص منهم ، فقد كان بعضهم يستمر أياما قبل أن يلفظ آخر أنفاسه . وعاد الرسل من عند بيلاطس بالاذن بذلك . فأخذ الجنود

مطرقة ثقيلة ، وكثروا سيقان اللصين ، وذهبوا الى يهوذا ، فالفوه قد فارق الحياة ·

وأراد أحد الجنود أن يتحقق من موته ، فطعن جنبيه بحربة ، ولما رأى رجال الدين أن المصلوب قد انتهى ، غادروا المكان يحسون كأنما انزاح كابوس عن صدورهم ، وانداحت فى أفئدتهم نشوة الظفر ، حسبوا أنهم قتلوا عيسى ، وتخلصوا منه ، وخلا لهم وجه بنى اسرائيل ، يمتصون أموالهم باسم الدين ، فمن ذا الذى يبصرهم بعده أن الله غنى عن عباده ، وأنه لا ينال من لحوم الأضحيات ودمائها ، ولكن يناله التقوى منهم ، وما دار بخلد أعضاء السنهدرين أن الله سخر منهم ، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم ، « الساكن فى السموات يضحك ، الرب يستهزىء بهم » ·

انطلق رجال الدين وقد حقت عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباكيات النائحات . واما حواريو المسيح فقد ولوا الادبار مفزوعين ، ولو أنهم فهموه ، لما شكوا فيه ، ولتيقنوا أنه لم يصلب ، بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ، و « طوبى لمن لا يعثر فى » · ولو أصاخوا لرن فى آذانهم قوله ، مؤكدا نصره على أعدائه من صدوقيين وفريسيين :

ـ انى قد غلبت العالم ·

٥٦

« وما انزلنا عليك الكتاب الا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه » ·

(قرآن كريم)

انسحب الجنود الرومانيون ورجال السنهدرين وخدمة الهيكل يحملون مشاعلهم فى أيديهم ، وخلفوا المصلوبين فى الظلام الدامس الثقيل ، ومريم المجدلية وأختها مرثا وسالومى أم يعقوب ويوحنا وحفنة من النسوة المؤمنات ، يبكين فى حرارة ، حتى تكاد أكبادهن تتصدع من البكاء ، كان الأمل فى معجزة تنقذ المصلوب يراود أخيلتهن حتى اللحظات الأخيرة ، ولكن لما طعنه الجندى الرومانى بحربته تبخر الأمل ، وجرت دموع اليأس · نفذ القدر ، وحم القضاء وأسلم المصلوب الروح ، دون أن تنقذه السماء ، فما كان المصلوب رسول الله ، وما كان صاحب المعجزات ·

كان يقف على البعد رجلان ، يرصدان ما يجرى فى جلجثا ، وفى قلبهما حزن عميق ، كانا نيقوديموس ، ثالث أعضاء السنهدرين الذى تخلف عن الاجتماع الأخير ، الذى حكم فيه بالقتل على من حسبوه المسيح ، لأن الايمان عرف طريقه الى قلبه ·

ساد الظلام جلجثا ، فزاد انقباض نفسيهما ، فالرومانيون يخلفون أجساد المصلوبين تنهشها الكلاب ، وتتخطفها طيور السماء ، فعز عليهما وهما من اليهود الذين يحفلون بدفن الموتى

فى مقابر فاخرة ، أن يترك جسد من حسبوه المسيح فى الخلاء ، ففكرا فى أن يستأذنا بيلاطس فى مواراته فى التراب ٠

كان يوسف الرامى اكثر جرأة من نيقوديموس ، فانطلق فى الظلام ، حتى اذا بلغ أورشليم أغذ السير الى قصر بيلاطس . لا يخشى غضب الوالى الرومانى ، فياطالما غضب على من جاءه يلتمس منه ما يريد يوسف أن يلتمسه ٠

دخل على بيلاطس ، فألفاه فى ايوانه ، فتقدم منه وقال :

ـ جئت التمس يا مولاى الاذن لى بدفن عيسى ٠

تعجب بيلاطس وقال :

ـ أمات هكذا سريعا ؟

كان المصلوبون يقاسون عذاب الصلب يوما أو يومين ، أما هذا المصلوب فلم يستغرق بعض يوم ، فلم يصدق بيلاطس ، وبعث الى قائد المائة يسأله . فلما أكد له موته ، سمح ليوسف بدفنه ٠

ذهب يوسف واشترى كتانا ، وذهب نيقوديموس وجلب مائة رطل من مر وعود ، وفى فحمة الليل فى جلجثا لاح قبس نور المشعل الذى يحمله نيقوديموس القادم بالطيب ، وما هى الا لحظات حتى لاح نور آخر يجاهد أن يزحزح طبقات الظلمات ، كان النور المنبعث من مشعل يوسف الرامى ، القادم بالأكفان والتصريح بدفن المصلوب ٠

هب يوسف ونيقوديموس ينزعان المسامير الطويلة المثبتة لقدميه ، وجىء بسلم وارتقاه أحدهما ، وأخذ ينزع المسامير من كفيه ويسند الجسد بكتفيه ، وهرعت النسوة يعاونه على انزال المصلوب ، وحملت الجثة بينهم ، وانطلقوا الى حديقة قريبة ، كانت ملكا ليوسف الرامى ، وكان بها قبر فاخر أعده يوسف لنفسه ٠

وذهب يوسف وأحضر ماء ، وراح هو ونيقوديموس يغسلان الجثة ، ويزيلان منها آثار الدم ، وتقدمت مريم المجدلية ومرثا وسالومى ، ونزعن عن رأسه تاك الشوك الذى توجه به الرومانيون مستهزئين ، وأخذن يحنطن الجثة بالحنوط الذى جاء به نيقوديموس، ولما غطى به الجسد ، تقدم يوسف وقبل جبهته ، وتقدم الجميع يقبلونها ، مريم فى نشيج ونحيب ، والنسوة فى بكاء وعويل ، والرجلان صامتان ، وان كان الحزن يمزق فؤاديهما ، ووقدة من النار تلسع حلقيهما ، والدموع تزيد نفسيهما أسى ولوعة .

وجيء بالكتان وأدرج الجسد فيه ، وقام يوسف ونيقوديموس يقرآن فى صوت حزين صلاة الموتى ، ولما انتهت الصلاة ، حمل الجسد المدرج فى الأكفان ، ودلى فى قبره ، ووورى بالتراب ، وانصرف الجميع فى جوف الليل البهيم مطرقين .

٥٧

« بل رفعه الله اليه » ·

(قرآن كريم)

نور الفجر لم يبدد بعد ظلام الليل ، وبدأت زقزقة العصافير تعكر السكون المسيطر على حديقة يوسف الرامى ، التى قبر فيها يهوذا ، وأخذ شبح يدنو فى الظلام مطرق الرأس ، كانت مريم المجدلية متشحة بالسواد قادمة فى البكرة ، تذرف على القبر الدموع ، تقدمت فى خطوات ثقيلة ، حتى اذا بلغت القبر ألفت الحجر مرفوعا عنه ، فخفق قلبها ، وانتابها رهبة ، وراحت تركض تنقب عن الحواريين ، الذين هاموا على وجوههم حذر الموت ·

وعادت وفى رفقتها سمعان بطرس ويوحنا ، وقالت لهما :

ـ أخذوا السيد من القبر ، ولسنا نعلم أين وضعوه (١) ·

كانت تحسب أن المصلوب هو المسيح ، فلما سرقت الجثة انتابها هم ثقيل ، وجرت دموعها غيظا ، ونظر يوحنا الى القبر فوجده خاليا ، ودخل بطرس باندفاعه المعهود ، فلم يجد الجثة فاضطرب ، ودخل يوحنا ، فلما لم يجد شيئا غاص قلبه حزنا ،

---

(١) هذه رواية انجيل يوحنا ، والاناجيل الأخرى متضاربة متناقضة فى هذا الموضوع · ويذكر جورج بوست الأمريكى فى قاموس الكتاب المقدس ، أن الجزء الخاص بهذا الموضوع فى انجيل مرقص لم يكن فى نسخ انجيل مرقص القديمة ، بل أضيف اليه فيما بعد ·

وبقيا صامتين لحظات ، ثم خرجا مطرقين ، وانصرفا وقد خلفا مريم المجدلية تذرف الدمع الهتون ٠

★ ★ ★

فر عيسى فى الليل من الجنود الرومانيين بعد أن ولى حواريوه الأدبار ، ووقع يهوذا فى أيديهم ، فلما صلب وهدأت نفوس أعضاء السنهدرين وأتباعهم ، واطمأنوا الى أنهم تخلصوا من عدوهم ، خرج عيسى من مخبئه ، وهبط من جبل الزيتون الى وادى قدرون ، ثم انطلق الى حديقة يوسف الرامى ، الى قبر يهوذا ، الحوارى الذى دفع حياته ليتطهر من أدران الشك الذى راوده ٠

لمح عيسى مريم المجدلية مطأطئة الرأس ، وقد انخرطت فى البكاء ، فاقترب منها ، وبلغ أذنيها وقع أقدام ، فالتفتت ، ووقع بصرها عليه ، على عيسى الذى يكاد كبدها يتصدع من البكاء عليه ، ولكنها لم تعرفه (١) ، حتى مريم شكت فيه ٠

ـ يا امرأة لماذا تبكين ؟ من تطلبين ؟

وانسكب فى أذنيها صوته ، صوته الذى طالما جلست الساعات تصغى اليه منتشية ، ولكنها لم تميزه ، لم تميز وجهه ، ولم تميز صوته ، بل حسبته البستانى ، فقالت له فى توسل :

ـ يا سيد ، ان كنت أنت حملته ، فقل لى أين وضعته وأنا آخذه ٠

كانت مريم تحسبه البستانى ، حمل الجثة الى مكان آخر واخفاها ، حتى مريم المجدلية شبه لها ، مريم التى كانت دارها بصيص الامل فى الليل السرمد ، الواحة الوارفة فى صحراء دعوته القاسية ، مريم التى أحبته حبا طاهرا سما على كل حب لم تعرفه ولم تعرف صوته ، وحسبته البستانى ، فما أيسر أن يختلط الأمر

---

(١) يوحنا : ٢٠ ـ ١٤٠

ـ ماذا تتطارحان ؟ وما هذا العبوس ؟

فأجابه أحدهما :

ـ أأنت غريب ؟ ألم تعلم ما حدث فى أورشليم فى هذه الأيام ؟

كان يأمل أن يعرفاه ، وكان يحب أن يعرف كيف فهم تلاميذه ما جرى من حوادث ، وهم بعيدون عن مجراها ، هائمون على وجوههم حذر الموت ، فقال له :

ـ ماذا حدث ؟

ـ حوادث عيسى الناصرى ، الذى كان نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله والشعب ، وكيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، وكنا نرجو أن يكون المزمع أن يفدى اسرائيل .

لم يقولا : عيسى الناصرى ابن الله ، ولم يقولا عيسى الناصرى الرب ، بل قالا عيسى الناصرى النبى ، الذى أسلم للكهنة والحكام ، فضايق عيسى أنهم لم يفقهوا شيئا ، ولم يفهموا قوله فى تلك الليلة التى قال فيها : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » و « طوبى لمن لا يعثر فى » . ولكن كلهم شبه لهم فيه ، فقال لهما :

ـ أيها الغبيان وقصيرا الايمان .

واقتربوا من القرية التى كان التلميذان منطلقين اليها ، فتظاهر عيسى أنه مستأنف سيره ، فقالا له دون أن يعرفاه :

ـ امكث معنا ، مال النهار ، ولاحت بشائر الليل .

فدخل معهما ، وجىء بالطعام ، فتناول الخبز ، وباركه وكسره ، وقدمه لهما . ولما انتهى الطعام ، خرج عيسى وتلميذاه فى حيرة لا يدريان أكان هو عيسى أم غيره ؟ !

أرخى الليل سدوله ، فاجتمع الحواريون يتهامسون فى دار بعيدة عن عيون اليهود ، كانوا يذكرون أن مريم رأت المسيح ، وانه

على رجال السنهدرين الذين لم يروه الا عرضـا ، وعلى بيلاطس وهيرودس الذين لم يقابلاه أبدا •

وارتفع صوت عيسى مرة ثانية :

ـ يا مريم •

والتفتت مريم ، وأنعمت النظر ، وهتفت :

ـ ربونى (أى يا معلم) •

وهرعت اليه ، تمرر يدها فى دهش على وجهه وعلى يديه ، كانت على يقين أنه صلب ، فظنت أن الماثل أمامها روح ، فجعلت تتحسسه ، فقال لها :

ـ لا تلمسينى ، لأنى لم أصعد بعد الى ربى (١) ، ولكن اذهبى الى اخوتى ، وقولى لهم : انى أصـــعد الى أبى وأبيكم ، والهى والهكم •

وهرعت مريم الى الحواريين فى مرح وفرح ، تخبرهم أنهـا رأت السيد (٢) ، وأنه أخبرها أنه ذاهب الى ربه ، وأن الله يرفعه •

وسار عيسى يتلفت ، لا خوفا من أعدائه ، فقد سخر الله منهم ، بل تلفت المودع للدنيا ، وفيمـا هو فى سـيره ، اذ لمح اثنين من تلاميذه ، فأسرع اليهما ، وانطلق معهمـا فى الطـريق يحادثهما ويحاورهما ولم يعـرفاه (٣) ، ولم يفطنـا الى أنه عيسى ، حتى تلاميذه شبه لهم ، قال لهما :

---

(١) ذكر فى يوحنا ٢٠ : ٧١ أبى •

(٢) فى ترجمة جمعيـة التوراة الأمريكية « رب » بدل سـيد ويلاحظ أن هذه الجمعية تترجم كلمة « مار » اليونانية « برب » اذا كانت عن عيسى صلى الله عليه وسلم ، و « بسيد » اذا كانت عن غيره !

(٣) لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٢٥ •

أخبرها أنه صاعد الى ربه ، وصدق بعضــهم ذلك القول ، ورفض بعضهم الآخر أن يصدقه ، حسبوا أن أوهام مريم صــورت لها ما قالت ، فقد كانوا جميعا يحسبون أن عيسى صلب وقبر ، ولو دار بخلدهم أنه فر من الجنود الرومانيين ، وأن غيره صلب عنه ، لكان تصديقها يسيرا ٠

وفيما هم فى حوارهم ، دخل رجل وقام فى وسطهم ، فنظروا اليه ، فخفقت قلوبهم رعبــا ، كان عيسى بقامتــه الطويلة وعينيــه السوداوين منتصبا ، وأراد أن يعيد اليهم طمأنينتهم ، فقال لهم فى صوت هادىء :

ـ سلام لكم ٠

لم يصدقوا أعينهم ، وحسبوه خيالا ، فهرعوا اليه يتحسسونه ، فلما تيقنوا أنه المسيح ، فرحوا وتحقــق قوله لهم : انه عما قليــل لا يرونه ، ثم عما قليل يبصرونه ، وان العالم يفرح وهم يحزنون ، ثم ينقلب حزنهم فرحا ٠

وراحوا يتحدثون ، فتيقن أنهم لم يفقهوا شيئا ، فغادرهم وخرج ، وانساب فى سكون الليل وحده ، انه خارج كما خرج موسى ، خارج على ألا يعود ، ذاهب الى ربه ليتوفاه ويرفعه اليه ٠

ذهب عيسى مطرقا ، فلا بنى اسرائيل اصطلحوا ، ولا تلاميذه استطاعوا أن يفهموا أسرار ملكوت الله على الوجه الصحيح ، ذهب ويتردد فى أذنيه قوله : « ولكن متى جاء ابن الانســان فلعــله يجد الايمــان على الأرض » ٠ ذهب ليرفعه الله اليــه ، ويرســل اليهم « الفراقليط » الذى بشرهم به ليمكث معهم الى الأبد ، « الفراقليط » روح القدس ليعلمهم كل شىء ويذكرهم بكل ما قاله ، ويشــهد له أنه عبد الله ورسوله ، « ويرشــدهم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من

نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ٠

ذهب ليأتى ذلك الذى « جعله الله عهدا للشعب ونورا للأمم ، ليفتح عيون العمى ، ليخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن ، الجالسين فى الظلمة » ذلك الذى « يضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » ومن بشر موسى به ، وقال عنه أشعيا على لسان الله عز وجل : « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته ٠٠ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الارض ، وتنتظر الجزائر شريعته » ٠

ذهب عيسى وما وضع الحق فى الأرض ، كسره أعداؤه ، أما الآخر عبد الله ومختاره فلا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض ، حتى يسود الدنيا ملكوت الله ٠

وبلغ عيسى ظلام الليل الثقيل ، ليرفعه الله الى العزة والمجد والخلود ٠

للمؤلف

الطبعة الاولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو	سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو	سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو	سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر	سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو	سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير	سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر	سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمة مع محمد محمد فرج		يناير	سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية		سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو	سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة		سنة ١٩٤٩
النقاب	قصة	مايو	سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم			سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة			سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية		سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص		سنة ١٩٥٣
حياة الحسين			سنة ١٩٥٤
قلعة الابطال	قصة		سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	نوفمبر	سنة ١٩٥٧

		الطبعة الاولى
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان		يوليو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	قصة	يونية سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يونية سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٤
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٥
ذكريات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الدينى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٠ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
قصص العرب فى أوربا	فى ٢٤ »

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

في ٢٠ جزءا

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

	مليم	جنيه
ثمن الجزء الواحد	٥٠٠	—
ثمن المجموعة كاملة	٠٠٠	١٠

١ — ابراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢ — هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ — بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ — العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ — قريش	مايو ١٩٦٧
٦ — مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧ — اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ — خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ — دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ — عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ — الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ — غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ — غزوة احد	يناير ١٩٦٩
١٤ — غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ — صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ — فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ — غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ — عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ — حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ — وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠